٣٠١٠٢٠٠٠٠٠٢٣٣١

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية اللغة العربية
قسم الدراسات العليا
فرع البلاغة والنقد

قامت الطالبة بإجراء التعديلات التي طلبتها لجنة المناقشة.

مناقش	مناقش	المشرف
أ.د/نزيه عبدالحميد السيد	أ.د/عبدالحكيم راضي	د/عوض معيوض الجميعي

التصوير البياني في شعر القطامي
دراسة وتحليل

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في البلاغة

إعداد

الطالبة / مرزوقة عبدالله السفياني

إشراف

الدكتور / عوض بن معيوض الجميعي

١٤١٤هـ - ١٩٩٤م

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

عنوان الرسالة : التصوير البياني في شعر القُطَامِيِّ –دراسة وتحليل .

اسم الطالبـــة : مرزوقة عبدالله مقبول السُّفياني .

الدرجة العلمية : ماجستير .

ملخص الرسالة

اشتملت الرسالة على تمهيد وأربعة فصول :

التمهيد : ويحتوي على نبذة مختصرة عن القطامي ، والدراسات التي قامت حوله ، والوقوف على شعره في كتب البلاغيين والنقاد القدامى . **الفصل الأول** : التشبيهات في شعر القطامي : ودرست فيه تشبيهاته موزعة على موضوعات : الطلل ، والمرأة ، والناقة ، والحيوان ، والحرب ، والطبيعة ، ـ ـ ـ ، **الفصل الثاني** : الاستعارة في شعر القطامي : وتناولت فيه الاستعارة في صورها المختلفة من تصريحية ، ومكنية ، وتمثيلية ، وذلك حسب الموضوعات التي عرضت لها في " التشبيهات " . **الفصل الثالث** : الكناية في شعر القطامي : وقد تم تصنيف الكنايات حسب الموضوعات ، وحسب أقسام الكناية معاً ، وذلك عن طريق الإحصاء ، مع التحليل والموازنة ، والربط بينها وبين نظائرها في الشعر العربي ما أمكن . **الفصل الرابع** : مصادر التصوير البياني في شعر القطامي : وذلك لمعرفة العناصر التي انتزع الشاعر منها صوره .

وقد قامت دراسة « التصوير البياني في شعر القطامي » على استقصاء المعاني التي أجرى فيها القطامي ألوان البيان المختلفة من تشبيه ، واستعارة ، وكناية ، وجمعها بعد تحديدها ، مع ذكر نماذج لأكثرها ، والعناية باختيار النماذج التي تبرز مذهبه الشعري ، وتحليلها ، والموازنة بينها ، واستخلاص الفروق لربطها بسياق القصيدة العام . كما جرى الوقوف أمام الصور التي وردت عند غيره من الشعراء ، والتي تشبه صور القطامي ، والموازنة بينها ؛ لمعرفة الصور التي نسج القطامي على منوالها دون التقيد بفترة تاريخية معينة ، ثم النظر إلى صور القطامي البيانية من زاوية خاصة ؛ للتعرف على منازع هذه الصور ، وكيف استخرجها من البيئة المنظورة المعاشة ، ومن الموروث الشعري المقروء إلى جانب الإشارة إلى مدى تردد بعض تلك الصور في شعره من حيث كثرتها أو قلتها كي يستدل منها على الصور التي كانت أكثر تكراراً على بيانه ، وأكثر تكراراً على خاطره .

هذا ، وقد توصلت الدراسة إلى نتائج ، أهمها مايلي :

١ – أن القطامي كان منجذباً إلى كل ما في البادية من مشاهد وآثار، ومتعلقاً بها ، فهو يستخدم من طاقات وإمكانات اللغة ما يعينه على أن يحلق في أجواء شعرية تظهره أكثر التصاقاً بجو البادية .

٢ – أن للقطامي تشبيهات جيدة ، وله صور نادرة منها وصفه للجمل، وقد كان التشبيه والكناية من أكثر ألوان البيان التي اعتمد عليها القطامي .

٣ – مراعاة التأنّي فيما أُتيح له من صور بيانية ، وعدم تعارضها ، بل إنه يحرص على علاقات الصور والعناصر مما يشهد له بالبراعة .

٤ – على الرغم من تعدد إيراد الصور حول بعض العناصر التي صوّرها القطامي إلا أن الإكثار من ذلك برز في موضوعين ، هما : المرأة ، والناقة ، فقد رصد جوانب متعددة ومختلفة تتعلق بهما ، كذلك برزت الكناية في شعره بشكل واضح ، لا سيما الكناية عن صفة وفي موضوع الحرب بصفة خاصة .

عميد كلية اللغة العربية بالنيابة	المشرف	الطالبة
د/سعد حمدان الغامدي	د/ عوض بن معيوض الجميعي	مرزوقة عبدالله السفياني

المقدمة

وتحتوي على :

١ - أهداف البحث

٢ - أسباب اختيار موضوع البحث

٣ - خطة البحث

٤ - الصعوبات التي واجهت الباحثة

الحمد لله الذي هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ، وأصلي وأسلم على أفضل خلق الله أجمعين ، والمبعوث رحمة للعالمين ، سيد البلغاء والفصحاء ، سيدنا محمد ، وعلى آله وأصحابه ، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين . وبعد :

فقد اعتمد القطامي في شعره على أساليب مختلفة من الصور البيانية ، وذلك لما لهذه الألوان من خصوصية في إبرازالمعنى مشوباً بخطرات الشاعر التي تعتمل في نفسه ، فهي تتيح للمعاني أن تتفاعل ، وينبثق بعضها من بعض ، ومن أجل ذلك أجمع الجميع على أن الكناية أبلغ من الإفصاح ، والتعريض أوقع من التصريح ، وأن للاستعارة عندهم مزيةً وقدراً ، وأن المجاز أبلغ من الحقيقة ، كما بيَّن الإمام عبد القاهر في كتابه " دلائل الأعجاز " .

ولهذا كان لموضوع " التصوير البياني في شعر القطامي " أهداف منها :

١ - الوقوف على الصور البيانية في شعر القطامي ، والتعرف على المحور الذي دارت حوله .

٢ - دراسة طريقة صوغه لألوان البيان المختلفة من تشبيه ، واستعارة ، وكناية ، وكيفية تدقيقه في رسم الصورة .

٣ - معرفة الصور المتنامية ، وكيف أطال القطامي الوقوف أمام المشبه به باعتبار أن ذلك من مذاهب الشعراء ، والتعرف على الصور النادرة في شعره ، مع الوقوف على الصور البدوية عنده .

هذا وسوف يكون منهج الدراسة موضوعياً .

ولأن القطامي شاعر فحل ، والبيت عنده يشكل وحدة ، ويأتي شعره على نسق الشعر القديم بكل جزالته وقوته ، وجدت أن دراسته ستكون أكثر خصوبة وغنى إذا ما درست على منهج الأسلوب القديم ، فهو أقرب إلى طبيعة شعره ، وأجدى مع محاولتي الجادة لاستخراج العناصر التعبيرية الخاصة به ، أو حتى التي استقاها من كلام الآخرين وتجاربهم ، ثم صاغها بأسلوبه هو وتجربته .

أسباب اختيار موضوع البحث :

ومما دعاني إلى اختيار الموضوع أسباب هي :

أولاً : ما يتميز به شعر القطامي من قوة وجزالة غلبت على جلّ شعره.

ثانيا: غَناء المصادر وأمهات الكتب بشواهد من شعر القطامي ، وكثرة استشهاد القدماء به ، مما يجعل شعره جديراً بالدراسة والبحث .

ثالثا : وضوح الجانب البلاغي في شعر القطامي ، فهناك ظواهر بلاغية خصبة تتيح للباحث مجالاً رحباً لتتبعها ، وإفرادها بالتقصي والدراسة .

خطة البحث :

وتشتمل على تمهيد ، وأربعة فصول .

التمهيد :

ويحتوي على تعريف بالشاعر ، وذكر نبذة مختصرة عنه ؛ وذلك لوجود دراسة تخصصت في ذلك ، كما احتوى التمهيد على تناول الدراسات التي قامت حول القطامي ، والوقوف على شعر القطامي في كتب البلاغيين والنقاد القدامى .

الفصل الأول : التشبيهات في شعر القطامي :

وقد تناولتُ تشبيهاته حسب الموضوعات التي وردت في شعره ، وهي على النحو التالي :

الطلل ، المرأة ، الناقة ، الحيوان ، الحرب ، الطبيعة ، الخمر .

وقد قمت بترتيب هذه الموضوعات حسب نهج القصيدة ، وعلى المنوال الذي رسمه ابن قتيبة وغيره من النقاد القدماء لسير الشاعر في القصيدة ،وذلك حيث يقول :« سمعت بعض أهل الأدب يذكر أن مقصِّد القصيد إنَّما ابتدأ فيها بذكر الديار والدمن والآثار ، فبكى وشكا وخاطب الربع واستوقف الرفيق ليجعل ذلك سبباً لذكر أهلها الظاعنين عنها إذ كان نازلة العَمد في الحلول والظعن على خلاف ما عليه نازلة المَدَرِ لانتقالهم عن ماءٍ إلى ماء ، وانتجاعهم

الكلأ وتتبُّعهم مساقط الغيث حيث كان ، ثم وصل ذلك بالنسيب فشكا شدة الوجد ، وألم الفراق ، وفرط الصبابة والشوق ليُميل نحوه القلوب ، ويصرف إليه الوجوه ، ويستدعي به إصغاء الأسماع إليه ؛ لأن التشبيب قريب من النفوس لائط بالقلوب لِما قد جعل اللّه في تركيب العباد من محبَّة الغزل وإلف النساء ، فليس يكاد أحد يخلو من أن يكون متعلقاً منه بسبب وضارباً فيه بسهم حلال أو حرام ، فإذا علم أنَّه قد استوثق من الإصغاء والاستماع له عقَّب بإيجاب الحقوق ، فرحل في شعره ، وشكا النصب والسهر وسُرَى الليل ، وحرَّ الهجير ، وإنضاءَ الرحلة والبعير ... »(١) .

هذا ، وقد وجدت أن الأخذ بمنهج القصيدة مع اعتبار مقياس الكثرة في بقية الموضوعات التي حواها شعر القطامي له ما يسوغه ؛ لأن قصائد القطامي لم تسعفني بترتيب محدد ، وأعني بمقياس الكثرة الصور التي كانت أكثر تكراراً على بيانه ، وأكثر تكراراً على خاطره .

وحاولت في كل موضوع من تلك الموضوعات استخراج كل معنى أجرى فيه تشبيهاً ، ثم جمع تشبيهاته في كل معنى من هذه المعاني مع تقديم إيضاح للمواضع التي ورد فيها ذلك العنصر ، واختيار النماذج التي تدل على مذهبه الذي نريد بيانه في شعره ، وعقد مقارنة بينها ما أمكن ، واستخلاص الفروق ، وربط تلك الفروق بسياق القصيدة العام ؛ لأن البيت الذي أُقتطع من القصيدة هو جزء من نسيجها ، ومعدنها ، فالعودة بالبيت إلى السياق مما يعين على فهم الفروق بين التشبيهات ، ثم النظر في التراث الشعري الذي كان بين يدي الشاعر لاستخراج بعض الصور التي تشبه صور القطامي ، والموازنة بينها وبين صور القطامي .

---

(١) يُنظر : الشعر والشعراء ١٨/١ .

الفصل الثاني : الاستعارات في شعر القطامي :

وتناولت فيه الاستعارة في صورها المختلفة من تصريحية ، ومكنية ، وتمثيلية ، وذلك حسب الموضوعات التي عرضت لها في " التشبيهات " .

ولم أفرد المجاز المرسل بمبحث خاص نظراً لغلبة صور الاستعارة على صور المجاز ، وإن كان ذلك لم يمنع من الإشارة إليه ضمناً أثناء التعرض للصور البيانية في شعره .

الفصل الثالث : الكناية في شعر القطامي :

وقد تم تصنيف الكنايات حسب الموضوعات ، وحسب أقسام الكناية معاً ، وذلك عن طريق الإحصاء ، مع التحليل والموازنة ، والربط بينها وبين نظائرها في الشعر العربي ما أمكن ، والموضوعات هي :

الحرب ، المرأة ، الناقة ، الكرم .

وجاء ترتيبها على اعتبار مقياس الكثرة .

الفصل الرابع : مصادر التصوير البياني في شعر القطامي :

وذلك لمعرفة العناصر التي انتزع الشاعر منها صوره .

أما **الخاتمة** فقد ضمنتها أهم النتائج التي توصل إليها هذا البحث .

الصعوبات التي واجهت الباحثة :

ومن الصعوبات التي واجهتني أثناء كتابة هذا البحث -علاوة على نقص بعض المصادر المهمة في البحث - صعوبة تحديد طبعة دقيقة لديوان القطامي اعتمد عليها في بحثي ، فقد بدأت بطبعة بيروت ، والتي قام بتحقيقها الأستاذان السامرائي ، ومطلوب ، ووجدت فيها أخطاء لا تحصى من أخطاء في الضبط ، واختلاف في الرواية ، علاوة على عدم وجود شرح أو تحليل للأبيات ، وقد عكفت عليها فترة غير يسيرة في محاولة جادة لفهم ما ورد فيها من نقص ولكن دون جدوى ، مما جعلني أتجه إلى طبعة ليدن ، وإن كانت هي الأخرى تفتقر إلى ذكر معنى الأبيات ، وشرح الدلالة المعجمية للكلمات إلا ما يرد بشكل نادر ومجتزأ ، مما أدى إلى مضاعفة الجهد . وفي الوقت الذي كان ينبغي علي أن أنصرف بوقتي وجهدي وطاقتي لدراسة التصوير البياني في

شعر القطامي وجدتُ أنه يتعين قبل ذلك التوصل إلى المعنى الدقيق للأبيات ، فكانت كتب المعاجم ، وكتب البلاغة والأدب من الوسائل التي أعانت على فك الرموز اللغوية التي استخدمها القطامي في شعره ، وقد كان لمساعدة المشرف دور في تخطي تلك الصعوبة والمشقة . بالإضافة إلى وجود إشارات تاريخية في بعض القصائد يلزم الوقوف عليها؛ لحاجة النص إلى إيضاحها وفهمها ومع ذلك لم أجد بُدّاً من الاعتماد على طبعة ليدن ، وهي من تحقيق المستشرق بارت ، وبدأت أدير بحثي على أساسها ، وأعانني على ذلك وجود مقالة عُنيت بعقد مقارنة بين طبعتي الديوان " طبعة ليدن ، وطبعة بيروت " للدكتور / نزيه كسيبي ، وهي ملاحظات أكدت ما كان يدور في ذهني حول طبعة بيروت ، ومن ملاحظاته تلك قوله : " وقد قام بارت بعمل أكثر جدية وأقرب إلى أصول التحقيق من عملهما في ذكر المصادر المختلفة والعديدة لأبيات الديوان والتنبيه دائماً إلى الاختلاف في الرواية ..."(١) .

كما ذكر أنهما – أي السامرائي ومطلوب – " عندما يقابلان نصهما بطبعة ليدن ، لكي يبينا للقارىء التناقض بين روايتي الطبعتين ، فإن نقلهما من طبعة ليدن غالباً ما يعتوره الخطأ الذي لا يُعزى دائماً إلى التحريف المطبعي ، نحو كلمة سلاحه في بيت القطامي :

ويكون حَدُّ سِلاحِهِ لأشَدِّها ... قَرَماً وأكثرِها لَهُ غَشَيانا

ويروى البيت في طبعة بيروت على هذا النحو :

ويكون حَدُّ سنانه لأشدِّها ... قَرَماً وأكثرها له غَشَيانا

والتعليق الوحيد الذي أثاره البيت " ص ٦٣ ، حاشية رقم ٤١، ط: بيروت" هو : " كذا في ج "أي نسخة الشنقيطي" وهو في ل "أي طبعة ليدن"

---

(١) " قراءة موجزة في طبعتي ديوان القطامي" ٧٥٤ .

ويكونُ حَدُّ حسامه " .

وطبعاً لا يضبطان الحواشي ألبتة ، ولا ينبهان إلى اختلاف الضبط والتشكيل في المتن ، ولا أدري كيف أضحت كلمة سلاحه في طبعة ليدن حسامه في طبعة بيروت "(١) .

وتحتوي طبعة ليدن على مقدمة باللغة الألمانية للمستشرق الألماني يعقوب بارت J. Barth ، ومما تضمنته ذكر الفترة التي كتب فيها القطامي شعره ، وهي فترة النصف الثاني من القرن الأول الهجري ، وقد أشار بارت إلى أهم الموضوعات في شعره ، كما أورد فيها حقائق تتعلق بشعره ، وذكر بارت رأيه حول ديانة القطامي ، وصلته بالأخطل .

وتحدث عن تحقيقه لديوان القطامي ، وعن الذين شرحوه يقول بارت :

" إن فطاحل اللغويين العرب قد أجهدوا أنفسهم منذ نهاية القرن الثاني الهجري في شرح شعر القطامي ، ومن هؤلاء أبو عمرو الشيباني ، وخالد بن كلثوم ، والأصمعي ، وأبو عبدالله العربي ، وعبدالله بن محمد التَّوَّزي.."(٢).

هذا ، ونظراً لكوني التزمت بطبعة ليدن فإنني لم أشر إلى طبعة بيروت إلا في الموطن الذي أرى فيه خطأ واضحاً لا حيلة فيه .

هذا وأتقدم بالشكر والعرفان لجامعة أم القرى التي أتاحت لي فرصة الدراسة في هذا الميدان ، وإلى كلية اللغة العربية ، وإلى كل من قدم لي مساعدة ، أو أبدى استعداداً لذلك .

كذلك أتوجه بالشكر الجزيل إلى الأساتذة الأفاضل أعضاء لجنة المناقشة :

١ - الأستاذ الدكتور / نزيه عبد الحميد السيد .

---

(١) " قراءة موجزة في طبعتي ديوان القطامي" ٧٥٥ -٧٥٦.

(2) J.Barth. Diwan des Umeir ibn Schujeim al-Qutami, herausgegeben und erlautert Von -. Mit Unterstutzung der k. Akademic der Wiss. in Wien. Leiden (Brill), 1902.

٢ - الأستاذ الدكتور / عبد الحكيم راضي .

وذلك لتكرمهما وقبولهما مناقشة هذا البحث .

كما أقدم شكري الجزيل لسعادة الأستاذ الدكتور / عيَّاد الثبيتي وذلك لما أمدني به من مراجع هامة تعذر الحصول عليها .

كما أتقدم بخالص الشكر والامتنان إلى سعادة المشرف الفاضل الدكتور / عوض الجميعي فقد تعهدني بتوجيهاته القيمة ، التي أفدت منها ، وكان له – بعد اللّه – أثر كبير في الاهتداء إلى الخطوات المهمة في البحث بغية الوصول بهذا العمل إلى الغاية المرجوّة فله عظيم الشكر والتقدير .

ثم لا يفوتني أن أعرب عن شكري وعرفاني لكل من أسدى لي عوناً ، وشجعني على إكمال هذا البحث .

واللّه أسأل أن يكلل أعمالنا بالقبول والسداد إنَّه سبحانه ولي ذلك والقادر عليه ،،،

فصل تمهيدي

١ - التعريف بالشاعر

٢ - الدراسات التي قامت حول القطامي

٣ - شعر القطامي في كتب البلاغيين والنقاد القدامى

١

فصل تمهيدي

ا - التعريف بالشاعر :

القطامي(١) هو عُمير بن شُيَيْم بن عمرو بن عبَّاد بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم بن تغلب ، والقطامي لقب غلب عليه ، وقد ذكروا أنه لُقب به لقوله(٢):

يَصُكُّهُنَّ جانباً فجانبــا   صكَّ القُطامِيِّ القَطا القوارِبـا

والقَطامِيُّ ، بفتح القاف وضمِّها ، الصَّقْر ، وهو مأخوذ من القَطْم ، وهو الشَّهْوان للحم وغيره ، وله لقب آخر هو " صريع الغواني " ، لقب به ببيت قاله :

صريع غوانٍ راقهنَّ ورُقنَهُ   لدن شَبَّ حتى شابَ سودُ النوائبِ

وقد جعله " ابن سلام " في الطبقة الثانية من شعراء الإسلام . أُسر في حروب قبيلته " تغلب " مع " قيس " ، فأطلق أسره زُفَر بن الحارث الكلابي زعيم قيس ، ومَنَّ عليه ، وردَّ عليه ماله ، وأعطاه مئة من الإبل ، فقال فيه قصائد مديح عدة .

---

(١) يُنظر ترجمته في :
طبقات فحول الشعراء ، لابن سلاَّم ٢/٥٣٤ -٥٣٩ - الشعر والشعراء ،لابن قتيبة ٢/٧٣٤-٧٣٦ - أدب الكاتب ، لابن قتيبة ٥٦ ، شعراء النصرانية بعد الإسلام ، للويس شيخو ١٩١-٢٠٣ - الاشتقاق ، لابن دُريد ٣٣٩ - الأغاني، للأصفهاني ٢٤/١٧-٥٠ - معجم الشعراء ، للمرزباني٧٣ ، ٧٤، خزانة الأدب٢/٣٧٠. ولمزيد من التفصيل يُنظر :
Nazih Kussaibi, Un poete arabe de le poque umayyade: al-QUTAMI et son oeuvre, these de doctorat du3eme cycle, Strasbowrg,1983,300 p.+2ills.

(٢) يُنظر : خزانة الأدب ، للبغدادي ٢/٣٧١ ، ومقدمة ديوان القطامي . ط. بيروت ٧، ولم يذكر البيت المشار إليه في طبعتي الديوان " ليدن ، وبيروت " ، ولكن ذكره " بارت " في ترجمة القطامي .

قدم دمشق في خلافة الوليد بن عبد الملك ليمدحه . وقيل بل قدمها في خلافة عمر بن عبد العزيز فقيل له إن الشعر لا ينْفُق عند هذا ، ولا يُعْطي عليه شيئاً ، وهذا عبدُ الواحد بن سليمان بن عبد الملك فامدحه ، فمدحه فأثابه على مديحه .

هذا ولا يوجد مصدر يتحدث عن مولد القطامي ، وتاريخ حياته ، وإن كان بعض الباحثين كالدكتور / زكي عابدين غريب حاول تتبع ذلك من خلال بعض الأحداث التي مرَّت بها « تغلب » قبيلة الشاعر ، والوقائع التي نشبت بينها وبين قبيلة « قيس » حيث ذكر مكان نشأته في جهات الرقة والرصافة في العراق ، كما استشهد بأبيات من شعره تحدد نسبه فأمه تميمية ، وأبوه تغلبي(١) ، وذلك في قوله(٢) :

فما دنَّى بِغايَتِهِ أبُونَا ... إذا عُدَّ الخُؤُولَةُ والْعُمُومُ
فَخالي الشَّيخُ صَعْصَعَةُ بْنُ سَعْدٍ ... وتَنْميني لأَكْرَمِها تَمِيم
ويَرْفِدُني الأراقِمُ خَيْرَ رِفْدٍ ... وَشَيْبانُ بْنُ ثَعْلَبَةَ القُرومُ

وعن أخباره يقول لويس شيخو : « لا يُعرف إلاَّ القليل من أخبار القطامي أزهر في القسم الثاني من القرن السابع في أيام الأمويين بعد معاونة وكان معاصراً للأخطل وهو أصغر سنّاً فعاش زمناً بعدهُ ولم يبلغ عهد بني عباس »(٣) .

نشأ القطامي نصرانياً ثم أسلم ، توفي سنة ١٠١ هـ .

---

(١) يُنظر : القطامي حياته وشعره ، لزكي عابدين غريب ٣٨.
(٢) ديوان القطامي ٥٦ .
(٣) شعراء النصرانية بعد الاسلام ، للويس شيخو ١٩٣ .

٢ - الدراسات التي قامت حول القطامي :

حظي القطامي باهتمام عدد من الدارسين من العرب ، والمستشرقين قديماً وحديثاً ، وممَّن أرَّخوا لتاريخ الشعر العربي ، فمنهم من ترجم له أمثال "عمر فروخ " ، " شوقي ضيف " ، " جرجي زيدان " ، " كارل بروكلمان " ، و"رجيس بلاشير " ، و " لويس شيخو "(١)، وغيرهم حيث ذكروا تعريفاً بالشاعر ، وقبيلته ، وأشاروا إلى مشاركته في حروب قومه ، وقصة أسره ، وديانته ، وعرضوا منتخبات من شعره .

وهناك مؤلفات اهتمت بعرض جانب من جوانب شعر القطامي ؛ فقد أفرد الدكتور / محمدمصطفى هدّارة في كتابه " دراسات في الشعر العربي : تحليل لظواهر أدبية وشعراء "(٢) حديثاً حول موقف القطامي من الحرب مستشهداً بمقطوعات من شعره ، وعُني الدكتور / أحمد مختار البرزه في كتابه " الأسر والسَّجن في شعر العرب "(٣) بقضية أسره ، واستعرض الدكتور / زكي المحاسني في " شعر الحرب في أدب العرب " دور

---

(١) يُنظر على الترتيب : - تاريخ الأدب العربي ، لعمر فروخ ٥٩٩/١ - ٦٠٣ - العصر الإسلامي ، لشوقي ضيف ٢٢٤ - ٢٢٦ - تاريخ آداب اللغة العربية ، لجرجي زيدان ٢٩٧/١ ، ٢٩٨ - تاريخ الأدب العربي ، لكارل بروكلمان ٢٣٦/١ ، ٢٣٧ - تاريخ الأدب العربي ، للدكتور/ رجيس بلاشير ٥٤٦/٢ ، ٥٤٧ - شعراء النصرانية بعد الإسلام ، لويس شيخو ١٩٣ - ٢٠٢ .

(٢) " دراسات في الشعر العربي " ، للدكتور / محمد مصطفى هدّارة ١٠١/١ - ١٠٣ .

(٣) " الأسر والسَّجن في شعر العرب " ، للدكتور / أحمد مختار البرزة ٧١ - ٧٣ .

القطامي في حروب قبيلته ؛ إذ كان الذي يشغله " من أمر هذا الشاعر شعره الحربي القبلي"(١).

هذا إلى جانب الدراسات التي تناولت وصف الطبيعة ، وعرضت لشعر القطامي من خلال ذكر ظواهر فنية امتاز بها الوصف في الشعر الأموي نحو " وصف الطبيعة في الشعر الأموي " ، لإسماعيل أحمد شحادة العَالم ، وهي رسالة دكتوراة(٢) ، كما تعرضت له الكتب التي هدفت إلى إثارة بعض القضايا الفنية والأدبية ككتاب " في الشعر الإسلامي والأموي " ، للدكتور عبد القادر القط(٣)، أما عن حياة القطامي وشعره فهناك دراسة متخصصة ، وهي رسالة ماجستير للدكتور / زكي عابدين غريب بعنوان " القطامي حياته وشعره " ، وهي محاولة جادة ، تتبع فيها الباحث مراحل حياة الشاعر من خلال شعره ، والأحداث التي مرّت في عصره ، والتعريف بالقبيلة التي ينتمي إليها الشاعر ؛ ليرسم بذلك صورة للقطامي وشعره ، كما أظهرت الدراسة شخصية القطامي الشاعر بعد أن ألقت الضوء على عصره من الناحية الاجتماعية ، والسياسية ، والأدبية ، وأفردت مجالاً للحديث عن ديوان القطامي في طبعتيه " طبعة ليدن ، وبيروت " .

وقد أفدت من ذلك أثناء دراستي .

بالإضافة إلى ما ذكره الدكتور / نزيه كسيبي عن القطامي في رسالته لنيل الدكتوراه ، والتي سبقت الإشارة إليها .

---

(١) يُنظر : " شعر الحرب في أدب العرب " للدكتور / زكي المحاسني ١٠٥ – ١٠٨ .

(٢) " وصف الطبيعة في الشعر الأموي " ، لإسماعيل أحمد العالم ٥٥ ، ١٠٨، ٢٨١ ، ٣٠٤ .

(٣) " في الشعر الإسلامي والأموي " ، للدكتور / عبد القادر القط ٤٠٨ – ٤١٨، ٤٣٦ ، ٤٣٨ –٤٤٧ .

وبعـــد ،

فــرغم تعــدد الدراســات التي قــامت حــول القطامي ، غـيـر أن تلك الدراسـات التي تناولت القطامـي وشـعـره لم تدرسـه دراسـة بلاغـيـة ، أو تقف بأناة عند الصورة الفنيـة في شـعـره – وذلك حسب مـا تناهى إليـه اطلاعي – ومن هنا تتضح طبيعـة هذه الدراسـة التي تخـتلف عن الدراسـات السـابقة ؛ حيث تهـتم بالتـصـوير البـيـاني في شـعـر القطامي، مع التـحليل ، والمقـارنة ، والوقوف على علاقة التصوير البياني بظواهر الحياة عند الشاعر .

ولا شك أن أيَّ دراسـة تطبيـقـيـة تتطلب الكثـير من الحـرص والحـذر والدقة ، وقد بذلت في سبيل ذلك قُصارى جهدي للوصول بهذه المحاولة إلى هدفها المنشود ، مستعينة بكل ما أُتيح لي الوقوف عليه من مصادر ، ومراجع، ولستُ أزعم لنفسي أنني بلغت الغاية ، وإنما حسبي أني لم أدخر جهداً أو وقتاً من أجل ذلك .

٣ - شعر القطامي في كتب البلاغيين والنقاد القدامى :

كثُر الاستشهاد بشعر القطامي في مصادر اللغة والأدب ، والنحو والبلاغة ، والنقد ، وكتب الاختيار ، والشواهد ، والشوارد ، والتاريخ ، وكتب الغريب ، والتفسير ، وإعراب القرآن ، والأمثال ، والمعاجم .

وقد وقفتُ على ما يقارب المائة من تلك المصادر التي أوردت شواهد من شعر القطامي ، وتتبعت شعره في كتب البلاغيين ، والنقاد ، وما مدحوه فيه ، واستحسنوه من شعره ، والمآخذ التي أخذت عليه ، ومواضع استشهادهم ، وقد رتبتُ الشواهد حسب التسلسل الزمني لتواريخ وفيات العلماء الذين ذُكرتْ كتبهم . وهي محاولة الغرض منها إظهار أهمية شعر القطامي، وموقف العلماء وهم يؤسسون العلوم من شعره .

أولاً : شعر القطامي في كتب البلاغيين

الجاحظ ت ٢٥٥ هـ :

جاء في كتاب " البيان والتبيين " : " باب ما قالوا فيه من الحديث الحسن الموجز المحذوف ، القليل الفضول " ثم أورد قول القطامي :

وفي الخدور غما مات برقن لنا حتى تصيّدْننا مــن كُل مُصْطَادِ
فَهُنَّ ينبذن من قولٍ يصــبن به مواقع الماء من ذي الغُلَّة الصَّادي

ينبذن : يُلقين . الغُلَّة والغليل : العطش [الشديد] . والصادي : العطشان

أيضاً ، والاسم الصَّدى[١] .

والبيت الثاني من الأبيات التي كثر الاستشهاد بها ؛ فقد ذكره الجاحظ في حيوانه ، ورسائله ، كما ذكره المبرد في الكامل ، وابن طباطبا في عيار الشعر ، والمرزباني في معجم الشعراء ، والخالديان في الأشباه والنظائر ، وأبو هلال العسكري في ديوان المعاني ، وعبد القاهر في كتابيه " الدلائل ، والأسرار "[٢].

وفي " الحيوان " استشهد الجاحظ بشعر القطامي في مواضع منها ما جاء في باب الغضب ، والجنون في المواضع التي يكون فيها محموداً ، ومنها قول القطامي حين وصف إفراط ناقته في المرح والنَّشاط:[٣]

يتبعن ساميَةَ العينين تحسبها مجنونةً أو ترى ما لا ترى الإبل

والشاهد ذكر في " الخصائص " لابن جني[٤] .

ابن قتيبة :

ذكرابن قتيبة شواهد من شعرالقطامي في كتبه" تأويل مشكل القرآن"، و " غريب الحديث " ، و " أدب الكاتب " ، و " المعاني الكبير " .

---

(١) البيان والتبيين ٢٧٩/١ . – والشعر في الديوان ص ٨ .

(٢) يُنظر على التوالي :

الحيوان ١٤١/٥ ، ورسائل الجاحظ ١١٥/٢ ، الكامل ٣٧٥/١ ، عيار الشعر ٩١ ، معجم الشعراء ٧٤ ، الأشباه والنظائر ٥٣/١ ، ديوان المعاني ٢٤٢/١ ، دلائل الإعجاز ٥٣٣ ، أسرار البلاغة ١٢٦ .

(٣) الحيوان ١٠٥/٣ ، ١٠٨ .

(٤) الخصائص ١٠/١ ، ٢٩٢/٣ .

ففي " تأويل مشكل القرآن " باب " اللفظ الواحد للمعاني المختلفة " ذكر " الدِّين " ، وأن من معانيه الجزاء ، كما أنه يأتي بمعنى : الملك والسلطان ، ومنه قول القطامي :

* كانت نوارُ تدينك الأديانا * أي تُذلّك

وقد أشار المحقق إلى أن رواية الديوان " كانت جنوب " ، وصدره كما في الديوان والأمالي:

* رمت المقاتل من فؤادك بعدما *(١)

وفي « أدب الكاتب » استشهد ابن قتيبة بشعر القطامي في باب «دخول بعض الصفات على بعض » ، وأن « مِنْ » تدخل على « عَنْ » ، ثم ذكر قول القطامي(٢) :

* مِنْ عَنْ يَمِينِ الحُبَيَّا نَظْرَةُ قَبَلُ *

وفي باب « ما جاء فيه المصدر على غير صَدْرٍ » أورد قول القطامي :

وخَيْرُ الأمْرِ ما اسْتَقْبَلْتَ مِنْهُ　　　ولَيسَ بِأنْ تَتَبَّعَـهُ اتِّبَاعا

« فجاء على اتَّبَعْتُ »(٣) .

كما ذكر ابن قتيبة في « غريب الحديث » شواهد من شعر القطامي ، وذلك في مواضع هي :

- « ... وقولهم : إليكَ أي : تَنَحَّ ، قال القطامي وذكر امرأة استضافها:

تقول وقد قَرَّبْتُ كُوري وناقتي　　　اليكَ ، فلا تذعرْ عليَّ ركائبي(٤)

- اللِّفاع : ثوب يُجلّل جَسَده ، وهو عند العرب : الصَمَّاء لأنَّه ليست فيه فُرْجَة . يقال اشتمل الصَمَّاء . وقال القُطامي يصف ناقة :

---

(١) تأويل مشكل القرآن ٤٥٣ .

(٢) أدب الكاتب ٣٩٢ .

(٣) المرجع السابق ٩١١.

(٤) غريب الحديث ٣٨/٢ .

فلما ردَّها في الشَّوْل شـالـت   بذَيَّال يكـــون لها لـفاعـــا

أي : شالت بذنبها فجلّلها من طوله . وإذا شالت دلّت على حَمْلها(١).

– الهَبَلُ : الثُّكْل . ومنه قول القُطامي :

والناسُ من يَلْقَ خيراً قائلون له   ما يشتهي، ولأم المُخطيء الهَبَلُ(٢)

وفي " المعاني الكبير " لابن قتيبة وردت أبيات من شعر القطامي ، ومنها قوله :

بضرب تهلك الأبطـال منه   وتمتكر اللـحى منـه امتكارا

الـمَكرة المَغـرة ، أي تخـضب اللحى منه بالدم ، شـبـه حـمـرة الدم بمغرة.(٣)

وفـي مـوضـع آخـر ذكـر ابن قتيبة قول القطامي لزُفَر بن الحارث وكان منع منه :

وما نسيت مقام الورد تحبسه   بيني وبين حفيف الغابة العادي

الورد : فرس زُفَر بن الحارث ، والغابة : الأجمة ، وهي هاهنا الرماح شبهها بالغابة لكثرتها والتفافها ، والحفيف : صوتها ، والعادي : صفة للورد ، أراد مقام الورد العادي بيني وبين هؤلاء حتى سلمت(٤).

ابن المعتز ت ٢٩٦ هـ :

ذكـر ابن المعـتـز في البـاب الثـاني من البـديع وهو الـتـجنيس قـول القطامي(٥) :

ولمَّا رَدَّهـا فـي الشَوْلِ شـالـت   بذَيَّالٍ يكـون لـهـا لِـفـاعـا

والبـيت استـشـهـد بـه الآمـدي فـي " المـوازنـة " ، وضـم إليـه بيتـاً آخـر سـيـأتي بعـد ، كـمـا ذكـر البـيـت السـابق أبـو هـلال العـسكري فـي "الصناعتين "(٦).

الآمدي ت ٣٧٠ هـ :

أورد الآمدي في " الموازنة " قول القطامي كمثال آخر للتجنيس:(٧)

كنيَّةِ الحـي مِـنْ ذي القيـظ فاحتملوا

مـستحـقبـين فـؤاداً مـا لَـهُ فـادِ

---

(١) غريب الحديث ٢٤١/٢ .
(٢) المرجع السابق ٦٥٤/٢ .
(٣) المعاني الكبير ٩٨٢/٢ .
(٤) المعاني الكبير ١١٢٢/٣.
(٥) البديع ٢٦ .
(٦) الموازنة ١٨ ، الصناعتين ٣٣٧ .
(٧) الموازنة ١٨ .

والشاهد جاء في " الخصائص " لابن جني ، وفيه اعتراض على كونه جناساً حيث يقول " وقد يعرض هذا التداخل في صنعة الشاعر فيَرى أو يُرى أنه قد جنَّس وليس في الحقيقة تجنيساً ..."(١).

أبو هلال العسكري ت ٣٩٥ هـ :

ذكر أبو هلال العسكري شعر القطامي في " الصناعتين " ، و" ديوان المعاني " ، ومما أورده في " ديوان المعاني " : ومن الوصف الحسن قول القطامي في نوق :

جِفارٌ إذا صافتْ هضابٌ إذا شَتَتْ
وفي الصيف يَرْدُدْنَ المياه إلى العشر

يشبهها بالآبار من كثرة ألبانها في أيام الربيع والقيظ وهي في الشتاء كالهضاب سمناً ، وإذا شربت في اليوم العاشر التقت في مثله وفي كروشها بقيَّةٌ من الماء(٢) .

ابن رشيق ت ٤٥٦هـ :

استشهد ابن رشيق بشعر القطامي في " العمدة " أثناء حديثه عن التشبيه المتعدد(٣) ، فذكر أنهم ربما شبهوا شيئاً بشيئين كقول القطامي :

فهن كالخلل الموشيِّ ظاهرُهَا
أو كالكتاب الذي قد مسَّهُ البَلَلُ

عبد القاهر الجرجاني ت ٤٧١ أو ٤٧٤ هـ :

ذكر الإمام عبد القاهر شعر القطامي في كتابه « أسرار البلاغة » أثناء حديثه عن قرينة الاستعارة ، وأنها قد تكون من جهة المفعول حيث قال : « وقد يكون الذي يعطيه حكم الاستعارة أحد المفعولين دون الآخر كقوله « من البسيط »(٤) .

نقريهمُ لَهْذَمَيَّاتٍ نَقُدُّ بها
ما كان خاط عليهم كل زرَّادِ

كما ذكر الشاهد السابق وقبله البيت التالي(٥) :

---

(١) الخصائص ٤٦/٢ .
(٢) ديوان المعاني ١٢٧/٢ ، ١٢٨ .
(٣) العمدة ٢١٨/١ .
(٤) الأسرار ٥١ .
(٥) المصدر السابق ٥٧ .

لم تلقَ قوماً هُمُ شرٌّ لاخوتهم   منّا عشية يجري بالدم الوادي

وذلك حين تكلم عن الاستعارة القريبة من الحقيقة .

السكاكي ت ٦٢٦ هـ :

جاء في « مفتاح العلوم » قوله : « وإن هذا النمط مسمى فيما بيننا بالقلب وهي شعبة من الاخراج لا على مقتضى الظاهر ولها شيوع في التراكيب وهي مما يورث الكلام ملاحة ولا يشجع عليها إلا كمال البلاغة تأتي في الكلام وفي الأشعار ، وفي التنزيل يقولون عرضت الناقة على الحوض يريدون عرضت الحوض على الناقة . وقال القطامي « كما طينت بالفدن السياعا » أراد كما طينت الفدن بالسياع[1] .

القزويني ت ٧٣٩ هـ :

ورد في كتاب « الإيضاح » بيتان للقطامي في مبحث « القلب » وذلك بعد أن ذكر تعريفاً له بقوله : « ومنه القلب ، كقول العرب : عرضْتُ الناقة على الحوض ، وردَّه مطلقاً قومٌ ، وقبله مطلقاً قومٌ منهم السكاكي ، والحق أنه إن تضمَّن اعتباراً لطيفاً قُبل ، وإلاَّ رُدّ .

وأما الثاني فكقول القطاميّ :

* كما طَيَّنْتَ بالفَدَنِ السيَّاعا *

وقول الآخر :

* ولا يك موقف منك الوداعا *[2] .

---

(١) مفتاح العلوم ١٠١ .

(٢) الإيضاح ١٦٥ ، ١٦٦ .

ثانيا : شعر القطامي في نظر النقاد

ابن سلاّم ت ٢٣١ هـ :

وقد جعله في الطبقة الثانية من شعراء الإسلام مع البعيث ، وكُثَيِّر ، وذي الرُّمة ، وعنه يقول : " كان القطامي شاعراً فَحْلاً ، رقيق الحواشي ، حُلْوَ الشِّعْر ، والأخطل أبعد منه ذكراً، وأمتن شِعْراً " . وأورد له شواهد من شعره ، ومن ذلك قوله في مدح زُفَر بن الحارث :

مَنْ مُبْلِغٌ زُفَرَ القَيْسِيَّ مِدْحَتَهُ | عَنِ القُطَامِيِّ ، قوْلاً غَيْرَ إفْنَادِ
إنِّي ، وإنْ كانَ قَوْمِي لَيْسَ بَيْنَهُم | وبينَ قَوْمِكَ إلاَّ ضَرْبَةُ الهَادِي
مُثْنٍ عَلَيْكَ بما أسْلَفْتَ من حَسَنٍ | وقَدْ تَعَرَّضَ مِنِّي مَقْتَلٌ بَادِي

إلى آخر ما ذكر .

وقوله :(١)

ومَنْ يَكُنِ اسْتَلاَمَ إلَى ثَوِيٍّ | فقد أَحْسَنْتَ ، يا زُفَرُ ، المَتَاعَا
أكُفْرٌ بَعْدَ دَفْعِ المَوْتِ عَنِّي | وبَعْدَ عَطَائِكَ المِئَةَ الرِّتَاعَا؟

ابن قتيبة ت ٢٧٦ هـ :

جاء في " الشعر والشعراء " عن القطامي بأنه " كان حسن التشبيب رقيقه "(٢) .

وذكر ابن قتيبة شواهد مما يُتمثَّل به من شعر القطامي ، منها ما جاء في قصيدته العينية ، التي مدح بها زُفَر الكلابي ، ومنها قوله :

---

(١) طبقات فحول الشعراء ٢/٥٣٥ – ٥٣٧ .

(٢) الشعر والشعراء ، لابن قتيبة ٢/٧٢٣.

ومَعْصيَةُ الشَّفيقِ عليكَ ممَّا ... يَزيدُكَ مرَّةً منه استِماعا
وخَيْرُ الأمرِ ما استَقْبَلْتَ منه ... ولَيْسَ بأن تَتَبَّعَهُ اتِّباعا

ومما يُتمثَّل به من شعره :

والناسُ مَنْ يَلْقَ خَيْراً قائِلُونَ له ... ما يَشْتَهِي ، ولأُمِّ المُخطِيءِ الهَبَلُ
قَدْ يُدْرِكُ المُتأنِّي بَعْضَ حاجَتِهِ ... وقد يَكُونُ مع المُسْتَعْجِلِ الزَّلَلُ

وقوله :

كذاك وما رَأَيْتُ الناسَ إلاَّ ... إلى ما جَرَّ غاوِيهِمْ سِراعا
تَراهُمْ يَغْمِزُونَ من استَرَكُّوا ... وَيَجْتَنِبُونَ مَنْ صدَقَ المِصاعا(١)

المُبَرِّد ت ٢٨٥ هـ :

ذكر المُبَرِّد في كتابه " الكامل " : وقال رجل من بني تَميمٍ :

أَلْبَانُ إِبْلِ تَعِلَّةَ بْنِ مُسَافِرٍ ... ما دَامَ يَملِكُهَا علَيَّ حَرَامُ
و طَعَامُ عِمْرَانَ بْنِ أَوْفى مِثْلُهَا ... ما دَامَ يَسْلُكُ في الْبُطُونِ طَعَامُ
إِنَّ الَّذينَ يَسُوغُ في أَعناقِهِمْ ... زَادٌ يَمُنُّ عَلَيْهِمُ لِلِئَامُ
لَعَنَ الإِلـهُ تَعِلَّةَ بْنَ مُسَافِرٍ ... لَعْناً يُشَنُّ عَلَيْهِ مِنْ قُدَّامُ

وهذا كلام فصيح جداً .

قوله : « يسوغ في أعناقهم » يريد حُلُوقَهُمْ لأن العنق يحيط بالحلق ، ويُشْبِهُ هذا الاتساع في الفصاحة لا في المعنى قول القُطَامِيِّ :

لمْ تَرَ قَوْماً هُمُ شَرٌّ لإِخْوَتِهِمْ ... مِنَّا عَشِيَّةَ يَجْرِي بالدَّمِ الْوَادِي
نَقْرِيهِم لَهْذَمِيَّاتٍ نَقُدُّ بِهَا ... مَا كَانَ خَاطَ عَلَيْهِمْ كُلُّ زَرَّادِ

---

(١) الشعر والشعراء ، لابن قتيبة ٢/٧٢٤ - ٧٢٦ .

لأن الخياطة تَضُمُّ خِرق القميص ، والسَّرْد يضم حلق الدِّرع ، فضربه مثلاً فجعله خياطة »(١) .

فمن تكن الحضارةُ أعْجَبَتْهُ فأيَّ رجـــال باديـــةٍ تَرَانـــا
ومن رَبَطَ الجَحاش فإنَّ فينا قَناً سُلباً وأفراســـــاً حِسَانَا
وكنّ إذا أغَرْن على قَبـــيلٍ فأعـــوزهُنَّ كَوْزٌ حَيْـــثُ كَانَا
أَغَرْنَ مِنَ الضِّبَاب عَلَى حِلاَلٍ وضَبَّةَ ، إنَّـــهُ مَنْ حَـــانَ حَانَا
وأحياناً على بَكرٍ أخيـــنَا إذا مَـا لَمْ نَجِـــدْ إلاَّ أخَـــانا

ابن طباطبا ت ٣٢٢ هـ :

جاء في " عيار الشعر " ، لابن طباطبا قوله : فمن الأشعار المحكمة ، المتقنة ، المستوفاة المعاني ، الحسنة الوصف ، السلسة الألفاظ ، التي قد خرجت خروج النَّثر سُهولةً وانتظاماً ، فلا استكراه في قوافيها ، ولا تكلُّف في معانيها ، ولا عيَّ لأصحابها فيها ، ومنها قول القطامي(٢):

والعيشُ لا عيشَ إلا ما تـــقرُّ به عيناً ، ولا حـــال إلاَّ سوف تنتقلُ
والناسُ من يلْقَ خيراً قائلون له ما يَشْتَهي ، ولأُمِّ المُخطيءِ الهَبَلُ
قد يُدركُ المتأنيّ بعـــض حاجَتِهِ وقد يكونُ مع المســـــتعجل الزَّلَلُ

الأصفهاني ت ٣٥٦هـ :

ورد في " الأغاني " ، لأبي الفرج الأصفهاني قوله :

" قال عبدُ الملك بن مروان للأخطل ، وعنده عامرُ الشَّعبي : أتحب أن لك قَياضاً بشـعرك شـعرَ أحدٍ من العرب أم تحبّ أنك قلته ؟ قـال : لا والله ياأمـير المؤمنين ، إلا أنِّي ودِدتُ أني كنتُ قلتُ أبياتاً قـالها رجل منا مُغدَفُ

(١) الكامل ٥٩/١ .
(٢) عيار الشعر ٩٠ .

القِنَــاع ، قليـل السمـاع ، قصير الـذِّراع ، قـال : وما قال ؟ فأنشد قـول القُطَامي:

إنَّا مُحيُّوكَ فاسلمْ أيُّها الطَّلَلُ　　وإن بَليــتَ وإن طَالتْ بكَ الطِّيَلُ
ليس الجديدُ به تبقى بَشاشتَهُ　　إلا قـليــلاً ولا ذو خُلَّــةٍ يَصِلُ

حتى أتى على آخرها .

قال الشَّعْبيُّ : فقلت له : قد قال القُطاميُّ أفضل من هذا ، قال : وما قال ؟ قلت : قال :

طرقت جَنُوبُ رِحالَنا من مَطْرَقِ　　ما كنتُ أحْسبِها قريــبَ الـمُعْنَقِ
قطعت إليكَ بمثل جِيــدِ جَدَايةٍ　　حَـسَنٍ مُعَــلَّقُ تُومَتَيْهِ مطـوَّقِ

إلى آخر ما جاء في القصيدة (١) .

المرزباني ت ٣٨٤ هـ :

أوضح المرزباني في " معجم الشعراء " منزلة القطامي بقوله : " كان شاعراً فحلاً رقيق حواشي الكلام كثير الأمثال في شعره ، وكان في صدر الإسلام ، وهو القائل :

أمــور لــو تدبَّرها حَكِيـمُ　　إذاً لنهــى وهَبَّبَ ما اســـتطـاعا
ولكــن الأديم إذا تفــرَّى　　بِلـىً وتعيُّنـاً غـلــب الصُّنــاعـا

إلى آخر ما ذكر .

---

(١)　الأغاني ٢٤/٤٧ - ٥٠ .

وقيل للأخطل وهو يموت : على من تخلف قومك ؟ قال : على العُمَيْرَينْ، يريد القطامي عمير بن شييم وعمير بن الأيهم(١) .

أبو هلال العسكري ت ٣٩٥هـ :

ورد في " ديوان المعاني " : " وقول القطامي وهو جيد النظم متضمن لماء الطلاوة :

وما ريحُ قاع ذي خُزامَى وحَنوة   لــه أرجٌ مـــن طيبِ النبتِ عـازبِ
بأطيب من مَيّ إذا ما تقلـــبتْ   من الليل وسـنى جانبا بعد جانب

إلا أنه جاء بالمعنى في بيتين .

وأخذ ابن المعتز قول القطامي ببعض لفظه إلا أنه زاد زيادة حسنة ، وجاء بألفاظ بديعة وهو قوله (٢) :

وما ريحُ قاعٍ زاهرٍ مست الندى   وروض من الرَّيحان سحت سحائبه
فجاء ســـحيراً بين يـوم وليلـة   كمـا جرَّ من ذيل الغـلالة ساحبه
بأطيـــب من أثوابِ شمرموهنا   إذا الليـلُ أدجى دابرات كتائبه
إذا رغبتْ عن جانب من فراشها   تضوَّعَ مســكاً أين مالتْ جوانبه

وقال القطامي (٣) :

اسـتودعتهـا روافيـداً مغيـرة   "دُكْنَ الظَّواهِرِ"(٤) قد برنسن بالطين
مكافحات لحرِّ الشـمـس قائمــة   كأنهـنَّ نبيـطُ فـي بســـاتين

---

(١) معجم الشعراء ٧٣ ، ٧٤ .

(٢) ديوان المعاني ٢٥٩/١ .

(٣) المرجع السابق ٣٢٩/١.

(٤) من مقالة للدكتور / نزيه كسيبي بعنوان " قراءة موجزة في طبعتي ديوان القطامي ٧٦٣ والبيتان لم يردا في طبعتي " ليدن ، وبيروت".

كما ذكر أبو هلال في " ديوان المعاني" قوله : أجود ما قيل في تقدم الناقة في السير قول القطامي :

ألمعن يقصرنَ من نجب مُخَلَّسةٍ   ومن عرابٍ بعيداتٍ من الحادي

أي يسبقن الحادي فيبعدن عنه(١) .

ومما جاء في " ديوان المعاني " قوله : " ومن المشهور في التأني قول القطامي :

قد يُدركُ المتأني بعض حاجته   وقد يكون مع المستعجل الزللُ

وقال غيره :

ومستعجل والمكثُ أدنى لرشده   ولم يدر ما يلقاه حين يُبادرُ

وقيل لبعض العلماء لِمَ لَمْ يقل " كل حاجته " فيكون أبلغ ، قال : ليس "كل" من كلام الشعر ، وقد صدق ، ولو قال " كل حاجته " لكان متكلفاً مردوداً(٢) .

ابن رشيق ت ٤٥٦ هـ :

جاء في العمدة قوله : اختار الناس كثيراً من الابتداءات أذكر منها ههنا ما أمكن ليستدل به ، نحو قول امريء القيس :

* قِفَا نَبْكِ من ذِكْرَى حَبِيبٍ ومَنْزِلِ *

وهو عندهم أفضل ابتداء صنعه شاعر ؛ لأنه وقف واستوقف وبكى

---

(١) ديوان المعاني ٢/١٢١.

(٢) ديوان المعاني ١/١٢٤ .

واستبكى وذكر الحبيب والمنزل في مصراع واحد ، وقوله :

* ألا عِمْ صَبَاحاً أيها الطلل البالي *

ومثله قول القطاميِّ – واسمه عُمير بن شُيَيم التغلبي(١) :

* إنَّا مُحَيُّوكَ فاسْلَمْ أيها الطلـــل *.

أبو الحسن العَدويّ المعروف بالشَمشاطيّ " القرن الرابع " :

جاء في كتاب " الأنوار ومحاسن الأشعار " : وقال الأصمعيّ : أحسن ما قالت العربُ في طول الرِّماح قول القُطَاميّ :

قَوْارِشُ بالرِّماحِ كـأن فيهـــا شَوَاطِـنَ يُنْتَزَعْنَ بهـا انْتِزَاعَـا

تقارشو : تطاعَنوا (٢) .

كما استشهد أبو الحسن العَدويّ بأبيات للقطامي في وصف الإبل ، وسرعتها بعد أن أشار إلى ذلك بقوله :

" قد ذكرَ الشعراءُ المتقدِّمُونَ المشاهيرُ الإبلَ بما نحن نستغني عن ذِكْره لشُهرته ، ونذكر يسيراً من كثير ما قالوُه ..."(٣) .

---

(١) العمدة ٢١٨/١ .

(٢) الأنوار ومحاسن الأشعار ٥٠/١ .

(٣) يُنظر : المصدر السابق ٣٦١/١ .

أبو إسحاق الحصري القيرواني ت ٤٥٣ هـ :

جاء في " زهر الآداب وثمر الألباب " ، لأبي إسحاق القيرواني :

" ومن قول القطامي :

* إن ترجعي من أبي عثمان منجحةً *

أخذ الآخر قوله (١) :

إذا ما تعنّى المرءُ في إثر حاجةٍ فأنجح لم يثقل عليه عناؤهُ

ابن الأثير ت ٦٣٧ هـ :

أثنى ابن الأثير في مثله السائر على مقدمات القطامي بقوله :

"ومن شاء أن يذكر الديار والأطلال في شعره فليتأدب بأدب القطاميٍّ على جفاء طبعه وبُعْدهِ عن مظانة الأدب ، فإنه قال :

* إنَّا مُحيُّوكَ فاسلمْ أيُّها الطلل *

فبدأ قبل ذكر الطلل بذكر التحيَّة ، و الدعاء له بالسلامة " (٢) .

ومن المآخذ التي أخذت على الشاعر ما جاء في :

١) – " عيار الشعر "، لابن طباطبا عند ذكره للأبيات الحسنة الألفاظ الواهية المعاني ... ومنها قول القطامي :

يمشين رَهْواً فلا الأعجازُ خاذلَةٌ ولا الصُّدُورُ على الأعجازِ تتَّكِلُ

---

(١) زهر الآداب ٣/٦٤٥ .

(٢) المثل السائر ٣/٩٩ .

قالت العلماءُ : لو جعل هذا الوصف للنساء دون النُّوقِ كان أحسن [١] .

٢) – " المصون في الأدب " ، لأبي أحمد العسكري ت ٣٨٢هـ :

جاء قوله : " أنشد أبو عبدالله نفطويه قال : أنشدنا أحمد بن يحيى لعديّ بن زيد :

قد يُدرِك المبطيءُ من حَظِّه والخَير قد يسبق جهدَ الحريص

فسرقه القطاميّ فقال [٢] :

قد يُدرِك المتأنِّي بعض حاجته وقد يكون مع المستعجل الزَلَلُ

٣) – وفي " الصناعتين " ، لأبي هلال العسكري :

" إلا أن هذا لو كان في وصف نساء لكان أحسن ، فهو كالشيء الموضوع في غير موضعه "[٣] .

٤) – " الموشح " للمرزباني :

ذكر المرزباني أنَّ عبد الملك بن مروان قال : لو قال كثيِّر بيته :

فقلت لها يا عزُّ كلُّ مصيبةٍ إذا وطُّنَتْ يوماً لها النفْسُ ذلَّتِ

في حرب لكان أشعر الناس . ولو أنَّ القطامي قال بيته الذي وصف

---

(١) عيار الشعر ١٤٣ .

(٢) المصون في الأدب ٦٩ . وورد في تحرير التحبير، لابن أبي الإصبع ٤٩٦.

(٣) الصناعتين ١٥٢ .

فيه مِشيْة الإبل قوله :

يَمشينَ رَهْواً فلا الأعجازُ خاذِلةٌ ولا الصدورُ على الأعجازِ تتّكِلُ

في النساء لكان أشعر الناس .

كما أورد المرزباني قول عبدالملك بن مروان : ثلاثة أبيات لو قيلت في غير ما قيلت فيه لكان أرْفع لقدْرها منها قول كثيّر :

* فقلت لها يا عزّ كل مصيبة * ... البيت

لو كان في تقوى وزُهد لكان أشعر الناس .

ومنها قوله في غيره :

أسيئي بنا أو أحسـني لا ملومـةٌ لدينـــا ولا مقليّة إن تَقَلَّتِ

لو كان هذا في وصف الدنيا لكان أجود .

ومنها قول القُطَامي يصف الإبل :

* يمشين رَهْواً ..... * البيت

لو كان في صفة النساء كان أبلغ وأحسن (١) .

وجاء في " الموشح " قوله :

" حدثني إبراهيم بن شهاب ، قال : حدثنا الفضل بن الحباب ، عن محمد بن سلام ، قال : كان زُفر بن الحارث الكلابي قد أسر القطامي في حرب بينهم وبين تغلب ، فمنَّ عليه وأعطاه مائة من الإبل وردَّ عليه ماله ،

---

(١) الموشح ٢٣٤ .

فمدحه القطامي بقصيدة طويلة يقول فيها :

مـن مبلغٌ زُفَرَ القَيسيَّ مِدْحتَه   عن القُطَاميِّ قولاً غير إفنـادِ

فلما بلغ القطاميَّ قوله فيها :

فإن قَدرْتُ على يوم جزَيْتُ به   واللّهُ يجعل أقواماً بِمرْصاد

قال زفر : لا قدرت على ذلك اليوم [١] .

٥) – " سرُّ الفصاحة " ، لابن سنان ت ٤٦٦ هـ :

ذكـر ابن سنان في " الكلام في الفـصـاحـة " ، ومن الألفـاظ التي كرهناها ، ومنها قول أبي تمام :

* صهصلق في الصهيل تحسبُهْ *

وقول القطامي :

إلى حيزبون توقد النار بعدما   تصوَّبت الجوزاء قصد المغارب

فهل تعرف أوعر من صهصلق أو حيزبون[٢].

---

(١) الموشح ٢٥١ .
(٢) سرُّ الفصاحة ٧٣ .

الفصل الأول
التشبيهات في شعر القُطَامي

١ - الطلل .

٢ - المرأة .

٣ - الناقة .

٤ - الحيوان .

٥ - الحرب .

٦ - الطبيعة .

٧ - الخمر .

أولاً - الطلل :

موضوع الأطلال من الموضوعات التي حفل بها الشعر العربي ، فقد كان من مذاهب الشعراء الوقوف على الأطلال ، وبكاء الديار ، وذكر ما فيها من آثار بالية مضت عليها حقبٌ طويلةٌ فأحالت جديدها قديماً بعد أن رحل ساكنوها .

يقول ابن رشيق : " وكانوا قديماً أصحاب خيام : ينتقلون من موضع إلى آخر ؛ فلذلك أوّل ما تبدأ أشعارهم بذكر الديار" (١) .

وأثناء وقوفهم حاولوا استنطاقها ، ومساءلتها عن الأحباب الذين كانوا بها ثم ارتحلوا ، وعرضوا للعوامل التي أدت إلى اندثار معالم الديار كالريح ، والأمطار ، والسيول ، كما كثر في شعر الطلل ذكر أسماء المواضع، وتحديدها مما يدل على فرط تعلقهم بهذه الأماكن ، وذلك لشدة تعلقهم بساكنيها ، يقول مجنون ليلى (٢) :

أمرُ على الديارِ ديار ليلى   أُقَبِّلُ ذا الجدارَ وذا الجدارَا
وما حبُّ الديارِ شغفنَ قلبي   ولكنْ حُبُّ مَنْ سكن الديارَا

يقول أحمد الحوفي عن صلة الشاعر بتلك المعالم والآثار الباقية :

" ولكن هذه البقايا عميقة الأثَر في نفس الشاعر ؛ لأنها مرتبطة بمن يحب ، فليست جمادات ولا نسياً منسياً ، وإنما هي أحياء ذوات معان ودلالات"(٣) .

---

(١) العمدة ، لابن رشيق ٢٢٦/١.

(٢) ديوان مجنون ليلى ١٣١ .

(٣) الغزل في العصر الجاهلي ، للدكتور / أحمد الحوفي ٣٠٦ .

وكما وقف الشاعر الجاهلي ، وبكى الطلل ، ووصف الدار والبلى، والخراب ، وأقبل عليها بالسؤال والتحية ، كذلك نهج شعراء العصر الأموي على منوال القدماء " ومن هنا ظلت هذه المقدمات الطللية طوال العصر الأموي محتفظة بطوابعها الصحراوية الموروثة منذ العصر الجاهلي" (١) .

هذا وللقطامي شعرٌ وقف فيه على المنازل ، وخاطبها ، ووصف آثارها بعد رحيل أهلها عنها ، وقد جاءت مقدمات لبعض القصائد ، في حين خلت بعض القصائد من تلك المقدمات الطللية ، كما وردت في قصائد أخرى على هيئة أبيات متفرقة رسم من خلالها صوراً طللية معبَّرة .

والشاعر في شعره الذي وقفنا عليه – لم يلتزم بالوقوف على الطلل ، أو باستهلالات معينة ، وإنما نلحظ التعدد كبكاء الديار ، أو الغزل ، أو المدح أو الذم أو الوصف ... الخ

ومن تشبيهات الأطلال في شعر القطامي تشبيهها بالكتاب الذي مسَّهُ بَلَلُ ، وبالخلل الموشِيِّ ظاهرُها ، كما رسم صورة للآثار الدارسة ، وأطال الوقوف عندها ، وتأمل الرسوم ، وأدرك ما درس منها ... وشبه الأثافي بالحمام الجواثم ، وبالقار .

وقد بنى القطامي بعض مقدماته على ذكر السيول وآثارها ، وذلك حيث

---

(١) ذو الرُّمة شاعر الحب والصحراء ، للدكتور / يوسف خليف ١٤٦.

يقول (١) :

صافَتْ تَّعَمَّجُ أعناقُ السُيولِ بِهِ مَنْ باكرٍ سَبِطٍ ، أو رائحٍ يَبِلُ (٢)

فَهُنَّ كالخِلَلِ الْموَشِيّ ظاهِرُها أو كَالكِتابِ الذي قد مَسَّهُ بَلَلُ (٣)

الصورة تصف أثـر السيول على الطلول ، فقد تعاقبت عليها الأمطار . " من باكر سَبِطٍ ، أو رائحٍ يبِلُ " حتى أضحت دارسة فهي تشبه الخلل ، وهي النقوش على جفن السيف ، ولأنها نقوش باهتة خفية لكثرة استخدامه ، لذا ناسب ذكر السيول التي تعمَّجُ أعناقها في الطلل ، ولم تستطع أن تمحوَ معالمه المرتسمة في ذهن الشاعر ، حيث ظلت عالقة تتحدى عوامل الفناء .

كما يشبه الطلل بالكتاب الذي مسَّه بللٌ مما يَصعُب معه تبين حروفه ، وجملة " قد مسَّهُ بَلَلُ " قيد للمشبه به .

ويلاحظ أن الخلل الموشيه كثيراً ما تأتي في تشبيهات القدماء ، وقلما

---

(١) ديوان القطامي ٢ .

(٢) صافَتْ : صاف بالمكان أي أقام به الصيف / " اللسان " ٢٠٢/٩.
تَّعَمَّجُ : التَّعَمُّجُ : التلويٌ في السير والأعوجاج /" اللسان " ٣٢٨/٢ .
سَبِط : مُتدارك مسحٌ ، و سَباطَتُه سَعتُه وكثرته / "اللسان " ٣٠٩/٧ .
يَبِلُ : يمطر بشدة / " اللسان " ٧٢٠/١١ .

(٣) الخِلَل : الخِلَّة : بطانة يُغَشَّى بها جفن السيف تنقش بالذهب وغيره / " اللسان " ٢٢٠/١١ .

تكون مع ذكر السيول ، وإنما يكون هناك في الكلام ما يرشح ذكرها مثل كلمة " يلوح " في قول كثير (١) :

لعـزة موحشاً طلل   يلـوح كأنـّـه خِـلَلُ

فهي كلمة تدل على أن ظهوره كان ظهوراً خافتاً ، فهو يلوح ولا يظهر ، والعرب تقول : لاح النجم ، ولاح البرق .

وعمر بن أبي ربيعة يقول في مطلع إحدى قصائده (٢) :

هـل تعرفُ اليومَ رَسـمَ الدارِ والطَّلَلا

كما عرفت بجفن الصّيقَلِ الخِللا؟ (٣)

فقد لحظ عمر بن أبي ربيعة ذلك في استفهامه " هل تعرف اليوم " ؛ لأن هذا لا يكون إلا إذا كان الشيء يعرف وينكر لخفائه ، ومع أن الصورة تكررت عند هؤلاء الشعراء ، فإن صورة القطامي جاءت بعد أن وصف آثار السيول المنهمرة على تلك الطلول ، لذا ناسب أن تقرن بالخلل ، أما كثّير فإنه وصف الطلل بأنه موحش ، وأنه تائه يلوح أي يظهر بعد خفاء ، وكأنه لم يره أول النظر ، وإنما دقق وراجع حتى أدركه ، وقبل ذلك ذكر اسم الصاحبة ،

---

(١) ديوان كثّير ٥٠٦ .

(٢) ديوان عمر بن أبي ربيعة ٣٢٠ .

(٣) بجفن : غِمْدُ السيف / " اللسان " ٨٩/١٣ .

الصيقل : شَحَّاذُ السُّوف وجَلاَّؤُها / " اللسان " ٣٨٠/١١ .

وأضاف الطلل إليها " لعزّة طَلَلُ " ، في حين أن الشاعر عمر بن أبي ربيعة لم يأتِ بصفة معينة للطلل ، وقد بدأ بهذا السؤال الذي يوجهه إلى نفسه ، ويربط بين رؤية رسم الديار ، ورؤية الخلل بجفن الصيقل ، وكلمة " اليوم " في قوله "هل تعرف اليوم " توحي بالقدم يعني اليوم بعد أن مضت أيام وأيام .

وفي موضع آخر يطيل القطامي الوقوف أمام الطلل حتى تجاوزت وقفته ثلاثة عشر بيتاً ، ومنها قوله : (١)

وَإِنَّ بكـل مَحْنِيَـةٍ وسَفْـحٍ ... مُقابَلَ مَنْظَرٍ مِنْها صِوارُ (٢)

خَوَاذِلُ مَـنْ مُـصاحَبَةٍ وفَرْدٍ ... كَبُلْقِ الخَيْلِ تَتْبَعُها المِهارُ (٣)

وَقَدْ دَرَسَتْ سِـوَى مَلْثُومِ نُؤْيٍ ... وآرِيٍّ تَنَصَّفَهُ الغُبَـارُ (٤)

---

(١) ديوان القطامي ٨١ .

(٢) صوار : قطيع من البقر / " اللسان " ٤/٤٧٥ .

(٣) البلـق : إذا ارتفع البياضُ حتى يبلغ البطن فهو أنبط حتى يظهر البياض فإذا ظهر فهو أبلق ، ينظر : كتاب الخيل ، لأبي عبيدة بن المثنى ٢٤٢.

المِهـارُ : المُهْرُ : ولـد الفرس أوّلُ ما يُنْتَج من الخيل ، والحُمُر الأهلية / "اللسان" ٥/١٨٥ .

(٤) نُؤيٍ : الحاجز حول الخيمـة ، وهـي حفرة حول الخباء لئلا يدخله المطر/ "اللسان" ١٥/٣٠١. آرِيّ : مَحْبِس الدابة / " اللسان " ١٤/٢٩ .

وَمِنْهُ جِذْمَةُ خَلَقُ مُحِيلُ ... كَأَنَّ بَقِيَّةً منها جِدارُ (١)

وَأَوْرَقُ كالحَمامةِ مُقْشَعِرٌّ ... وَشُعْثٌ شَجَّجَتْهُنَّ الفِهارُ (٢)

وَمُحْتَدَمُ القُدورِ عَلَى ثَلاثٍ ... كَأَنَّ مَناكِبَ الأَحْجارِ قارُ

يصور الشاعر بقايا آثار ؛ ففي كل منخفض من ديار الأحبة ، وعلى كل مرتفع يوجد قطعان البقر الوحشي ، يمشين متفرقات ، فَهُنَّ خواذل ، وقد شبهها ببلق الخيل تتبعها أولادها ، وهو من التشبيه المركب " كبلق الخيل تتبعها المِهَارُ " ، ثم إنَّه ربع آنس لا يروعها فيه صائد ، فهي آنسة تتكاثر وتتوالد ، وفي هذا إشارة إلى أنه لا ينزلها الإنسان ، ولا يصل إليها الصائد فهو مهجور جداً .

وتشبيه البقر بجماعة الخيل تتبعها أولادها يعني الوفرة ، وكثرة النعمة ، واستمرار الحياة ، وتجدد الإلفة والحنين .

والشاعر يُعنى بعنصر الحركة ؛ ليبدد السكون الذي ساد المكان ، فهي صورة حركية مشاهدة ، وجملة " تتبعها المِهَارُ " فيها استحضار للموقف .

وقد درست معالم تلك الديار وزالت ، فليس فيها إلاَّ آثار

---

(١) جِذْمة : بالكسر : أصل الشيء ، وقد يفتح / "اللسان " ٨٨/١٢.

(٢) أَوْرَقُ : الرماد / " اللسان " ٣٧٦/١٠ .

مُقْشَعِرٌ : اقْشَعَرَتْ أي تَقَبَّضت وتجمعت / " اللسان " ٩٥/٥ . شُعْث : وتد / "اللسان " ١٦١/٢ . شَجَّجْتُهنَّ : الشَّجُ : أن يعلو رأس الشيء بالضرب / "اللسان" ٣٠٤/٢ . الفِهَارُ : الفِهْرُ : الحجر / "اللسان " ٦٦/٥ .

النؤى ، ومحابس الدواب ، التي غطاها الغبار حتى وصل إلى منتصفها "وَآرِيٌّ تَنَصَّفَهُ الغُبَارُ " .

و " مَلْثُومُ نَؤْيٍ " تتناسب مع قوله " وقد درست " ؛ لأن الملثوم هو المحطم ، الذي لم تبق منه إلا بقيَّة ، والشاعر يلحظ في تلك الرسوم الحوض المتهدم ، والذي لم يبق منه إلاَّ ما يشبه الجدار ، واللجوء إلى أداة التشبيه "كأنَّ " أفاد أن بين الطرفين تشابهاً ودنوّاً .

كما يصف الرماد ، ويشبهه بالحمامة في اللون ، وهو تشبيه مفرد " وأورق كالحمامة مُقْشَعِرٌ " . وتشبيه الرماد بين الأثافي بالحمام مما كثر في الشعر ، وقد علل ذلك الجاحظ بقوله : " وهم يصفون الرماد الذي بين الأثافي بالحمامة ، ويجعلون الأثافي أظئاراً لها ، للانحناء الذي في أعالي تلك الأحجار ، ولأنها كانت معطفات عليها ، وحانيات على أولادها ." (١)

ويصور الأوتاد ، وما علاها من آثار ، وقشور بفعل الحجارة التي ضربت لتثبيتها " وشعث شججتهنَّ الفِهَارُ " ، و " شججتهن " مما يتلاءم مع بلى وقدم الديار والقفر ؛ ولأن " الشج " لا يكون إلا في الرأس ، وانتقاش تلك الأوتاد بالحجارة ، وتوالي ذلك عليها حتى تركت أثراً قوياً بارزاً .

والأثافي ، هي الحجار التي يطهى عليها الطعام ، فقد شبه أعالي الأحجار، وما يظهر منها للرائي بالقار في شدة السواد ، وفي ذلك دلالة على كثرة استخدامها ، وتراكم الدخان ، وقدم العهد ، وهو تشبيه مفرد .

والقصيدة من أطول قصائد القطامي ، وقد أشبع فيها المعاني كلها، والمواقف ، ودخل على غرضه في البيت الواحد والثلاثين ،

---

(١) الحيوان ٣/٢٣٩ .

في قوله [١] :

وَأَرَّقني بَدائعُ فــي مَعَدٍّ أراهــا اليَوْمَ لَيْسَ لَهــا ازْدِجارُ

وهذا يتناسق مع مطلع القصيدة تناسقاً رائعاً ، فقد ذكر في غرضه الصدوع والكسور والبناء ، وهو قريب من الطلل الذي أطال فيه .

والأبيات تشكل مجتمعة لوحة فنية كاملة لمنظر الديار ، وعلاماتها ، وهي من أحفل ما قاله في وصف الطلل ؛ حيث فصّل المعاني، ووقف عند كل محنيَّة وسفح ، وتأمل العين فيها ، وذكر الخوازل والمفردات ، وقد بناها على الصور الحيَّة المتلاحقة ، لم يترك شيئاً إلاَّ ووقف عنده حتى لكأننا نرى ما حلَّ بها ، ونلحظ معه موضع كل جزء ضمته تلك الرسوم ، نرى النؤى ، والأثافي ، والرماد ، والأوتاد ، والمواقد ...

والشاعر يتأمل الديار وما درس منها ، وما مضى ، ويحدد ما ظلَّ عارياً ، وما تنصفه الغبار ، وهي صور بصرية تتملاها العين بوصف دقيق حتى إذا اطلعنا على كل ذلك اتخذ طريقه إلى المطيّة !

وللقطامي وقفة أخرى عند ظواهر الطلل إلا أنه لم يطل فيها، حيث يقول [٢] :

وَمَجْهولةٌ قد خَرَّمَ السَيْلُ نُؤْيَها إذا اعْتادَ عُثْنُونٌ من الصَيْفِ كالِمُ[٣]

---

(١) ديوان القطامي ٨٣ .

(٢) ديوان القطامي ٤٦ ، ٤٧ .

(٣) عُثْنُونٌ : وعثنون الريح : هيد بها إذا أقبلت تجر الغبار جراً / " اللسان " ١٣/٢٧٦ ، ٢٧٧ .كالِمُ : أصل الكَلْم الجُرْح / "اللسان" ١٢/٥٢٥ .

تَرَى فَرْطَ حَوْلَيْها الأثافي كَأنَّها لَدَى مَوْقد النارِ الحَمامُ الجَواثِـمُ (١)

وَآس أوارِيّ الدِيـــار كَأنَّهـــا حَياضُ عِراكٍ هَدَّمَتْها المَنْاسِمُ (٢)

الأبيات تصف الصحراء حين تتابع عليها المطر حتى خَرَّم السيلُ نؤيها ، ولفظةَ " مجهولة " صوَّرت الصحراء أرضاً مقفرة موحشة لا يعرف المرء فيها مصيره ، فهي مخوفة لكونها مجهولة .

ويرسم صورة للأثافي فيشبهها بالحمام الجواثم عند موقد النار ، وقد شبه القطامي الأثافي بغير الحمام ، وذلك في قوله(٣) :

وَمُحْتَدَم القُـــدور عَلَى ثَلاثٍ كَأنَّ مَناكِبَ الأحْجـــارِ قارُ

فهي أثافي مطمورة طمراً كاد يخفيها ، كما أنها تشبه القار في شدة السواد ، وفي ذلك دلالة على كثرة استخدامها .

وتشبيه الأثافي بالحمام ورد عند بعض الشعراء ، ومن ذلك ما نجده في شعر الأخطل في قوله (٤) :

أتعرف من أسماءَ بالجُدِّ رَوْسَما مُحِيلاً ، ونُؤياً دارِساً قد تهدَّما (٥)

---

(١) الأثافي : الأثفية : ما يوضع عليه القِدْر ، والجمع أثافيّ وهـــي الحجارة التي تنصب وتجعل القدر عليها / "اللسان" ٦/٦ .

(٢) آسَ : الأسُّ : الأصل / "اللسان" ٦/٦ .

المَناسِمُ : المَنْسِم ، بكسر السين : طرف خفّ البعير / "اللسان" ٥٧٤/١٢.

(٣) ديوان القطامي ٨١ .

(٤) ديوان الأخطل ٥٩٤/٢ .

(٥) الجُدّ : ماء بالجزيرة . والروسم : الرسم ، وهو الأثر من الديار بلا شخص . والمحيل : الذي أتى عليه حول أو أحوال ، فتغير .

وَمَوْضَعِ أحطابٍ تَحمَّلَ أَهْلُهُ ومَوْقِدَ نارٍ كالحمامة أسْحَما (١)

فالأخطل إذ يشبه الأثافي بالحمام يصفها بالسواد " كالحمامةِ أسحما " ، وهو تشبيه مفرد مقيد ، في حين أنها لدى القطامي " حمام جواثم"، وفي هذا دقة تأمل ؛ فـ " جواثم " تعني بأنه قد دبَّ فيها الفناء من طول ما تركت ، حيث تنبه القطامي إلى هيئة ذلك الموقد بعد أن تحمَّل أهله ، وتركوه بقايا آثار ، أما الأخطل فراعه اللون لذا وصفه بالسحمة .

فالأخطل عني بلونه ، والقطامي عني بهيئته ، وكلاهما مصيب .

---

(١) تحمل : رحل . والأسحم : الأسود .

ثانياً - المرأة :

لقد وردت في شعر القطامي أسماء لنساء عدة ، دلَّت على كثرة من تغزل بهن الشاعر ؛ فقد ذكر أسماء ، نوردها حسب ترتيبها في الديوان ، وهي : عالية ، سليمى ، أميمة ، جنوب ، ضباعه ، ليلى ، مَيّ ، جمانة ، رباب ، رميم.

وهي ظاهرة ذكرها ابن رشيق معللاً إياها بقوله :

((وللشعراء أسماءٌ تخف على ألسنتهم ، وتحلو في أفواههم ، فهم كثيراً ما يأتون بها زوراً نحو : ليلى وهند ، وسلمى ، ودعد ، ولبنى ، وعفراء ، وأروى ، وربما أتى الشعراء بالأسماء الكثيرة في القصيدة إقامة للوزن ، وتحلية للنسيب))[١].

وهناك من رأى أن سبب وجود هذه الظاهرة في شعر القطامي يرجع إلى عدم صدق عاطفته[٢] ، والواقع أن القطامي عُرف بأنه صريع غوانٍ ، فقد جاء في الأغاني :

((القطامي أوَّل من لُقِّب " صريع الغواني " بقوله[٣]:

---

(١) العمدة ، ١/١٢١ ، ١٢٢ .

(٢) لمزيد من التفصيل يُنظر التعقيب الذي أورده نولدكه عن التحقيق الذي قام به بارت لديوان القطامي .

(٣) الأغاني ، للأصبهاني ٢٤/١٨.

صريع غوانٍ راقَهُنَّ ورقْنهُ　　　لَدُنْ شبَّ حتى شاب سودُ الذوائبُ(١)

والشاعر يذكر في البيت المشار إليه صبوته ، وما كان عليه من لهو ، وفتوة وفراغ ، وانشغال بالغواني ؛ حيث شغفنه حُبّاً ، وسلبن عقله فهو صريع غوانٍ ، وقد عبَّر عن تهالكه بقوله " راقَهُنَّ ورُقْنَهُ " ، ثم إنَّ الطباق بين لفظتي " شب ، وشاب " له وقع موسيقي رسم بُعداً زمنياً لتقلبه في اللهو والعبث منذ أن كان يافعاً إلى أن وخط الشيب رأسه ، وفي قوله " حتى شاب سودُ الذوائب " كناية عن الكبر ، وتقدم السن .

والشاعر يحكي طورين من حياته ، وقد جاء البيت ليلخص حياة الفتى المنعم ذي الفتوة والقوة .

هذا والملاحظ أن موضوع المرأة في شعر القطامي ينقسم إلى قسمين :

١ - صبوة ونسيب .

٢ - انتقاص وذم .

---

(١) صريع : الصَّرْعُ : الطَّرْحُ بالأرض ، اللسان ١٩٧/٨.
غوانٍ : الغانية التي غنيت بحُسْنِها وجمالها عن الحلي ، وقيل : هي التي تُطْلَب ولا تَطْلُب ، وقال ابن السكيت : الغواني الشَّوابُّ اللّواتي يُعْجِبنَ الرجال ويُعْجِبُبهنَّ الشُّبَّان . وقال غيره : الغانية الجاريةُ الحسناء ذات زوج كانت أو غير ذات زوج ، اللسان ١٣٨/١٥ .
الذوائب : الذُؤابةُ : مَنْبِتُ الناصية من الرأس ، والجمع الذوائب ، اللسان ٣٧٩/١ .

أولا - صبوة ونسيب :

لعلَّ لجوء القطامي إلى محاكاة الآخرين ، مما يُفسّر تقلبه في عواطفه ؛ حيث نلحظ الاتكاء على الصور الحسية .

ومن تشبيهات المرأة في شعر القطامي تشبيه أسنانها ، وريقها ، ووجهها ، وجسمها ، ولونها ، ومشيتها ، ورائحتها .

فقد شبه القطامي أسنان الصاحبة بالأقحوان ، في قوله(١) :

تُعْطي الضَّجِيعَ إذَا تَنَبَّه مَوْهِناً   مِنْهَا وَقَدْ أَمِنَتْ لَـهُ مَنْ تَتَّقِي

عَذْبَ الْمَذاقِ مُفَلَّجاً أطْرَافُهُ   كالأُقْحُوانِ مِنَ الرَشاشِ المُسْتَقِي(٢)

نَفَضَتْ أعَالِيَهُ الشَمَالُ تَهُزُّه   وغَدَتْ عَلَيْهِ غَدَاةَ يَوْمٍ مُشْرِقِ

يشير الشاعر إلى نضارة المحبوبة ، وأن الأيام بسطت لها في النعيم، وأنها زهرة نفيسة في ربوة ، وقد بُني الكلام على بيان ما تعطيه ، فوصف ما تمنحه بعد أن مهد لبسط الكلام بقوله " وقد أمنت له من يتَّقي " ، حيث شبه العذوبة بصورة جميلة ، ونقل الحديث عن الأقحوان ، المستقي من الرَّشاش ، وذلك أعطر له ، وأكثر نفاذاً ، وأن الشمال نفضت أعاليه ، وأنها غدت عليه في يوم مشرق . فقد شبه أسنان فم الحبيبة ، والذي أطلق عليه كلمة « عذب المذاق » بالأقحوان الذي وصفه بتلك الأوصاف ، وهو نور يتفتح كالورد، وأوراقه في شكلها أشبه شيء بالأسنان في اعتدالها .

---

(١) ديوان القطامي ٣٦ .

(٢) الأقحوان : نبت طيب الريح حواليه ورق أبيض ووسطه أصفر، اللسان ١٧١/١٥ .

فالقطامي شبه أسنان الصاحبة بالأقحوان ، وأطال حين فصَّل في المشبه به ، ليصف المشبه ، ويزيده بياناً .

وفي موضع آخر شبه الثغر بالأقحوان بعد أن ذكر الصاحبة واللائم، في قوله(١) :

أَلاَ أَيُّها اللاَّحِي كَفاكَ عِتــابا   فَنَفْسَكَ وَفِّقْ ما اسْتَطَعْتَ صوابا

فَإِنَّ رُعاةَ الْحِلْمِ قد رَجَعُوا بِهِ   عَلَيَّ وَآذَنْـــتُ السَفَــاهَ فَآبــا

خَلا أَنَّهُ لَيْسَتْ تُغَنِّي حَمامَةٌ   عَلَى ســاقِهــا إلاَّ ذَكَرْتُ رَبابــا

وَما مَنَعَتْنا وَالرِّكابُ مُنــاخَةٌ   علــى عَجَلٍ حِبُّ المَتــاعِ وَطابا

تَناوَلْتُ مِنْها مُسْفِراً أَقْبَلَتْ بِهِ   عَلَيَّ وَهَفَّافَ الغُـــــرُوبِ عِذابا(٢)

كَأَنَّ ثَنايَاها ذُرَى أُقْحُــوانَةٍ   عَلاها نَدَى الشُؤْبُوبِ ساعَةَ صــابا(٣)

يوجه الشاعر نصحه إلى لاحيه ولائمه بتوفيق وتصويب نفسه ، فهو أحق باللوم من الشاعر " فنفسك وفق ما استطعت صوابا " . واستهلال المطلع بـ " ألا " أفاد التنبيه . وفي قوله " فإن رعاة الحلم قد رجعوا به علي " كناية عن عودة الحلم كله إليه ، وعن الإشارة إلى أنه حليم ، كما أن في العبارة استعارة تصريحية ؛ حيث شبه أولي الحلم والمتصفون به ، والمحافظون عليه

(١) ديوان القطامي ٦٦ ، ٦٧ .

(٢) هَفَّاف : رقيق ، اللسان ٩/٣٤٨ .

الغُروب :غُروبُ الأسنان : أطرافها وحِدَّتُها وكثرة الريق ، اللسان ١/٦٤٣.

(٣) الشُؤْبُوب : أوّل كلِّ شيء وأشدّه ويقال حدّ كلّ شيء أوّله ، وقوله ساعة صابا أي انصبّ من صَوْب المطر ، وذرى أي أعالي أقحوانه نبت له نَوْر أبيض . يُنظر : الديوان ط . ليدن ٦٧ .

بالرعاة ، ، ولكنهم يرعون الحلم ، ويحرصون عليه حرص الراعي على حماه .

ويكني بقوله " وآذنت السفاه فأبا " عن إذهابه السفه ، والحمق عن نفسه .

ويشير الشاعر إلى كثرة ذكر محبوبته ، ورغبته في ذلك " خلا أنه ليست تغني حمامة إلا ذكرت ربابا " ، ويصف الشاعر كرم المحبوبة رغم تعجلهم، وقوله : " هَقَّافَ الغُرُوبِ عِذابا " وصف لرقة ثغرها ، وجمال حدَّ أسنانها وحسنها .

ويشبه ثنايا المحبوبة وقد علاها وتخللها ريق عذب بارد بأعالي أقحوانة قد علاها ندى الشؤبوب ساعة صابا " ، والتشبيه مركب أداته " كأنَّ " .

وصورة تشبيه الثغر بالأقحوان شائعة في الشعر الجاهلي ، ومذكورة عند معظم الشعراء ، وممن اشتهر بذلك بشر بن أبي خازم ، في قوله (١) :

يفلجن الشفاه عن أقحوان جلاه غبٌ سارية قطارُ

جاء في أمالي المرتضى : قال الأصمعي : " ما وصف أحد الثغر إلا احتاج إلى قول بشر بن أبي خازم "(٢).

ومن تشبيهات النسيب في شعر القطامي تشبيه ريق الصاحبة بماء

---

(١) ديوان بشر بن أبي خازم ٦٣.

(٢) أمالي المرتضى " غرر الفوائد ودرر القلائد " ، للشريف الرضي ١/٥١١ .

الغمامة ، في قوله[١] :

كَأَنَّ فَضيضاً مِنْ غَرِيضِ غَمامَةٍ عَلَى ظَمإٍ جادَتْ بِهِ أُمُّ غالِـبِ[٢]
لِمُسْتَهْلِكٍ قَدْ كادَ من شِدَّةِ الْهَوَى يَمُوتُ وَمِنْ طُولِ الْعِدَاتِ الْكَواذِبِ

الشاعر يذكر غريض الغمامة وهو أول مائها ، وذلك أعذبه ، وأبرده ، ثم قال " فضيضاً " ، والفضيض هو المتفرِّقُ من ماء المطر والبَرَد[٣]، ومجيئه بالتنكير أفاد أنه نوع متميز من هذاالغريض ، وما تناثر وتفرق منه ، وهو أصفى صفائه ، وأعذب عنوبته ، وقد وفق القطامي في ذلك ، ثم إنَّ للجار والمجرور " على ظَمإٍ " وقعاً حسناً مؤثراً ، فقد جادت به أُمُّ غالب بعد اشتداد الغُلة ، وطول الظمأ والانتظار !

وهو تشبيه ضمني ، فالشاعر يشبه ريقها العذب البارد الطيب المذاق بماء متفرق سائل من غريض غمامة ، ويصوِّر أثر تلك العاطفة ، التي أحالته إلى نِضْو أشرف على الهلاك ، كما أن المماطلة ، والوعود الكاذبة يقربه من نهايته !

والصورة جاءت في قصيدة ابتدأها الشاعر بمطلع غزلي حيث يقول[٤] :

نَأَتْكَ بِلَيْلَى نِيَّةٌ لَمْ تُقارِبِ وما حُـبُّ لَيْلَى مِـنْ فُؤادي بِذاهِـبِ

وفيه يصف تباريح الهوى ، ويتغنى بليلى ، ويردد اسمها شوقاً وتحناناً، وكأنه لما أسند النأي إلى نفسه في قوله " نأتك بليلى نية لم تقارب " ، كان هذا مظنة الرغبة في الانصراف عنها لذا أكد ثبات حبها بقوله " وما حب ليلى من فؤادي بذاهب " .

وعنصر الإبانة " الغمامة " اعتمد عليه القطامي في مواضع أخرى

---

(١) ديوان القطامي ٥٠ .
(٢) غريض : الغريضُ : الطريُ من الماء ، اللسان ٧/١٩٥ .
(٣) اللسان ٧/٢٠٨ .
(٤) ديوان القطامي ٤٩ .

منها قوله(١) :

وَكَأَنَّما جادَتْ بِمـــاءِ غَمامَةٍ خَصِرٍ تَنَزَّلَ مِنْ مُتونِ العِشْرِقِ(٢)

فقد تكررت صورة المشبه به ، إلا أن الصورة هنا تصف ما تعطيه ، والشاعر يشبهه بماء الغمامة ، وأنَّه بارد ، وأنه تنزل من متون العشرق وهو : شجرة قدر ذراع لها حب صغار إذا جف صوتت بمرِّ الريح(٣).

وهو تشبيه معنوي ، وقد ذكر ذلك البلاغيون حيث جاء في المطوّل :

" ... قال البحتري :

بات نديماً لي حتى الصباح أغيدُ مجدولُ مكـــان الوشـــاحِ
كأنمـا يبســم عـــن لُؤْلُؤٍ مُنضَّـــدٍ أو بَـردٍ أو أقـــاح

كما ذكر قول الحريري :

يفتر عن لؤلؤٍ رطبٍ وعن بَردٍ وعن أقاحٍ وعن طلعٍ وعـــن حببِ

وذلك في سياق أحد تقسيمات التشبيه باعتبار طرفيه ثم قال : « وفي كون هذين البيتين من باب التشبيه نظر ؛ لأن المشبه أعني الثغر غير مذكورلفظاً ولا تقديراً إلا أن لفظ كأنما في بيت البحتري يدل على أنه تشبيه لا استعارة "(٤) .

ويشبه الصاحبة بالغمامة من قصيدة عدد أبياتها ثلاثة وأربعون بيتاً مطلعها :

بانت رميمُ وأمسى حبلــها رِمَمَا وطاوعتْ بك من أغرى ومن صرَحا

إلى أن قال(٥) :

قامَتْ تُرِيكَ وَتَجْلُو عـن مَحاسِنِها مِثْلَ الْغَمـامَةِ تَسْقِي بَلْدَةً حَرَمـا
خَوْدٌ مُنَعَّمَةٌ نَضْخُ الْعَبِيـــرِ بِها إِذا تَمِيلُ عَلَى خَلْخالِها انْقَصَما(٦)

---

(١) ديوان القطامي ٣٦ .
(٢) مُتون : المَتْنُ : الظَّهرُ ، اللسان ٣٩٨/١٣ .
(٣) اللسان ٢٥٢/١٠ .
(٤) يُنظر: المطوّل على التلخيص ، للتفتازاني ٣٣٨ .
(٥) ديوان القطامي ٦٩ .
(٦) خَوْدٌ : الخَوْدُ : الفتاة الحسنة الخلق الشابة ، اللسان ، ١٦٥/٣.
نضخ: النَّضْخ : الرش ، اللسان ، ٦٢/٣ .
انقصما : انكسر ، اللسان ، ٤٥٣/١٢.

مِثْلُ السِّراجِ عَلَى ظَهْرِ الْفِراشِ إذا

ضَوْءُ الْقُمَيْرِعَلَى السَّارِي بِهِ عَتَما

يصف الشاعر جمال الصاحبة ، وقد جاء الغزل عن طريق التجريد ؛ حيث جرَّد من نفسه شخصاً راح يخاطبه واصفاً له جمالها ، فالمشبه محاسن المرأة ، والمشبه به محاسن تلك الغمامة ، وهي غمامة يعمُّ نفعها ويجلُّ ، وهي ثرَّة بمائها تسكب منه ، وتسقى بلدة بأكملها .

وجملة : تسقى بلدةً حَرَما " وصف للمشبه به .

والشاعر يطيل في وصف محاسن صاحبته ؛ فيذكر أنها قامت تريك ، وتجلو عن محاسنها ، والابتداء بقوله " قامت " ، يقذف في الذهن شروعاً في عمل مما يبعث على التشويق ، كما أنها منعَّمة ، مترفة النفس " خَوْدٌ مُنَعَّمةٌ نضخ العبير بها ..." وهو وصف لتقلبها في النعيم ، وأنها مرفهة . والصورة سوف يأتي ذكرها في مبحث " الكناية في شعر المرأة".

ويشبه الصاحبة بالسّراج فهي وضيئة الوجه ، وقوله : "إذا ضوء القمير على الساري به عتما " كنى به عن وقت اختفاء ضوء القمر على الساري .

كما أن ريق الصاحبة في موضع آخر يشبه بالخمر في الطعم والأثر، في قوله (١) :

---

(١) ديوان القطامي ١٤ .

وَكَأَنَّ طَعْـمَ مُدامَـــةٍ عانِيَّةٍ   شَـمِلَ الريـاقَ وخَالَـطَ الأَسْـنانا

وجملة " خالط الأسنانا " فيها من الدقة ، وجمال الموقع حتى لكأنها تصف خمراً على الحقيقة ، وليس ريقاً فحسب ، مما أضاف عمقاً للصورة .

والبيت من قصيدة طويلة عدد أبياتها ثمانية وخمسون بيتاً مطلعها:

زورا أميمة طال ذا هجرانـه   وحقيقـــة هــي أن تُـــزارَ أوانا

إلى أن قال(١) :

شَمْسٌ بُيوتُ بَني الْحُصَيْنِ تُجِنُّـها   فَتُضِـيءُ دُورُهُمْ لَهَـــا أَحْيَانَا

تَضَعُ المَجاسِدَ عن صَفائحِ فِضَّةٍ   بَيضٍ تَرَى صَفحاتِهِنَّ حِســانَا

وتَرَى النَعيمَ على مَفارِقِ فَاحِـــمٍ   رَجِـلٍ تَعُلُّ مُتـونَه الأدْهــــانا

فَتَرىَ لهــا بَشَـــراً يَعُودُ خَلوقَهُ   بَعْدَ الحَمِيـمِ خَدَلَّجاً رَيَّانَــا

فكأَنَّما اشْتَمَلَ الضَجِيـــعُ بِرَيْطةٍ   لا بل تَزِيـدُ وثـارَةً وليــانَا

والشاعر يَلمُّ إلماماً سريعاً بأحوالها كلها ؛ فهي بيضاء كالشمس المضيئة ، وهي منعمة رطبة ترى نعيمها في طراوة جسدها ، ومفارق شعرها الذي تَعلُّهُ الأدهان ، ثم ذكر ما يجده الصاحب من أثر هذا النعيم ، ثم عاد إلى بشرها وطيبها ورياها ، ثم ينتهي به المطاف عند ذكر عذوبة ما خالط الأسنان .

والأبيات سوف تأتي معنا في مبحث "الاستعارة في شعر المرأة " .

وفي المقطوعة السابقة يشبه الشاعر جسم الصاحبة بالملاءة الناعمة ، في قوله :

فكأَنَّما اشْتَمَلَ الضَجِيـــعُ بِرَيْطةٍ   لا بل تَزِيـدُ وثـارَةً وليــانَا

فوصفها بالرقة والوثارة والليونة مصدره إعجاب بالمحبوبة ، وافتتان بإظهار محاسنها .

---

(١) ديوان القطامي ١٤ .

كما وصف القطامي طلعة الصاحبة ، في قوله(١) :

شَمْسُ بُيوتُ بني الحُصَيْنِ تُجنُّها فتُضيءُ دُورُهُم لها أحْيَانَا(٢)

فالصاحبة لها من الوجاهة والبهاء ، وجمال المحيا ، فهي تبدو بعد أن استترت لتشرق طلعتها ، وتجلو الظلمات " فتُضيء دُورُهُم لها أحيانا " ، فتشبيه الصاحبة بالشمس تشبيه بليغ .

وعبَّر بقوله " شمس بيوتُ بني الحصين تُجنُّها " عن مدى استئثارهم بها ، فالاستتار دائم ، أما الظهور والتنقل فإنه يأتي أحياناً ، وهذا سرٌّ جمالها، والتمسك بها .

يقول القطامي(٣) :

بَخِلَتْ عَلَيْكَ فَمَا تَجُودُ بنـائلٍ إلاَّ اخْتلاسَ حَديثِهـا المُتَسرَّقِ

طَرَقَتْ بِأَطْيَبِ ما يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ بالقَرْيَتَـيْنِ وَلَيْلَةً بالأَبْـرَقِ(٤)

مِمَّا يُفَرِّغُ بِالأَباطِـحِ سَيْلُهُ أَوْ بالقِلاتِ مِنَ الصفَا لَمْ يُطْرَقِ(٥)

يرسم الشاعر صورة لبخلها ، فهي تبخل بالحديث لولا اختلاسه ، وتسرقه . ووصف القطامي لبخل الصاحبة وصدودها يعني أنه لم يرض بالقليل من تلك الحبيبة كما رضي به بعض الشعراء ؛ فهذا جميل بثينة يعبر عن ذلك في مقطوعة عذبة يشع منها شعورٌ بالرضى والغبطة حيث يقول(٦) :

وإني لأَرْضَى من بثينةَ بالـذي لو أبْصَرَه الواشي لقَرَّتْ بَلابِلُهْ

بلا ، وبأن لا أستطيـعُ ، وبالمُنى وبالأملِ المرجوِّ قد خاب آملُهْ

وبالنظرة العَجْلَى، وبالحَوْلِ تنقضي أواخـرُه لا نلتـقي وأوائـلُهْ

فهو شاعر يرضى بالوجدان الصادق ، ويقبل به ، ولأن " كثير ممن تحب القليل " .

ويصف القطامي مجيء طيفها " طرقت بأطيب ما يحل لمسلم "، وهو

---

(١) ديوان القطامي ١٤ .

(٢) تُجنُّها : جَنَّ الشيء : ستره ، اللسان ٩٢/١٣ .

(٣) ديوان القطامي ٣٥ .

(٤) بالقَرْيَتَيْن : قرية كبيرة من أعمال حمص في طريق البرية . ينظر : معجم البلدان ، لياقوت الحموي ، ٧٠/٧ .

(٥) لَمْ يُطْرَق : طَرَقَت الإبل الماء إذا بالت فيه وبعرت ، اللسان، ٢١٦/١٠.

(٦) ديوان جميل ١٦٩ .

طرق مصحوب بالعفاف ، وقوله " بأطيب ما يحل لمسلم " قصد به الماء الذي عبَّر به عن الريق ، فقد شبه ما أنالته في نومه من ريق بالماء العذب ، وهو تشبيه ضمني ؛ فهذا الماء بارد نقي صافٍ عذب جاد به المطر لتوه " مِمَّا يُفَرِّغُ بِالأَباطِحِ سَيْلُهُ " . والأباطح : الأَبْطحُ : لا يُنْبِتُ شيئاً إنما هو بطن المسيل النضر(١).

وهو ماء اجتمع في نقرة في جبل(٢) " بالقِلاتِ مِنَ الصَفَا لَمْ يُطْرَق " ، كما أنه بعيد عن الأيدي ، ولا يصل إليه لقلَّة مائه ، وفي منأى عن أن تطأه الدواب " لم يطرق " ، والشاعر يستبعد ما يقدح في المشبه به ؛ ليظل " المشبه " محتفظاً بعذوبته ونضارته ، والاستثناء من قبيل التفصيل في التشبيه ، وهو شائع في شعر القطامي .

ويصف القطامي الصاحبة بالبيضة ثم بالدُّرة ، في قوله (٣) :

كَأَنَّها بَيْضَةُ غَرَّاءُ خُدَّ لَهـــا   في عَثْعَثٍ يَنْبِتُ الحَوْذانَ والْغَذَما(٤)

---

(١) اللسان ، ٤١٣/٢ .

(٢) المرجع السابق ، ٧٢/٢ .

(٣) ديوان القطامي ٦٩، ٧٠ .

(٤) خُدَّ : الخَدّ : الحفرة تحفرها في الأرض مستطيلة ، اللسان ، ١٦٠/٣.
عَثْعَث : العَثْعَثُ : الكثيب السهل ، اللسان ، ١٦٨/٢.
الحَوْذان : نبت يرتفع قدر الذراع له زهرة حمراء في أصلها صفرة وورقته مدورة ، وهو من نبات السهل حلو طيب الطعم ، اللسان ، ٤٨٨/٣.
الْغَذَما : نبت ، واحدته غَذَمة ، اللسان ، ٤٣٥/١٢ .

أو دُرَّةُ مِنْ هِجانِ الدُّرِّ أدْرَكَهَا مُصَفَّرٌ مِنْ رِجالِ الْهِنْدِ قَدْ سُهِما(١)

أَوْفَى عَلَى مَتْنِ مِسْحاجٍ تَقُدُّ به غَوارِبَ الْمَاءِ قَدْ أَلْقَتْ به قُدُمــــا(٢)

جَوْفاءَ مَطْلِيَّةٍ قاراً إذا اجْتَنَحَتْ بِهــا غَوارِبُهُ قَحَّمْنَها قُحَمــا

حَتَّى إذاالسُّفْنُ كانَتْ فَوْقَ مُعْتَلِجٍ أَلْقَى الْمَعــاوِزَ عَنْهُ ثُمَّتَ انْكَتَما(٣)

فــي ذِي جُلُولٍ يُغَشِّي الْمَوْتَ صاحِبَهُ

إِذَا الصَّرارِيُّ مِنْ أَهْوالِهِ ارْتَسَمــا(٤)

غَوَّاصُ ماءٍ يَمُجُّ الزَّيْتَ مُنْغمِساً إذا الْغُمــورَةُ كـانَتْ فَوْقَهُ قِيَمــا

حَتَّى تَناوَلَها وَالْمَوْتُ كارِبُــــهُ في جَوْفِ ساجٍ سَوادِيٍّ إِذِ اقْتَحَما

وتشبيه الصاحبة ببيضة النعام وبالـدُّرة تشـبيه متعـدد ، ووصفـها ببيـضـة الطائرفـي اللـون والنعومـة ، فهـي بعيدة المنال مصونة ، وفي منعة ، قد وضعت في مكان له نبت طيب الطعم مما زاد من صفائها ورونقها " ... خُدَّ لَها في عَثْعَثٍ يُنْبِتُ الحَوْذانَ والْغَذَما " .

ونعتـها بأنها " غرَّاء " فيه تحقيق للتشبيه ، وتفصيل له ، ثم إن

---

(١) سُهِما : السُّهامُ : الضُّمْرُ وتَغَيُّير اللون وذُبولُ الشَّفتين، اللسان ،١٢/٣٠٩.

(٢) غَوارِبَ الماء : أعاليه ، اللسان ، ٦٤٤/١ .

(٣) مُعْتَلِجٍ : اعْتَلَجِ الموج : التطم ، اللسان ، ٣٢٧/٢ .

(٤) ذي جُلُولٍ : الجُلُّ ، بالفتح : شـراع السـفينة ، وجمعـه جُلول ، اللسـان، ١٢١/١١ .

الصُّرارِيُّ : المَلاَّحُ ، اللسان ، ٤٥٤/٤ .

ارْتَسَمَا : الارْتِسامُ : التكبير والتَّعَوُّذ ، اللسان ، ٢٤٢/١٢ .

التشبيه بالبيض يرجع إلى أن " النساء يشبهن بالبيض من ثلاثة أوجه :

أحدها : بالصحة والسلامة . والثاني : في الصيانة والستر ، لأن الطائر يصون بيضه ويحضنه . والثالث : في صفاء اللون ونقائه ؛ لأن البيض يكون صافي اللون نقيه إذا كان تحت الطائر . وربما شبهت النساء ببيض النعام ، وأريد أنهن بيض تشوب ألوانهن صفرة يسيرة ، وكذلك لون بيض النعام ، ومنه قول ذي الرُّمة :

* كأنها فضة قد مسها ذهب * "(١) .

وقد شبه القرآن الكريم الحور العين بالبيض المكنون . قال تعالى (وعِندَهُم قاصراتُ الطَّرفِ عِينٌ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مكْنُونٌ)(٢) شبههن ببيض النعام المصون في الصفاء والبياض المخلوط بأدنى صفرة .

كما يشبه القطامي الصاحبة بدُّرة من الدُّر الجياد ، تطلبها غوّاص ماهر ألقى بنفسه في غمرات المخاطر حتى تغير لونه ، وضمر جسمه من كثرة لزومه الغوص .

ويرسم الشاعر صورة للسفينة التي تشق عباب الماء بمقدمتها، فيشبهه بالشيء الحاد الذي تقد به الماء ؛ فقد استعار ما كان في حكم الشيء القاطع لجؤجؤ السفينة " أَوْفَى عَلَى مَتْنٍ مِسْحاجٍ تَقُدُّ به غَوارِبَ الماءِ ... "، وفي ذلك وصف لسرعة السفينة ، وسرعة قذفها للغوّاص في أمواج البحر الهادرة ، وقد طُليت بالقار ، وذلك أدعى لتماسكها ، ثم دفع الأمواج دفعاً كلما جنحت . كل ذلك من باب التفصيل .

وقوله : " فـي ذِي جُلُولٍ يُغَشِّي الْمَوْتَ صاحِبَهُ " كناية عن البحر ذي الخطر والأهوال الجليلة التي تحيط راكبه بالموت .

ويصف مهارة الملاح " الصَّرارِي " الذي يقطع البحر وهو

---

(١) شرح المعلقات السبع ، للزوزني ٢٧.

(٢) الصّافات آية ٤٧ ، ٤٨ .

يكبر اللـه من الهول ، والخوف ، ويتعوذ به من الفزع ، وقوله " غوّاصُ ماءٍ يَمُجُّ الزَّيْتَ مُنْغمِساً ... " كناية عن طلب الإضاءة في أغوار البحر ؛ لأن الغواص يملأ فاه بالزيت ثم يمجه في الماء ليضيء له ، أو عن الإخافة لدواب البحر لهربها من رائحة الزيت ، أو عن تصبر الغوّاص ، وتجلده بالزيت في فيه ... كل ذلك كناية عن المعاناة والتحايل لبلوغ الهدف ، فهو غوَّاص كابد واقتحم ظلام البحر من أجل غاية يبتغيها ، وحاجة يسعى إليها ، فالهمة العالية تكابد وتكابد حتى تلامس أهدافها ، والموت كاربها .

ويظهر في الصورة هذا الترقي الهائل في تشبيه الصاحبة من بيضة النعام إلى درَّة استخرجها غوّاص " من رجال الهند " ، وفي هذا توضيح لنفاسة تلك الدُّرة ، التي يُعنى بها صنف معين من البشر ، كما أن وجه الشبه بين تلك المرأة والدُّرة هو البياض والصفاء .

والصورة وردت عند المُخَبَّل السعدي ، في قوله :(١)

كعقيلة الدُّرِّ استضاءَ بها ... مِحْرَابَ عَرْشٍ عَزِيزِهَا العُجُمُ(٢)

أو بَيْضَةِ الدِّعْصِ التي وُضِعَتْ ... في الأرض ، ليس لَمَسِّهَا حَجْمُ(٣)

يصف الشاعر صاحبته فيشبهها بالدَّرة ، وببيضة النعام ، كما صوَّر الدُّرة ومستخرجها . والصورة مختلفة في ترتيبها عند الشاعرين : فالقطامي شبه الصاحبة بالبيضة ثم الدُّرة ، والمخبل على العكس من ذلك ، وهو أسبق من القطامي ، وربما أخذ منه القطامي .

---

(١) المفضليات ١/١١٥ .

(٢) عقيلة : عقيلة كُلِّ شيء : أكرمه ، اللسان ، ١١/٤٦٣ .
مِحْرَاب : صدر المجلس ، اللسان ، ١/٣٠٥ .

(٣) الدِّعْص : قَوْرٌ من الرمل مجتمع ، اللسان ، ٧/٣٥ .

ومن تشبيهات النسيب ما قيل في وصف مِشية النساء ، وذلك من قصيدته التي مطلعها(١):

نَأَتْـكَ بِلَيْلَى نِيَّةٌ لـم تُقـارِبِ   ومـا حُبُّ لَيْلَى مِـنْ فُؤادي بِذاهِبِ

إلى أن يقول(٢) :

تُلاعِبُ أَتْراباً مِنْ الْحَيِّ مَوْهِناً   قِصارَ الْخُطَى مُسْتَرْخِياتِ الْمَناكِبِ(٣)

تَلاهَيْنَ واسْتَنْعَتْ بِهِنَّ خَرِيدَةٌ   إلىَ مَلْعَبٍ ناءٍ مِـنَ الْحَيِّ ناضِـبِ(٤)

وَبِيـضٍ حِسـانٍ يَتَّبِعْنَ إِلَـى الصِبَى

رَسُولاً كَمَـا انْقـادتْ عِتـاقُ النَّجـائِبِ(٥)

فَأَقْبَلْنَ لا يَمْشِـينَ إلاَّ تَأَوُّداً   حِسـانَ الوُجوهِ ضافِياتِ الذَّوائبِ(٦)

فَلَمَّا الْتَقَيْنا قامَ لِلْعـاجِ رَنَّةٌ   وَمِلْنا قُرانَى مِـنْ سَلِيبٍ وسـالِبِ

يصوِّر الشاعر إعجابه بليلى ، ويذكر تفوق محاسنها ، وتثنيها ؛ وأن تلك الخريدة ما زالت بليلى ، وأترابها في الحديث حتى أخذتهن إلى ملعب ناءٍ " ... واسْتَنْعَتْ بِهِنَّ خَرِيدَةٌ إلىَ مَلْعَبٍ ناءٍ مِـنَ الْحَيِّ ناضِـبِ " .

---

(١) ديوان القطامي ٤٩ .

(٢) المرجع السابق ٥٠ ، ٥١ .

(٣) مَوْهِناً : نحو من نصف الليل ، اللسان ، ٤٥٥/١٣ .
قصار : امرأة قصيرة إذا ارادوا قصر القامة ، اللسان ، ٩٩/٥.

(٤) اسْتَنْعَتْ : الاسْتِناعةُ : التَّقدُّم في السير ، اللسان ، ٣٦٥/٨ .
خَرِيدة : هي البكر التي لم تُمْسَسْ قط ، وقيل : هـي الحيية الطويلـة السكوت الخافضة الصوت الخفرة ، اللسان ، ١٦٢/٣ .
ناضب : بعيد ، اللسان ، ٧٦٢/١ .

(٥) الصبَى : الصَّبْوَةُ : جَهْلَةَ الفُتُوَّةِ واللَّهْوِ من الغـزل ، ومنـه التَّصابي والصِّبا ، اللسان ، ٤٤٩/١٤ .

(٦) تـأَوَّداً : تأودتِ المرأة في قيامها إذا تَثَنَّتْ لتثاقلها، اللسـان،٤٤٣/٣.
ضافيات : ضفَا الشَّعرُ : كَثُرَ وطال ، اللسان ، ٤٨٥/١٤ .

ويشبه انقياد البيض للرسول وهو الغزل والداعي إلى الصبا بانقياد كرائم النجائب ، والنجائب : جمع نجيبة وهي الناقة القوية الخفيفة السريعة(١) .

وهي صورة مركبة ، وفن آخر من فنون النسيب ، وهو ذكر الصاحبة بين الأتراب ، وصرف جزء من الشعر إلى وصف الأتراب ، وأنهن بيض حسان " وَبِيضٍ حِسانٍ يَتَّبِعْنَ إِلَى الصِبَى رَسُولاً ... " ، فهن يمشين وراء الرسول وهوالغزل ، ولهن مِشية فيها تثنٍ وتأوُّد ، وأنهن ضافيات النوائب، يحسن اللهو والمراح ، وهو وصف بالنعمة ، والحياة المنطلقة مع نضرة الشباب ، والصبوة ، ثم إنَّه في النهاية وصف للصاحبة ؛ لأنها نمت بين أتراب هذا وصفهن ، وفي بيئة هذا حالها .

كما يصف صليل حليهن " فلما الْتَقَيْنا قامَ لِلْعاجِ رَنَّةٌ " .

ومن تشبيهات المرأة لدى القطامي تشبيه رائحتها برائحة الروض ، في قوله(٢) :

وَمَا رِيحُ رَوْضٍ ذي أقاحٍ وَحَنْوَةٍ وَذي نَفَلٍ مِنْ قُلَّةِ الحَزْنِ عازِبِ(٣)

---

(١) اللسان ، ٧٤٨/١ .

(٢) ديوان القطامي ٥٠ .

(٣) حَنْوة : نبات سُهْليٌّ طيب الريح ، اللسان ، ٢٠٥/١٤.
نفل : ضرب من دِقِّ النبات ، وهو من أحْرار البُقول تَنبُت مُتَسَطِّحة ولها حَسَك يَرْعاه القطا ، اللسان ، ٦٧٣/١١.
الحَزْن : ما غَلُظَ من الأرض ، اللسان ، ١١٢/١٣ .
عازب : بعيد المطلب ، وكلأٌ عازِبٌ : لم يُرْعَ قط ، ولا وطيء، اللسان، ٥٩٧/١.

سَقَتْهُ سَمَاءُ ذاتُ طَلٍّ فَنَقَّعَتْ نِطاقاً وَلَمَّا يَأْتِ سَيْلُ الْمَذانِبِ(١)

بِأَطْيَبَ مِنْ لَيْلَى إِذَا ما تَمايَلَتْ مِنَ اللَّيْلِ وَسْنَى جانِباً بَعْدَ جانِبِ

المشبه رائحة الصاحبة ، وعبقها الآسر يفوح عنوبة وعطراً ، والمشبه به روض حوى ألواناً من الخضرة والنداوة ، والنضارة ، وهو تشبيه ضمني مبني على النفي وأفعل التفضيل ، والشاعر يعمد إلى العبارات الكاشفة للمعنى كي يخرج لنا تلك الصورة ، ومنها قوله : " مِنْ قُلَّةِ الحَزْنِ عازِبِ" ، " سَقَتْهُ سَمَاءُ ذاتُ طَلٍّ فَنَقَّعَتْ نِطاقاً وَلَمَّا يَأْتِ سَيْلُ الْمَذانِبِ " ، وهي من مكونات الصورة ، ومن أبرع ما يكون عليه الوصف ولفظة " نقَّعتْ" أفادت قصر المطر على الاستنقاع في الحفر دون أن يسيل في مسارب مياه الرياض .

وقد وقف القطامي عند رائحة الصاحبة بعد أن فصَّل الصورة ، وأشبع المعنى ، حيث جعل رائحتها تفوق وتفضل ذلك الروض بكل ما يشيع فيه من جمال وروعة .

والمعنى شائع بين الشعراء ، ومن ذلك قول الأعشى في هريرة(٢) :

ما رَوْضَةُ مِنْ رِياضِ الحَزْنِ مُعْشِبَةُ

خَضْراءُ جادَ عَلَيْها مُسْبِلُ هَطِلُ

---

(١) نقعت : نقع الماء في المسيل ونحوه : اجتمع ، اللسان ٣٥٩/٨ .
نطافاً: النُّطْفُ : القطر ، والنُّطَف جمع النُّطاف : الماء الصافي قلّ أو كثر اللسان ٣٣٦/٩.
المَذانب : جمع مِذْنَب : مسيل الماء إلى الأرض أو الجدول يسيل عن الروضة ماؤها إلى غيرها ، اللسان ٣٩١/١ .

(٢) ديوان الأعشى ٥٧ .

يُضَاحِكُ الشَّمْسَ مِنْهَا كَوْكَبٌ شَرِقٌ ... مُـؤَزَّرٌ بِعَمِيـمِ النَّبْتِ مُكْتَهِلُ(١)

يَوْماً بأطْيَبَ مِنْهَا نَشْــــرَ رَائِحةٍ ... وَلاَ بِأحْسَنَ مِنْهَا إذْ دَنَا الأُصُلُ

أما قول كثيِّر عزَّة(٢) :

فما رَوْضةٌ بالحَــزْنِ طيـبةُ الــثرى ... يَمجُّ النَّدَى جَثجاثُها وَعَرارُها(٣)

بأطيــبَ مــن أردان عَــزَّة مَــوْهِــنــاً ... وقــد أوقــدتْ بالمَنْـدَلِ الرطْـبِ نارُهــا(٤)

فهو يشبه قول القطامي ؛ إذ لم يقتصر على الربط بين الصاحبة والروضة في طيب الرائحة ، وإنما ذكر الروض وعناصره : أقاحي ، وحَنْوة ، ونفل .

وكثيِّر ذكر الجثجاث والعرار ، أما الأعشى فلم يورد شيئاً من ذلك .

والقطامي أشار إلى المكان " مِنْ قُلَّةِ الحَزْنِ عازِب " ، فهو نبات عالٍ، بعيد المطلب ، ينبت فوق الروابي ، ثم إنَّه لم يُرْعَ قط ، وهذا أدعى

---

(١) الكوكب : معظم النبات ، والشَّرق : الرِّيَّان المُمْتلِيء ماءً ،
المؤزر : الذي صارَ النبت كالإزار له .
العميم : الكثيف الحسَن .
المكتهل : اكتَهَل النبتُ : طال وانتهى منتهاه .
يُنظر : اللسان ، ١١/٦٠١ .

(٢) ديوان كثيِّر عزَّة ٤٢٩ ، ٤٣٠ .

(٣) جثجاثها : من أحرار الشجر ، وهو أخضر ، ينبت بالقيظ كله زهرة صفرة ، اللسان ، ٢/١٢٨ .
عرارها : نبت طيب الريح ، اللسان ، ٤/٥٦٠ .

(٤) أردان : الأرْدَنُ : ضرب من الخز الأحمر ، اللسان ، ١٣/١٧٧ .

لجودته ، في حين أنَّ كثيِّراً والأعشى ذكرا الحَزْن ، ولم يذكرا قلته ، وهذا فرق واضح .

والقطامي وصف السماء التي سقته ، وأنها ذات طل ، ثم تخيَّر ماء النطاف ، وهو الماء الصافي كقطر الندى .

والأعشى ذكر المسبل الهطل ، وهذا غير النطاف ، وإنما فيه الكثرة والسخاء .

كما يصف القطامي احتفاظ الصاحبة بطيب رائحتها في وقت تتغير فيه رائحة الإنسان " إذا ما تمايلت من الليل وسنى " ؛ فهو يصف طيب ريحها في أثناء تمايلها ، وهذا أبعث للرائحة ، وأشيع لها .

أما كثيِّر فإنه وإن أشار إلى احتفاظها بطيبها مع وجود ما يستدعي التغيِّر ، فإن وصفه لها بقوله " وقد أوقدت بالمندل الرطب نارها" أخلّ بجمال الصورة ، وجعلها عرضةً للنقد .

جاء في الموشح : " حدثني إسحاق بن إبراهيم الموصلي ، قال : قالت امرأة لكثير : أنت القائل :

فما رَوْضةٌ بالحَزْنِ طيبةُ الثرى يَمجُّ النَّدَى جَثجاثُها وعَرارُها

بأطيبَ من أردان عَزَّة مَوْهِناً

وقد أوقدتْ بالمَنْدَلِ الرطْبِ نارُها

قال : نعم . قالت : فضَّ اللّهُ فاك ، أرأيت لو أن ميمونة الزنجية بُخِّرَت بمندل رطب أمَا كانت تطيب ؟ ألا قلت كما قال سيدك امرؤ القيس :

ألم تر أني كلما جئتُ طارقاً وجدتُ بها طيباً وإن لم تطيَّبِ"(١).

هذا وقد فاق الأعشى الكل بقوله : " يضاحك الشمس منها كوكب شرق " ، وهو ما ليس له في الحسن نهاية ، وقد وصف هذا الحسن الدكتور أبو موسى بقوله :

" ..والبيت الثاني من صور البيان الفذَّة ، التي لا يخرجها من ألفاظ اللغة إلا من له قُدرة تأمل كيف جرَّد من الروضة كوكباً شرقاً – أي أزهر ، وكيف استخرج من أحشاء النبات ابناً للشمس ، يضاحكها ، ثم كساه بثياب أمه ، فأزره بعميم النبت ، لم أعرف كوكباً يخرج من أحشاء روضة وهو معتم بالنبت ويضاحك الشمس إلاّ في هذه الصورة التي تخلق كائناً ثالثاً ، نصفه من الكواكب ، ونصفه من النبات : " كوكب شرق مؤزر بعميم النبت " ، ثم تأمل الملاعمة بين الصاحبة ومناغاة الشاعر لها ، وبين مضاحكة الكوكب الشرق المزهو بزينة الأرض للشمس ذات التعالي والكبرياء "(٢).

ويقول القطامي من قصيدة عدد أبياتها ثلاثون بيتاً مطلعها(٣) :

تَرَحَّل جيـراني بِقَلْبِـــيَ إنَّني أُكَلِّفُ قَلْبي كُلَّ جـــارٍ أُجاوِرُه

إلى أن يقول وصفاً قلبه وأشواقه ، مشبهاً القلب بالعشير :

إذا تَاقَ قَلْبي أو تَطَرَّبَهُ الهَوَى فَليْسَتْ له بُقْيَا ولا الحِلْمُ زاجِرُه

عَصَى كُلَّ ناهٍ واستَبَدَّ بِأَمْـرِهِ فما هُوَ إلاَّ كالعَشِيرِ تُؤَامِــره

ينفي الشاعر عن نفسه الحلم ، فقد عصى قلبه كل ناه ، ثم لم يبق في قلبه

---

(١) الموشح ، للمرزباني ٢٣٩ .

(٢) يُنظر : دراسة في البلاغة والشعر ، للدكتور /محمد محمد أبو موسى ٣٢٣، ٣٢٤ .

(٣) ديوان القطامي ٢٠ .

شيء لشيء ، وإنما صار كله توقاً وتحناناً ، فهو يُعلن تمرده ورفضه للنصح فلا سبيل لصرفه عن الشوق ، وجملة " تَطرِّبُهُ الهوى " بلغت الغاية في تخيل ما يمكن أن يصحب ذلك الطرب ، وتلك العواطف المتوقدة ، حيث لا يرده عن صبوته حلم ، ولا زجر ، فقد فاض به فلا إبقاء ولا تصبر ، ولا حلم " فليست له بقيا ولا الحلم زاجره " ، فالقلب عصى العقل ، وأصبح له مطلق التصرف " كالعشير تؤامره " فهو كصاحب لكَ تخاف خلافه فأنت تؤامره فيما تريده ، والعشير الصاحب الذي تعاشره .

وفي القصيدة نلمح أموراً ، وأشياء معنوية متشابهة تحمل دلالة على طبع الشاعر ؛ فقد دلَّ على نفسه وطبعه في مواضع كثيرة ، ووصف نفسه بأنها أليفة مألوفة ، وأنَّ قلبه يعلق بكل جار يجاوره عبَّر عن ذلك بقوله :

تَرَحَّلَ جِيرانــي بِقَلْبِيَ إنَّنِي أُكَلِّفُ قَلْبِي كُلَّ جَــارٍ أُجاوِرُهْ

كما اتسع قلبه فرغب في كل بشير الوجه حرٍّ مسافره ، قال مخاطباً نفسه :

بِعَيْنَيْكَ تَنْظارُ إلى كُلِّ هَوْدَجٍ وَكُلِّ بَشيرِ الوَجْهِ حُرٍّ مَسافِرُهْ

ومن خلال دراسة تشبيهات القطامي للمرأة يتضح أنه اعتمد في تكوين صوره الغزلية على عناصر مستوحاة من الطبيعة من حوله ، ومن الحيوان ؛ فشبه ثغرها بالأقحوان ، وريقها بماء غمامة خصر ، و بالخمر ، كما شبهها بالغمامة ، وببيضة النعام ، و بالدُّرة ، وشبه رائحة الصاحبة برائحة الروضة النضرة التي حوت ألواناً من النداوة والحسن ، وشبه مِشية النساء بانقياد كرائم النجائب من الإبل .

ثانيا - انتقاص وذم :

للقطامي شعرٌ انتقص فيه المرأة ؛ حيث نسي ولعه وشوقه ، وصبوته ، وسكت عن المحاسن ، والتفت إلى المثالب ، ولعلَّ مرد ذلك أنه شعر قيل بعد ذهاب الشباب، وحين أحسّ الشاعر بانصراف الغواني عنه ، فتحول إلى نقمة على النساء ، وسخط عليهن ، أو ربما لأن الشاعر لم يمدح النساء ، وإنما ذكر لهوه وصبوته ، وادعاءته، ولما ذم ، ذم النساء جميعاً ...

ومن تشبيهات القطامي في هذا الباب تشبيه وصل الغواني بالفلوات ، وذلك من قصيدة فائية عدد أبياتها ثمانية وعشرون بيتاً مطلعها (١) :

دعاني الهوى إذ شرَّق الحيُّ غُدوةً

وما كنتُ تدعوني الخطوبُ الضعائفُ

إلى أن يقول :

فَيا قَاتَلَ اللّهُ الغَـــوانيَ إنَّها ... قَريبٌ بَعِيـدٌ وَصلُـــهُنَّ تَنَائفُ
تَراهُنَّ يَحبُلْنَ الأَقاوِمَ بالصبىَ ... وَهُنَّ علـــى ما يَحْتَبِلْنَ سَخـائِفُ
بَكَرْنَ فما يُنْجِزْنَ عَهْداً عَهِدْنَهُ ... إلى النَخْلِ تَحْدُو ظُعْنَهُنَّ المَناصِفُ(٢)
وَقَدْ كانَ فِيهِمْ ما دَنَوْا لِيَ نَعْمَةٌ ... وقُرَّةُ عَيْنٍ دَمْعُها اليـــومَ ذارِفُ
وَمِنْ لَذَّةِ الدُنْيَا حَدِيـــثٌ ونَعْمَةٌ ... ولَهْوٌ وحاجاتٌ تُتَلّى طَرائـــفُ(٣)

وهو موقف آخر للقطامي من النساء ، فوصلهن لا يدوم ، ولا يُعرف له قرار ، وتشبيهه بالفلوات النائية الموحشة ،حيث لا ماء فيها ، ولا أنيس " وصلهن تنائف " ، وهو تشبيه بليغ . وقد كشف الطباق في قوله" قريبٌ بعيدٌ وصلهن"

---

(١) ديوان القطامي ٢٥ .

(٢) المَناصفُ : أودية صغار ، اللسان ، ٣٣٣/٩.

(٣) تُتَلّى : تَتَبَّع ، اللسان ١٤/١٠٢ .

عن عمق الحيرة ، فمع قرب مكانهن يتعذر وصالهن ، ولهذا نلحظ تلك الصرخة المدوية يطلقها الشاعر في وجه الغواني داعياً عليهن " فَيا قَاتَلَ اللّهُ الغواني ".

ويكني بقوله " تَراهُنَّ يَحبُلْنَ الأَقْوامَ بالصبِىَ " عن حيلهن في اصطياد الشبان . ويحذر الشاعرمن الغواني" وَهُنَّ على ما يَحْتَبِلْنَ سَخائِفُ "، وهو تحذير ينم عن حسرته لانصرافهن عنه ؛ لأنهن يقتلن بجمالهن ، وحسنهن ، ومع ذلك يعشن منعمات لا يبالين بشيء .

ويصف حاله بعد رحيل الأحبة ، ولفظة " بَكَرْنَ " تعني استعجال الرحيل ، والتجهز له منذ زمن ، وحرمان الشاعر من وعد طال ترقبه .

وجملة " فما يُنْجِزْنَ عَهْداً عَهِدْنَهُ " ، جسد الشعور بالخيبة ، والتحسر على ما كان من لذة الوصال لولا عدم استقامة وعد الغواني ، وهي جملة اعتراضية .

ثم هذا التقسيم البديع ، وهذه الواو " العاطفة " ، وربطها بين أمور هي في حقيقتها مما يطيب للشاعر تتابعها وبقاؤها " .. حَدِيثُ ونَعْمَةُ ولَهْوٌ وحاجاتٌ تُتَلَّى طَرائِفُ ".

وفي موضع آخر يشبه القطامي الغواني بجماعة الجن ، وبالرياح ، في قوله(١) :

---

(١) ديوان القطامي ١٥ .

وأَرَى الغَواني إنَّما هي جنِّةٌ   شَبَهُ الرِياح تَلَوَّنُ الألْوانَا

فإذَا دَعَوْنَك عَمَّهُنَّ فلا تَجِبْ   فَهُنَاكَ لا تَجدُ الصَفاءُ مَكانَا

نَسَبٌ يَزِيدُكَ عِنْدَهُنَّ حَقارةً   وعَلَى ذوات شَبابِهنَّ هَوانَا

فتنكر الغـواني لمن تقـدمت به السن قـد أرّق القطامي طويلاً ، والصـورة تكشـف عـن رؤيـة الشـاعر فـي الغوانـي بعامة ، وتلوُّن عواطـفهن ، وعدم ثباتـها ، فيشـبهن بجماعـة الجن فـي الاتيـان بكل عجيب ، كما يشبه قلوبهـن بالرياح المتقلبـة ، والسـائرة فـي جـهات مـختلفة " إنَّما هي جنِّةٌ شَبَهُ الرِياح تَلَوَّنُ الألْوانَا" .

وتجـربة الشـاعر مع الغواني منحتـه القدرة على إسداء النصح بعدم الاكتراث بهـن ، والتـغاضي عن سمـاع ما يلقبن به الشيخ عادة من كونه عماً "وإذَا دَعَوْنَك عَمَّهُنَّ فلا تُجِبْ "، فهو يحذر من قبول نداء كهذا ، لما يعقبه من حرمان ودادهن وصفوهن " فَهُنَاكَ لا يَجِدُ الصَفَاءُ مَكانَا " ، والتعبير باسم الإشارة " هناك " إشارة إلى البعد كما يبعد الأمر الكريه ، والمراد حيث تكون عمهن ، وينظرن إليك هذه النظرة ، ويخرجنك من مجال الصبوة ، وهذا كريه للشاعر ؛ لأنه لا يكون إلا بعد شبيبته ، وذهاب قوته وشبابه ، والأسف ليس أسفاً على مخالطة النساء ، وإنما هو أسف على فوات الشباب والقوة والحياة .

وشكوى الشعراء من نفور النساء من المشيب ملأت أشعارهم حتى أصبح فيهم الخبير بشؤونهن كقول " علقمة بن عبدة " في ذلك(١) :

(١) شرح ديوان علقمة ، طرفة ، عنترة ٢٢.

فإن تسألوني بالنســـاء فإنني بصيرٌ بأدْواءِ النساءِ طبيبُ

إذا شابَ رأسُ المرءِ أو قلَّ مالُهُ فليس لهُ من ودِّهنَّ نصيبُ

وللأخطل أبيات تشبه ما نسبه القطامي للغواني من إخلاف الوعد والماطلة ، في قوله(١) :

إن الغواني إن رأينــــك طاوياً برد الشباب طوين عنك وصالا

وإذا وَعْدنك نائــلاً أخلفــــنه ووجدتْ عند عِداتهــن مِطالا

وإذا دعــونك عمهــن فإنــــه نســبُ يزيدك عندهــن خَبالا

فتصوير النفور ظاهر في المقطوعتين ، وذلك بسبب المشيب ، مما أدى إلى تغير الغـواني ؛ فـالقطامي شبـه تغيرهن بتلون الجن ، وتقلب الرياح ، وهذا أدق ، في حين أن الأخطل وصف بعدهن ، وعدم وصالهن بشيء طوي وانتهى لحلول المشيب "إن رأينـك طاوياً برد الشباب طوين عنك وصالا " ، فالوصل نُسي وطوي كمـا يطوى الثـوب بعد انقـضـاء الغرض منه ، وقد كـان زاهيـاً برونق الشباب وجدته ونضارته .

كمـا يصف الأخطل مـا عُرف عن الغواني من إخلاف الوعد ، وعدم الوفاء به ، واللجوء إلى الماطلة ، وهي معانٍ رددها القطامي .

وهناك شعر للقطامي انتقص فيه المرأة إلا أنه ذم من نوع آخر فـهو

---

(١) ديوان الأخطل ، ٢٤٥.

من قبيل الهجاء اللاذع ، وهو هجاء امرأة من محارب لبخلها ، حيث يقول واصفاً إياها:

فَرَدَّتْ سَلاماً كارِهاً ثم أَعْرَضَتْ كَمَا انْحاشَتِ الأَفْعَى مَخافَةَ ضارِبِ

فالشاعر يشبه شدة نفور تلك المرأة ، وانقباضها منه بنفور الأفعى خوفاً من ضارب قد يؤذيها .

والبيت من قصيدته البائية : « نأتك بليلى نيَّةٌ لم تُقارِبِ ...الخ » وقد تقدم الحديث عنها ، وهي قصيدة تحكي قصة الشاعر مع المحاربية ، وذلك حيث يقول(١) :

وَإِنّي وإِنْ كانَ المُسافِرُ نازِلاً وَإِنْ كانَ ذا حَقٍّ عَلَى النّاس واجِبِ

وَلا بُدَّ أَنَّ الضَّيْفَ مُخْبِرُ ما رَأَى مُخَبِّرُ أَهْلٍ أَوْ مُخَبِّرُ صاحِبِ

سأُخْبِرُ بالأَنْباءِ عَنْ أُمِّ مَنْزِلٍ تَضيَّفْتُها بَيْنَ العُذَيْبِ فَراسِبِ(٢)

تَلَفَّعْتُ فِي طَلٍّ وَرِيحٍ تَلُفُّني وَفي طِرْمِساءَ غَيْرِ ذاتِ كَواكِبِ(٣)

إِلَى حَيْزَبُونٍ تُوقِدُ النارَ بَعْدَما تَلَفَّعَتِ الظَّلْماءُ مِنْ كُلِّ جانِبِ

تَصَلَّى بِها بَرْدَ العِشاءِ وَلَمْ تَكُنْ تَخالُ وَبِيضَ النارِ يَبْدُو لِراكِبِ

---

(١) ديوان القطامي ٥١ – ٥٣ .

(٢) راسِب : بكسر السين ، موضع قريب من العُذَيْب بالكوفة .
يُنظر : معجم ما استعجم ، للبكري ٦٢٦/١.

(٣) الطِّرْمِساءُ : الظلمة ، اللسان ١٢٢/٦ .

فَما راعَها إلاَّ بُغـــامُ مَطِيَّةٍ تُرِيحُ بِمَحْسُورٍ مِنَ الصَّوْتِ لاغِبِ(١)
تَقُولُ وَقَدْ قَرَّبْتُ كُورِي وَنَاقَتِـي إلَيْـكَ فَلاَ تَذْعَـرْ عَلَيَّ رَكائِبِـي
وَجُنَّتْ جُنُوناً مِنْ دِلاثٍ مُناخَـةٍ وَمِنْ رَجُلٍ عارِي الأَشاجِعِ شاحِبِ(٢)
سَرَى في جَلِيدِ اللَّيْلِ حَتَّى كَأَنَّما تَخَـزَّمَ بِالأَطْرافِ شَوْكُ الْعَقارِبِ(٣)
فَسَلَّمْـتُ والتَّسْلِيمُ لَيْسَ يَسُرُّها وَلَكِنَّهُ حَــقٌّ عَلَى كُلِّ جَانِـبِ(٤)
فَرَدَّتْ سَلاماً كارِهاً ثُمَّ أَعْرَضَتْ كَمَا انْحاشَتِ الأَفْعَى مَخافَةَ ضارِبِ
فَقُلْتُ لَها لا تَفْعَلِي ذا بِراكِـبٍ أَتاكِ مُصِيـبٍ ما أَصابَ فَذاهِبِ
فَلَمَّا تَنَازَعْنا الْحَدِيـثَ سَأَلْتُها مَنِ الْحَيُّ قالَتْ مَعْشَرٌ مِنْ مُحارِبِ
مِنَ الْمُشْتَوِينَ الْقِدَّ مِمَّا تَراهُـمُ جِياعاً وَرِيفُ الناسِ لَيْسَ بِناضِبِ(٥)
فَلَمَّا بَدَا حِرْمانُها الضَّيْفَ لَمْ يَكُنْ عَلَـيَّ مُنـاخُ السُّوءِ ضَرْبَةَ لازِبِ

ترسم الأبيات السابقة مشهداً كاملاً ؛ حيث يقصُّ القطاميُّ ما جرى له في أحد أسفاره ، ولعلَّ أوّل ما يلفت النظر اختياره تلك البداية لتقرير حقيقة

---

(١) بُغامُ : بُغامُ الناقة : صوتٌ لا تُفْصِح به ، اللسان ، ٥١/١٢.
بمحسور : الحُسُورُ : الإعياء والتعب ، اللسان ، ١٨٨/٤ .
(٢) كوري : الكُور هو رَحْل الناقة بأداته ، اللسان ، ١٥٥/٥ .
دِلاث : ناقة دِلاثٌ أي سريعة ، اللسان ، ١٤٨/٢ .
الأشاجع : عُروق ظاهر الكف ، اللسان ، ١٧٤/٨ .
(٣) تخزَّم : شكَّها ودخل فيها ، اللسان ، ١٧٥/١٢ .
(٤) جانب : غريب ، اللسان ٢٧٧/١ .
(٥) ريفُ الناس : الرِّيفُ : الخِصْبُ والسِّعة ، اللسان ١٢٨/٩.

لا مراء فيها ذلك أن المسافر لا بد أن يحل في مكان ما ، وإن إكرامه واجب على من نزل عليهم ضيفاً ، ثم إنه من الطبعي أن يعود ولديه من الأخبار والمواقف ما يقصه على الأهل والأصحاب حول رحلته ، وما لاقاه في سفره .

فمكان الحدث بين " العذيب " و " راسب " ، أما زمانه ففي " طرمساء غير ذات كواكب " ظلام دامس علاوة على البرد الشديد ، والمطر " تَلَفَّعْتُ في طَلٍّ وَرِيحٍ تَلُفُّني وَفي طِرْمِساءَ غَيْرِ ذاتِ كَواكِبِ " ، وفي هذا أسلوب استعارة ، فقد شبه الطل والريح بالثوب ، ذكر المشبه ، وحذف المشبه به ، ورمز له بلازم من لوازمه وصفاته وهو " اللفاع " .

كذلك في قوله " تلفعت الظلماءُ " استعارة مكنية ، استعار التلفع للظلمة .

ويصف القطامي حاله وقد ساقته الأقدار إلى " حيزبون " أي عجوز لها نار أضرمتها لتتدفأ بها من برد الشتاء ، ولتبدد ظلاماً تراكم وحاصر المكان من كل جانب ، ولم يدر في خلدها أن وميض نار كهذه سيجلب لها ضيفاً تشقى به ، وقوله :

فَما راعَها إلاَّ بُغــامُ مَطيَّةٍ تُرِيحُ بِمَحْسُورٍ مِنَ الصَّوْتِ لاغِبِ

وصف فجاءة الموقف ، والضمير في " راعها " عائد على الحيزبون ، فقد أصابها صوت ناقته – مع كونه صوتاً متعباً لا يقوى حتى على التنفس – بالهلع والرعب مما جعلها تسارع إلى زجره وتحذيره للتنحي عن المكان لكي لا يذعر ركائبها بسبب ناقته " إلَيْكَ فَلاَ تَذْعَـرْ عَلَيَّ رَكائِبِـي " ، واسم فعل الأمر " إليك " أوجز ما ظهر على قسمات تلك الحيزبون من ثورة واحتجاج

فقدت معهما صوابها لما تشهده من ناقة أناخها راكبها ، ومن راكب سرى في جليد الليل ، ولا تظنه إلا أنه يطلب قراها !

وقوله " والتَّسْلِيمُ لَيْسَ يَسُرُّها " جملة اعتراضية عبَّرت عن عدم رغبتها في لقائه فهي ترد سلاماً على كراهية ، وليس عن ترحيب بشاعرنا ، لهذه شبهها بالأفعى تتحاشى وتميل عمن يريد ضربها ، و" ضارب " بالتنكير زادت في تجسيد الحذر حيث أفادت العظم .

وتنتهي القصة بتقريع العجوز لشاعرنا كأنما تقول له : تسألني ممن؟ أنا ممن يشتوي القد ، ومن الجياع ولم ينضب ريف الناس ، وتضيق بك الدنيا حتى لا تجد غيري لتأوي إليه ! وهذا حالي ، وحال أكلي ، وحال ناري الخابية .

عندئذ يؤثر الشاعر الرحيل ؛ لأن مقام السوء ليس ملزماً له لعدم الترحاب " لَمْ يَكُنْ عَلَــيَّ مُنَــاخُ السُّوءِ ضَرْبَةَ لازِبِ " .

هذا ومن النقاد من يعدُّ هذه القصيدة من أخبث الهجاء(١) . وفيها نلحظ الاتكاء على حرف العطف " الفاء " أثناء سرد الأحداث " فما راعها، فلا تذعر ، فسلَّمتُ ، فردّتْ ، فقلتُ لها ، فلما تنازعنا ، فلما بَدَا " ، والتي تفيد التعقيب ؛ ولكي يظل الكلام موصولاً بما يسبقه مما هو أليق في مجال القصة .

يقول القطامي عقب وصف رحلته بعد ترك المرأة المحاربيَّة :

---

(١) الشعر والشعراء ، لابن قتيبة ٢/٧٢٧ .

ألا إنَّما نيرانُ قَيْسٍ إذا شَــتَوْا　　　لطارق لَيْلٍ مِثْلُ نارِ الحُباحِــــبِ

والبيت من قبيل الاستطراد ، وقد استهله بـ " ألا " التي تفيد التنبيه ، وفيه ذم لقيس ، ونيرانها في الشتاء بأنها لا تكرم طارق ليل ، فنار الحباحب لا تدفيء ولا تطعم ، وهي كناية عن البخل .

وقد قالوا في نار الحُباحِب : الحُبَاحِب طائر يطير في الظلام كقدر الذُّباب ، له جناح يَحْمَرُّ يُرى في الظلمة كشرارة النار ، ويقال : نار أبي الحُبَاحِب ، قال الأصمعي : هو رجل كان في الجاهلية ، وقد بلغ من بخله أنَّه كان إذا أوقد السِّراج فأراد إنسان أن يأخذ منه أطفأه ، فضُرب به المثل في البخل(١) .

---

(١) يُنظر : مجمع الأمثال ، للميداني ٣٣/٣ - ثمار القلوب ، للثعالبي ٥٨١ ، ٥٨٢ ، خزانة الأدب ، للبغدادي ١٥٠/٧ .

ثالثا - الناقـة :

لقد صاحب العربي ناقته ، وأولع بها ، ومنحها من فنه وذاته ، فهي رفيقة دربه ، وهي الوسيلة التي لا غنى له عنها في تنقلاته وسط صحراء شاسعة ممتدة ؛ حيث نشأ بينهما إلفٌ عميقٌ ، واعتاد كلاهما الآخر .

وقد نظم الشعراء في وصف الناقة شعراً رائعاً دلّ على شدة القرب ، بل إن منهم من تزعم هذا الفن كطرفة بن العبد، والراعي النميري وغيرهما ...

وللقطامي شعر قاله في الناقة ، ووصف ما دق ، وخفي منها مدفوعاً بحبه لها ، كما صوَّر في مواقف أخرى ما حلّ بها من جهد وإعياء ، وما يعتمل بداخلها من هيجان وتوجس ، وما إلى ذلك مما يشهد بعمق التواصل بينهما .

ومن تشبيهاته في الناقة أنه شبه عينيها ، ودمعها ، وعنقها ، والزبد الذي يخرج من فمها، وشبه عرقها ، ونسعها ، وضخامتها ، واكتنازها ، والسمن الذي علاها ، وشبه ركبها ، وصدرها ، وظهرها ، وبطنها ، وشبه سيرها ، وجنونها ، وشبه ضمورها، وصوتها ، وسرعتها .

ففي قصيدته اللامية :

إنَّا محيُّوك فاسلم أيها الطلل وإن بليت وإن طالت بك الطِّيَلُ

وبعد أن وصف مشاق الرحلة جاء تشبيه عيني الناقة بالقليب ، في قوله(١) :

خُوصاً تُدِيرُ عُيوناً ماءُ ها سَرِبُ على الخُدُودِ إذا ما اغْرَوْرَقَ المُقَلُ(٢)

لَواغِبَ الطَرْفِ مَنْقُوباً حَواجِبُها كأنَّها قُلُبٌ عاديَّةٌ مُكُلُ(٣)

---

(١) ديوان القطامي ٣ .

(٢) خُوصاً : الخوص : ضيق العين وصغَرُها وغؤورها، اللسان ٣١/٧.

(٣) لَواغب : اللُّغوبُ : التَعَبُ والإعياءُ ، اللسان ٧٤٢/١.

مَنْقُوباً : النَّقْبُ : الثقبُ في أي شيء كان ، اللسان ٧٦٥/١ .

حَواجِبُها : جمع حاجب : العظمان فوق العينين بلحمهما وشعرهما، اللسان ٢٩٨/١ ، ٢٩٩ .

القليب : البئر ، اللسان ٦٨٩/١ .

مُكُلُ : المَكْلَةُ : القليل يبقى في البئر جمعه مُكُلُ ، اللسان ٦٢٨/١١ .

فعينا الناقة علاهما التعب ، وأصابهما بالدمع المنسرب على الخدود ، والذي ملأ المُقل ، وجال فيها ، والتركيز على العينين لما تعكسانه من صحة البدن أو اعتلاله ، فالمشبه غؤور العينين التي سال ما فيهما من الدموع على الخدين ، ولم يبق فيهما من الدمع إلا القليل ، والمشبه به بئر قديمة عاديَّة كأنها نُسِبَت إلى عادٍ(١) ، قد قلَّ ماؤها ، وتجمع في وسطها(٢) " كأنَّها قُلُبٌ عاديَّةٌ مُكُل ". ووجه الشبه الصورة الحاصلة من سوء المنظر والقدم والقلة .

والصورة مركبة ، والشاعر يصف عينيها بعد أن أجهدها طول المسير ، والإعياء ، وبعد الشقة ، حيث ورد البيتان في سياق وصف الرحلة .

والربط بين عيون الإبل والآبار التي قلَّ ماؤها شائع عند الشعراء، ومن ذلك قول ذي الرُّمة(٣) :

على حِمْيَريّاتٍ كأن عيونَها ... ذِمامُ الرَّكايا أنكزَتْها المواتِحُ

كما جاء تشبيه دموعها بقطرات ماء تساقط من القربة صوّر ذلك في قوله(٤):

---

(١) اللسان ١٥/٤٢ .

(٢) المرجع السابق ١١/٦٢٨ .

(٣) حِمْيَريّات : إبل منسوبة إلى حمير ، وحمير : قبيلة من اليمن .
والذمام : قليلات الماء . أنكزتها ، يقال : نكزت الركيّة ، إذا قل ماؤها .
والماتح : الذي يستقي من البئر .
يُنظر : ديوان ذي الرُّمة ١٤٣ .

(٤) ديوان القطامي ٧٤ .

نَوارِفُ عَيْنَيْهـا مِـنَ الحَفْلِ بالضُّـحَى

سُـجُومُ كَتَنْضـاحِ الشِـنانِ المُسَرَّبِ(١)

وأُخْرَى عَلَى عُسْنٍ بَنَى الصَّيْـفُ نَيَّها

عُـرورٌ بها لَوْلا الغِنَى لَـمْ تُحَلَّـبِ(٢)

الصورة حسية ، جمع فيها الشاعر بين أمرين ؛ فاجتماع اللبن في ضرع الناقة(٣) " الحفل " مما تضيق به فتسح عيناها بالدموع ، فهي نوارف من شدة الألم الناتج عن امتلاء الضرع باللبن ، يقابل ذلك الماء الذي غلب القربة المصنوعة من الجلد ، ونفذ منها بعد أن ظهرت بها ثقوب " كتنضاح الشِنانِ المُسَرَّب " .

فقد جعل الشاعر سيلان دموع الناقة وتساقطه يشبه تساقط الماء من القربة ، ووجه الشبه هو : الهيئة الحاصلة من تساقط شيء بكثرة لعدم القدرة على إبقائه " .

وجمع الكثرة في " نَوارِفْ " مما نقل المعنى المراد .

---

(١) سُجُومُ : هو قطران الدمع ، وسَيَلانه ، اللسان ١٢/ ٢٨٠ .
وتَنْضَاخ : النَّضْخُ : الرَّشُّ ، اللسان ٢/٦١٨ .
الشِنان : الشَّنُّ : القربة الخَلَق الصغيره جمعه شِنان ، اللسان ١٣/٢٤١ .

(٢) عُسْن : أثرٌ يبقى من شحم الناقة ولحمها ، اللسان ١٣/٢٨٥.

(٣) اللسان ١١/١٥٧.

وقوله " بالضُّحَى " أفاد أن ذلك كان منها بعد أن طال الوقت بها فلم تحلب ، وزمن الحلب هو الصباح قبل الشروق أو بعده بقليل .

وقدعبَّر القطامي عن ضيق الضرع بلبنه في صورة تشبيهية بارعة .

كما عطف في البيت الثاني يصف خفة أسنمتها وشحمها ، وأنها صارت عرًّاء خفيفة بسبب إضرار الحفل بها، وكثرة اللبن ؛ فألبانها تقطر من نفسها دون حاجة إلى حلب . حيث استغنوا عن حلبها لولا حالها ، وهي كناية عن كثرة لبنها إلى حد الألم والتوجع .

ولُغام الناقة يشبهه القطامي بنديف القطن ، في قوله(٢) :

وَنَحْـــنُ عَلَى قَلائِــصَ يَعْمَلاتٍ أَضَرَّ بهــا التَّرحُّلُ والسِّفار(٣)

كَأَنَّ لُغــامَهُـنَّ سَبِيـــخُ قُطْنٍ علــى المَعْـزاءِ تَنْدِفُهُ الوِتــارُ(٤)

الشـاعر يـصف تعـب القـلائـص ، وشـدة إعـيـائهـا ، وقـسـوة الأرض والرحــلـة " أَضَرَّ بهــا التَّرحُّلُ والسِّفـار " ، فلغام القلائص يشبه قطع القطن ، وقوله : " على المَعْزاءِ تَنْدِفُهُ الوِتارُ " تقييد للمشبه به .

---

(١) العَرَر : صِغَرُ السنام ، اللسان ٥٥٨/٤ .

(٢) ديوان القطامي ٨٢ .

(٣) قَلائصَ : القلوصُ : الناقة الطويلة القوائم ، اللسان ٨١/٧ .

(٤) لُغامَهُنَّ : اللُّغامُ : زَبَدُ أفواه الإبل ، اللسان ٥٤٥/١٢ .

سَبِيخُ قطن : هي القطن المنفوش المَنْدُوفُ ، اللسان ٢٣/٣ .

المَعْزاءِ : الأرض الحزنَة الغليظةُ ذاتُ الحجارة ، اللسان ٤١١/٥ .

وقد ذكر الخطيب القزويني مثالاً مشابهاً لهذا بعد أن أوضح بأن التشبيه ينقسم باعتبار طرفيه إلى أربعة أقسام ومنها أن يكون الطرفان مختلفين .

" والمقيد هو المشبه به كقوله :

* والشمس كالمِرْآةِ في كَفِّ الأشَلّ *

فإن المشبَّه : هو الشمسُ على الإطلاق ، والمشبه به : هو المرآة لا على الإطلاق بل بقيد كونها في يد الأشل أو على عكس ذلك ، كتشبيه المرآة في كفِّ الأشل بالشمس "(١) .

والقطامي في قوله " على المَعْزاءِ تَنْدِفُهُ الوِتارُ " أرانا هذا اللغام الذي خف وتضاءل ، وأضحى كالعهن المنفوش تعبث به الوتار، فيتطاير في الهواء الرحب لا سيما وهو على أرض صُلبة غليظة لا تنشفه أبداً فهو ظاهر واضح ، كما أن لونه الأبيض لم يتغير ؛ لأنه بعُد عما يحيل لونه .

وقد أبرز الشاعر عنصر الحركة في صورة المشبه به ؛ ذلك أن دلالة الفعل في " تَنْدِفُهُ الوِتارُ " تعني تجدد الحركة ودوامها .

والصورة لها ما يقابلها لدى الفرزدق ، فقد شبه ما ألبس على خطام الناقة من زبد بنديف القطن ، في قوله(٢) :

كأن نديفَ القطن أُلْبس خَطْمُها ... به نَدْفُ أَوْتَارِ القِسيِّ النَّوادِفُ

---

(١) يُنظر : الإيضاح ، للقزويني ٣٦٦ ، ٣٦٧ .

(٢) ديوان الفرزدق ٢/ ٩ .

وإن كان تجمع الزَّبد في بيت الفرزدق يختلف عنه لدى القطامي ، ثم إنَّ صورة الفرزدق رسمت صوتاً لهذا النديف ، فنشره جاء يشبه صوت أوتار القسيِّ تذروه كما تُذرى قطع القطن بمندفة ذات أوتار .

وأعناق النوق سامقة تشبه النخل الذي اعتلاه جريد لم يُشذّب ، في قوله(١) :

طِوالَ الذُّرَى أعْناقُها مَشْمَخِرّةٌ كَنَخْلِ القُرَى عَيْدانُها لَمّ يُشَذَّبِ (٢)

يصوّر الشاعر ارتفاع أسنمتها ، وطول أعناقها ، ولفظة " مُشْمَخِرّة " تشير إلى معنى العلو ، فجرس الكلمة يدل على معناها ، وهي مُعبِّرة ، كما أن في بقاء العيدان على النخل مما يدل على طولها وضخامتها " عَيْدانُها لَمّ يُشَذَّبِ " ، فهي على حالها لم تهذب، ولم تشذب .

والشاعر يستبعد ما يقدح في التشبيه ، وقد نظر البلاغيون إلى مثل هذا التشبيه الذي يخرج شيئاً من صورة المشبه به ، وسموه تفصيلاً ، وقد استجاده الإمام عبد القاهر الجرجاني في تعليقه على بيت امريء القيس الذي ساقه بهذا الخصوص :

جمعتُ رُدَيْنِياً كأنَّ سِنَانَه سنا لهبٍ لم يتّصِلْ بدُخَانِ

حيث ذكر معقباً " ومعلوم أن هذا التفصيل لا يقع في الوهم في أول وهلة بل لا بد من أن تتثبت ، وتتوقّف وتروّى ، وتنظر في حال كل واحد من الفرع والأصل حتى يقوم حينئذ في نفسك أن في الأصل شيئاً يقدح في حقيقة

---

(١) ديوان القطامي ٧٤ .

(٢) يُشذّب : الشّذْبُ : القطع من الشجر ، اللسان ٤٨٦/١ .

الشبه وهو الدخان الذي يعلو رأس الشعلة ، وأنه ليس في رأس السنان ما يشبه ذلك ، وأنه إذا كان كذلك كان التحقيق ، وما يؤدي الشيء كما هو أن تستثنى الدخان ، وتنفى ، وتقصير التشبيه على مجرَّد السنا ، وتصوّر السنان فيه مقطوعاً عن الدخان"(١) .

وللناقة عنق طويل تتجاوز به من فوق الإبل ، ويوصلها إلى الحوض لتشرب ، صوَّر ذلك في قوله (٢) :

رَشُوفُ وَرَاءَ الخورِ لـو تَنْدَرِيء لَها صَباً وشَمالُ حَرْجَفُ لم تَقَلَّبِ(٣)

تَلُوذُ الحَواشـي لَيْلَـةَ القُرِّ تَحْـتَهـا لُزُوقَ القَطَا بالنِيّقِ مِنْ رَأسِ غُرَّبِ(٣)

فالإبل ترشف الماء متجاوزة بعنقها من فوق الإبل ، وتلقي بمشافرها في الحوض لتشرب .

وهي قوية ، والشاعر يبالغ في وصفها بالقوة ، وعدم تأثير أشد الرياح برودة عليها " لـو تَنْدَرِيء لَها صَباً وشَمالُ حَرْجَفُ لم تَقَلَّب " ، فلا تقدر هذه الرياح على ردها أو تحريكها ، كما أن صغارها " حواشيها " تلوذ بها ليلة القر تستدفيء بها تشبه " لُزُوقَ القَطَا بالنِيّقِ مِنْ رَأسِ غُرَّب" ،

---

(١) أسرار البلاغة ، ١٥٠ .

(٢) ديوان القطامي ٧٥.

(٣) الخُور : ناقة خَوَّارة : غزيرة اللبن ، اللسان ٢٦٢/٤ .
حَرْجَف : ريح باردة ، اللسان ٤٥/٩ .

(٤) الحَواشي : صغارها ، اللسان ١٨٠/١٤.
النِيّق : أرفع موضع في الجبل ، اللسان ٣٦٤/١٠ .

والتقدير:تلوذ الحواشي بها ليلةالبرد لوذاً كلزوق القطا بالنيق من رأس غارب.

وهو تشبيه ضمني ، ووجه الشبه هو الهيئة الحاصلة من استتار والتجاء أشياء صغيرة بشيء كبير طلباً للحماية .

والقطا طائر معروف واحده قطاة ، وسميت القطا بحكاية صوتها ، فإنها تقول ذلك ، ولذلك تصفها العرب بالصدق(١) .

والصورة تشبيهية مركبة ، صوّرت قوة احتمال الإبل وجلدها ، وكونها ملاذاً لغيرها ، ثم إنَّ القطا لشدة بردها لازقة تحتمي بالنيّق ، فالتقاط الشاعر لتلك الخطرات الموحية ، والملاءمة بين طرفي التشبيه مما أبرز المعنى ، وجعله جلياً ، وهي عناصر مستوحاة من البيئة المحيطة به ! .

ومن تشبيهات الناقة في شعرالقطامي تشبيه عرقها ببصاق الجنادب ، في قوله(٢) :

فَلَمَّا بَدَا حِرْمانُها الضَّيْفَ لَمْ يَكُنْ عَلَيَّ مُناخُ السُّوءِ ضَرْبَةَ لازِبِ
وَقُمْتُ إِلى مَهْرِيَّةٍ قَدْ تَعَوَّدَتْ يَداها وَرِجْلاها خَبِيبَ الْمَواكِبِ
تُفَرِّي قَميصَ اللَّيلِ عَنْها وَتَنْتَحي كَأَنَّ بِذِفْراها بُصاقَ الْجَنادِبِ(٣)
تَرَى كُلَّ مِيلٍ جاوَزَتْهُ غَنِيمَةً سُحَيْراً وَقَدْ صارَ الْقُمَيْرُ بِحاجِبِ

فهي ناقة قوية صُلْبة ، تعودت طول المسير حتى إنها تطوي المسافات إلى أن ينجاب عنها ظلام الليل ، وقوله " تُفَرِّي قَميصَ اللَّيلِ " أسلوب استعارة ؛ فالليل له قميص ، وهي تمشي فيه فكأنها تمزقه وتبدده ، وهي استعارة تصريحية أصلية .

---

(١) " حياة الحيوان الكبرى " للدميري ٢/٢١٣، ٢١٤.
(٢) ديوان القطامي ٥٣ .
(٣) تُفرّي : تشقق ، اللسان ١٥/١٥٣ .
وتَنْتَحي : انْتَحى في الشيء : جَدَّ ، والانْتِحاءُ اعتمادُ الإبل في سيرهاعلى الجانب الأيسر ، اللسان ١٥/٣١١ .
بِذِفْراها : الذِّفري : هو العظم الشاخص خلف الأذن ، اللسان ٤/٣٠٧ .
الجَنَادِب : جمع جُنْدب : وهو ضرب من الجراد ، اللسان ١/٢٥٧ .

والشاعر يصف ناقة تحاول أن تشق ظلمة الليل ، فتجدُّ في سيرها ، وقد تصبب عرقها خلف أذنيها، لتعاود الكرَّة في جرأة وإقبال ، فرائحة عرق ذفريها تشبه رائحة بصاق الجنادب ، وهذه الرائحة الكريهة المنبعثة من ذفريها الشبيهة ببصاق الجنادب لها دور كبير في شدة عدوها ، وهو تشبيه عجيب يفيد المبالغة ، فليس الذي في ذفريها عرق كريه يشبه رائحة بصاق الجنادب بل هو بصاق الجنادب نفسه ، والتشبيه يخدم الغرض العام للشاعر ، حيث يصف مكابدة ناقته ، وما تعانيه من طول المسير .

وهذا التقابل بين فعلين صدرا عنها في آنٍ معاً وهما : " تُفرِّي " ، و "تَنْتَحي" ، وما فيهما من مغالبة تثير العجب والاستغراب ، قد كشف عن قوة احتمال تلك الناقة .

والشاعر يصوّر إحساسه بناقته ، ومن ذلك قوله " تَرَى كُلَّ مِيلٍ جاوَزَتْهُ غَنِيمَةً " إذ أن مجرد قطعها الأرض ابتعاداً يعدُّ غنيمة ، وهو وصف لما تردد بين جوانحها ، وقد أحست بالانعتاق ، فرأت في كل ميل قطعته فوزاً لها ومنجاة بعد أن أخذ القمر يؤذن بالمغيب " وَقَدْ صارَ الْقُمَيْرُ بِحاجِبِ " .

كما يشبه جريان النسع بجريان الوشاح ، في قوله(١) :

طَواها السُرَى فالنِسْعُ يَجْرِي كَأَنَّهُ وشاحُ فتاةٍ دَقَّ عَنْهُ مَخَاصِرُهُ(٢)

---

(١) ديوان القطامي ٢٢.

(٢) النِسْعُ : سَيْرٌ يُضْفَرُ على هيئة أعِنَّةِ النِّعالِ تُشَدُّ به الرِّحالُ ، والقِطْعة منه نِسْعة ، اللسان ٨/٣٥٢ .

تَزَيَّدُ في فَضْلِ الزِمــامِ بِصَدْرِهـا   إذا اليَوْمُ عاذَتْ بالظِلالِ يَعافِرُه(١)

الصورة تصف ناقة أضمرها السير ، وأتعبها حتى إن النسع اتسع ، والشاعر يشبه جريان النسع بتلك الناقة ، التي طواها السُرَى بجريان الوشاح بتلك الفتاة التي قد ضمر خصرها ، فأصبح الوشاح قلقاً على خصرها .

وجملة " دقَّ عنه مخاصره " تأكيد للتشبيه .

وصورة القطامي تشبه قول قيس بن الخطيم في ضمر الناقة(٢) :

وقد ضَمَرَتْ حتَّى كأنَّ وَضينَها   وِشَاح عَروُسٍ جالَ مِنْها على خَصْرِ(٣)

وجملة " جالَ مِنْها على خَصْرِ " غير معبَّرة ، وأدق منها وأبلغ قول القطامي " دقَّ عنه مخاصره " ، ثم إنه أضاف لطيفة حين قال " طواها السرى " ، وهي جملة واقعة موقعها ، وهي أنسب وأفضل من " ضمرت " .

---

(١) تَزَيَّدُ : تَزَيَّدتْ الإبل في سيرها : تكلفت فوق طاقتها ، اللسان ٣/١٩٩.
يَعَافِرُه : اليعفور : ولد البقرة الوحشية ، وقيل : تيس الظباء ، اللسان ٤/٥٨٥ .

(٢) ديوان قيس بن الخطيم ١٦٧ .

(٣) وضينها : الوضين : بِطانٌ منسوجٌ بعضه على بعض يُشدُّ به الرَّحْلُ على البعير ، اللسان ١٣/٤٥٠ .

ومن الأوصاف الجسمية في تشبيهات الناقة لدى القطامي ما قيل في ضخامتها واكتنازها ، في قوله(١) :

وقلنا مَهِّلُوا لِتُنَيِّئَها لكي تزداد للسفر اضطلاعا
فَلَمَّا أنْ جرى سِمَنٌ عَلَيْها كما بَطَّنْتَ بِالْفَدَنِ السَياعا(٢)
أَمَرْتُ بِها الرِجالَ لِيأْخُذُوها وَنَحْنُ نَظُنُّ أَنْ لَنْ تُسْتَطاعا
إذا التَيَّازُ ذو العَضَلاتِ قُلْنا إِلَيْكَ إِلَيْكَ ضاقَ بِها ذِراعا(٣)
فَلأْياً بعد لأيٍ وَجَّهُوها عَلَى ما كانَ إِذْ طَرَحُوا الرِقاعا(٤)
فماانْفَلَتَتْ مِنَ الرُوَّاضِ حَتَّى أَعارَتْهُ الأَخادِعَ والنِخاعا(٥)

يشبه الشاعر الناقة وقد صارت ملساء من السمن بالقصر المطين بالسياع ، وهو تشبيه مفرد .

ويصف شدّتها وقوتها ، فقد استعصى على الرجال أن يسوقوها إلى أن برز لها رجل ضخم ، إلا أنَّه لم يقو عليها ، ولا على ترويضها لشدتها " ضاق بها ذِراعا " .

وقوله " إليكَ إليكَ " طلب يدل على صعوبة الإمساك بها ، فهي ناقة سمنت وصارت قوية فتية لا يُستطاع ركوبها .

---

(١) ديوان القطامي ٤٤.
(٢) الْفَدَن : القصر المشيد ، اللسان ٣٢١/١٣.
السيَاعا : الطين ، اللسان ١٧٠/١٨ .
(٣) التَيَّاز : القصير الغليظ المُلَزّزُ الخَلْق الشديد العَضَل ، اللسان ٣١٥/٥.
(٤) رواية ط. بيروت ، ص ٤١ : " أدْرَكُوها " .
فَلأْياً بعد لأيٍ : اللأيُ المشقة والجهد ، اللسان ٢٣٧/١٥.
(٥) رواية ط. بيروت ص ٤١ : " انْقَلَبتْ " .
الأَخادِع : الأخدعان : عرقان في جانبي العُنق قد خفيا وبطنا. اللسان ٦٦/٨.
النِخاع : خيط أبيض يكون داخل عظم الرقبة ويكون ممتداً إلى الصلب ، اللسان ٣٤٨/٨ .

وعبارة " فَلأْياً بعـد لأْيٍ أدركوها " ، وما تحويه من لأي متكرر ، فمن شدة بعد شدة حتى تمكنوا من إمساكها بعد أن تجردوا لها من رقاعهم ، وملابسهم ، وقوله " أعارَتْهُ الأَخادِعَ والنِخاعا " كناية عن استسلامها للرواض بعد جهد .

وفي موضع آخر يصف القطامي ضخامة الجمل الذي ألقت الناقة ذنبها عليه بقوله(١) :

مِنْ كُلِّ بَهْكنةٍ أَلْقَتْ إشالَتها على هِبلٍّ كَـرُكْنِ الطَوْدِ مُنْقـادِ(٢)

وكُلُّ ذلك منها كلَّما رَفَعَـتْ منها المُكَرِّي ومنها اللِيِّنُ السادِي(٣)

فالشاعر يرسم صورة لقوة الإبل ، وعظم خلقتها ، تتبع جملاً ضخماً كركن الطود الشامخ .

فقد شبه الجمل بالجانب الأقوى من الجبل في القوة والصلابة " على هِبلٍّ كَـرُكْنِ الطَوْدِ مُنْقـادِ " .

والتعبير بلفظ " وكُلُّ ذلك منها " استرسال جميل ، وقوله " منها " فيها لطف وبراعة من الشاعر ، ثم إنَّ هذه القوة دائمة في تلك الإبل على جميع أحوالها " كلَّما رَفَعَـتْ منها المُكَرِّي ومنها اللِيِّنُ السادِي " .

كما جاء وصف ضخامة الناقة في قصيدته الرائية التي مطلعها (٤) :

مَنْ يَكُ أَرعاهُ الْحِمَى أَخَواتُهُ فَما لِيَ مِنْ أُخْتٍ عَوانٍ ولا بِكْرِ

إلى أن يقول :

---

(١) ديوان القطامي ٩ .

(٢) بَهْكَنة : تارّة غضّة ذات شَباب ، اللسان ٦٠/١٣ .

هبلٌّ : الهِبلُّ : الضَّخْم المُسِنُّ من الإبل ، اللسان ٦٨٧/١١ .

(٣) المُكَرِّي : السَّيرُ اللَّيِّنُ البَطيء ، اللسان ٢٢٢/١٥.

السادي : الذي فيه اتساعُ خطوٍ مع لينٍ ، اللسان ٣٧٥/١٤.

(٤) ديوان القطامي ٦٤ ، ٦٥ .

تُناصي ضَريبَ الحَمْضِ ليْلَـةَ غِبِّهـا

نِضـاءَ بَنِـي سَـعْدٍ عَلَى سَمَـلِ الغُدْرِ(١)

إذا احتَطَبَتْـهُ نِيبُهـا قَذَفَتْ بِـهِ بَلاعِيـمُ أكْراشٍ كَأَوْعِيَةِ الْغَــفْرِ(٢)

جِفارٌ إذا صافَـتْ هِضـابٌ إذا شَتَتْ

وبِالصَّيْفِ يَعْطِفْنَ الْمِياهَ على الْعِشْرِ(٣)

فالناقة تجذب الحمض إليها وتقبض عليه لأجل الجوع الذي بها ، وهو لملوحته ومرارته كأنَّه ينقبض عنها ويبتعد ، فالقبض والجذب متحقق من الناقة ، ومتخيل في الحمض فهي تتجاذبه وهو يتجاذبها .

كما يشبه أكراشها بأوعية الغفر .

ويصوِّر ضخامة وعظم هذه الإبل ، التي تشبه الآبار في زمن الصيف من كثرة ألبانها ، وتشبه الهضاب شتاءً ، ورغم كونها تشرب كل عشرة أيام إلا أنها ترد الشرب وفي جوفها ماء ، وهذا دليل آخر على ضخامتها ، واتساع أجوافها حتى إن مخزونها من الماء لكثرته يكفيها أياماً

---

(١) تُناصِي : ناصيَتُهُ إذا جانبته ، اللسان ١٥/٣٢٧ .
ضَريب الحَمْض : رَديئَهُ وما أُكِلَ خَيْرُه وبقي شرُّه وأصولُه ،اللسان ١/٥٤٦.

(٢) احْتَطَبَتْه : رعت دقَّ الحَطَب ، اللسان ١/٣٢٢.
نِيبُها : النَّابُ : المُسِنَّةُ من النوق ، والجمع النيَّب ، اللسان ١/٧٧٧.
الغَفْر : غَفَرَ المتاعَ في الوعاء : أدخله وستره وأوعاه ، اللسان ٥/٢٥.

(٣) جِفارٌ : الجَفْرُ : البئر الواسعة ، اللسان ٤/١٤٢.
رواية ط . بيروت ص ١٥٤ : " جِبَالٌ " ، " في القَيْظِ "
الْعَشْر : ورد الإبل اليوم العاشر ، اللسان ٤/٥٧١ .

(٤) اللسان ١١/٣٤٦ .

كثيرة " وبِالصَّيْفِ يَعْطِفْنَ الْمِيـاهَ على الْعِشْر " ، فـهي لا تسـتنفـد الماء الذي تشربه .

كمـا أن في البيت تقسـيمـاً رائعاً " جِفارٌ إذا صـافَـتْ هِضَـابٌ إذا شَتَـتْ " .

وللناقة ركب قوية ، وصدر يتسم بالاتساع والشدة ، في قوله(١):

بَرَكَتْ عَلَى رُكَبٍ تُهَدُّ بِهـا الصَفـا وعَلَى كلاكِلَ كَالنقيلِ المُطْرَقِ(٢)

فـهذه القـوة التي في ركب الإبل " تـهدُّ بها الصَفا " ، أمـا صدرها فإنه ضـخـم عريـض ، والقطامي يلتقط له صورة النقيل المطرق ، وهي النعال المخصوفة ، التي تراكب بعضـها على بعـض(٣) " فـهي مُضـاعـفة ، والصورة أميل إلى حياة البادية ؛ لأن أرض الصحراء وعرة ، صعبة المسالك مما يلزم معها خصف النعل ، ثم إنَّ البدوي ألف منظر الحيوان ، فهو أمامه أنّى اتجه ، وهو الأداة التي يستعين بها في تنقلاته .

وتشبيه صدر الناقة بالنقيل المطرق تشبيه حسي وإن كان لا يخلو من غرابة .

---

(١) ديوان القطامي ٣٣.

(٢) كلاكِل : الكلكل : الصدر من كل شيء ، اللسان ٥٩٦/١١ .

(٣) اللسان ٢١٩/١٠ .

ومن خلال تتبع تشبيهات الناقة في شعر القطامي لاحظت بأنها تعتمد على الحسية في الغالب ، إلى جانب مجيء بعض صوره مصحوبة بنقل أحاسيس وخطرات خالجت الناقة ووصف القطامي لها ، كما أن تشبيهاته منتزعة من قلب البيئة كعادة معظم الشعراء في وصفهم للناقة حيث " كان الميدان الفنّي ميداناً عربياً خالصاً، فالشعراء من العرب هم الذين كانت لهم السيطرة السياسية والاجتماعية واللغوية على المجتمع الإسلامي ، والأسلوب العربي السليم كان يستمد مثُله الفنيَّة من الأسلوب البدوي القديم تارة ، ومن الأسلوب الإسلامي الجديد تارة أخرى ، ولكنه في كلتا الحالين بعيد عن التأثر بالحياة اللغوية المحلية ، وبعيد عن التأثر بالعربية المولدة التي لم تكن قد أخذت في الظهور"(١).

ومن منازع صور القطامي تلك : القليب العاديَّة ، الشنِان ، النخل الذي اعتلاه جريد لم يُشذَّب ، نديف القطن ، بصاق الجنادب ، النقيل المطرق ، البئر ، ... وما إلى ذلك مما استعان به في تكوين صوره .

كما أن الناقة في سمنها تشبه بالطين يطلى به القصر ، وهي في اكتنازها كالآبار تارة ، وكالهضاب تارة أخرى ، ولها ركب قوية صلُبة تهدُّ بها الصَفا .

---

(١) " الشعر والحياة اللغوية في القرنين الأول والثاني للهجرة " ، للدكتور : يوسف خليف ٣٧ .

وكما اهتم القطامي بالصور المشاهدة اهتم بالمسموعات ، فوصف أصوات النوق بقوله(١) :

وباتت لقاحي بالْقَرِيّ كَأَنَّمــا تعاوَرَ دُفّاً منْ عوانٍ ومنْ بِكْرِ(٢)
ورَدْنَ مُدلاّتٍ وأُصْدِرْنَ ذُبَّلاً وقد لاحتِ الْجَوْزاءُ في مَطْلَعِ الْفَجْرِ(٣)

فهي نوق اشتد صياحها من شدة عطشها ، فعبر عن الجلبة بضرب الدُّف .

والقطامي له أذن حساسة قادرة على الجمع بين المتشابه ، فقد شبه صوت النوق بصوت الدُّف ؛ وذلك عند عطشها " تَعاوَرَ دُفّاً مِنْ عَوانٍ وَمِنْ بِكْرِ " ، والتَّعاورُ : شبه المُداوَلَة(٤) ، وقوله "لاحَتِ الْجَوْزاءُ في مَطْلَعِ الْفَجْرِ " كناية عن أشد أوقات الحر ، حيث ييبست من شدة العَطش .

وذكر الماء مناسب لجو القصيدة التي ابتدأها الشاعر بالتعبير عن الجواز وهو طلب السقيا ، ثم المرور بسرعة ، على خوف وحذر من عدم إجازته ، في قوله(٥) :

وَقالُوا فُقَيْمٌ قَيِّمُ الْمــاءِ فَاسْتَجِزْ عُبادةَ إنَّ الْمُستَجِيزَ علــى قُتْرِ

وهذا من باب تلاؤم الصور ، وتناسبها للعناصر الشعرية التي دخلت في تكوين القصيدة

والشــاعر في المطلع السابق ينقــل لـنا إحســاســه إزاء أمر حياتــي مألــوف ؛ لكــون المسـتجيز يظــل على قُتْر ، فهــو إما أن يُسـقى لــه ، وإمَّا أن لا يُسقى " إنَّ الْمُستَجِيزَ علــى قُتْرِ " .

ويصوِّر القطامي أصوات النوق وقت شربها ، في قوله(٦) :

وحَنَّتْ إلى ذي الْهَضْبِ حَتَّى كَأَنَّها حَنِيٌّ وما حامَتْ عَلَيْهِ لِمَشْرَبِ(٧)

---

(١) ديوان القطامي ٧٧ .

(٢) لقاحي : اللِّقاح : ذوات الألبان من النوق ، اللسان ٢/٥٨١ .
الْقَرِيّ : مجرى الماء إلى الأرض ، اللسان ١٥/١٧٥ .
العَوَان : النَّصَفُ في سِنِّها ، اللسان ١٣/٢٩٩ .
البِكْرُ : الناقة التي ولدت بطناً واحداً ، اللسان ٤/٧٩.

(٣) ذُبَّلاً : ذَبَل : جفَّ ويَبَس رِيقُه ، اللسان ١١/٢٥٥ .

(٤) اللسان ، ٤/٦١٨ .

(٥) ديوان القطامي ٧٦ .

(٦) ديوان القطامي ٧٣ .

(٧) حَنَّتْ : نَزَعَتْ إلى أَوْطانها وأولادها ، اللسان ١٣/١٢٩.
حَنِيٌّ : الحَنِيَّةُ : القوس ، والجمع حَنِيٌّ وحَنايا ، اللسان ١٤/٢٠٣.

فَلَمَّا رَأَتْ أَنَّ الخُطوبَ اضْطَرَرْنَهَا   إلى ذائدٍ عَمَّايَلِي الحَوْضَ مُرْهِبِ
سَمَتْ فَوْقَها أَعْنَاقُها فَتَجَـاوَبَتْ   تَجاوُبَ رَجَّافِ الضُحَى المُتَحلِّبِ

يصف الشاعر نوقاً تاقت إلى مكان ألفته فيه الماء بكثرة ، فيشبهها بالقوس المحنية في الضمور " وحَنَّتْ إلى ذي الْهَضْبِ حَتَّى كَأَنَّها حَنِيٌّ " .

وهي نوق لم تأت إلى ذي الهضب لتشرب" وما حامَتْ عَلَيْهِ لِمَشْرَبِ" ، وإنما جاءت إليه كي ترتاح ، وهو مكان له ذائد قوي " مُرْهِبِ " ، يمنع كل من يقترب منه " إلى ذائدٍ عَمَّايَلِي الحَوْضَ مُرْهِبِ " ، وما أروع هذا العطف بالفاء " فَلَمَّا رَأَتْ أَنَّ الخُطوبَ اضْطَرَرْنَهَا " .

فالمشبه أصوات نوق أشرأبت أعناقها تطلب الماء لما حيل بينها وبين الوصول إليه ، فكان أن اعتلت أعناقها فوق أنفسها ، وترددت أصواتها ، وتداخلت في جلبة عالية ، والمشبه به صوت الرعد الذي تتابع بشدة في الضحى فانهمر على إثر صوته ماءٌ ثجاجٌ " فَتَجَـاوَبَتْ تَجاوُبَ رَجَّافِ الضُحَى المُتَحلِّبِ "، والتضعيف في " رجّاف " يعني الكثرة والاضطراب .

والصورة وردت في سياق يناسبها ، وذلك في قوله(١) :

تَخاذَلَ جَفْرانا ولو قَدْ تعـاوَنا   رَوِينا ومن يَخْذُلْ عن الحَقِّ يُغْلَبِ(٢)
قبِيلانِ لم يُجْعَلْ سَواءً جِباهُما   لأهْلٍ ولا جـارٍ عَلَى حَـيِنِ مَرْغَبِ(٣)

---

(١) ديوان القطامي ٧٢ .
(٢) جَفْرانا : الجَفْرُ : البئر الواسعة ، اللسان ١٤٣/٤ .
(٣) جِباهما : الجبا ، بالكسر مقصور : الماء المجموع للإبل ، اللسان ١٢٩/١٤.

والمقطوعة تحكي تدابراً وقطيعة حدثت بين قبيلة الشاعر ، وقبيلة " قيس " ؛ حيث كانت كل جماعة منهما ترد قليب الآخر .

والتعبير بقوله " تَخاذَلَ جَفْرانا " دقيق ومصيب لخص سبب الهزيمة في التحارب والخذلان والفرقة ، والحيدة عن الحق ، وساق البرهان على ذلك " ومن يَخْذُلْ عن الحَقِّ يُغْلَب " ، في حين أن التعاون مدعاة لبلوغ المراد " ولو قَدْ تعاوَنا رَوِينا " ، وهو مطلع مؤثر استهل به الشاعر قصيدته .

كما يفخر بأن قومه أفضل معاشرة ، وأكثر حبا للجار من الآخرين " قبِيلانِ لم يُجْعَلْ سَواءً جِباهُما لأهْلٍ ولا جارٍ " ، ثم ينقل الحديث عن الإبل ، وتباريها لشدة عطشها على الماء .

وللإبل أصوات تشبه أصوات الصقار ، صوَّر ذلك بقوله(١) :

وَتَسْمَعُ مِنْ أسادِسِها صَرِيفاً كما صاحَتْ على الحَدَبِ الصِّقَارُ(٢)

فالإبل تعض على أسنانها ، وتضغط فكيها من الغيظ والإرهاق ، والمعاناة فيسمع اصطكاك أسادسها ، فالمشبه صريف أسادسها ؛ وهي أسنانها التي تلي أنيابها ، والمشبه به صياح الصقار على أعالي الأرض ، والتشبيه مفرد مقيد .

---

(١) ديوان القطامي ٨٢ .

(٢) صَرِيفاً : صوت الأنياب ، اللسان ١٩١/٩ .

السَّديس : السِّنُّ التي بعد الرَّباعيَة ، اللسان ١٠٤/٦ .

وقد أفرد القطامي في شعره صوراً عدة لوصف سرعة الناقة ؛ حيث شبهها بالسهام ، والنعامة ، والقطا ، والسمام ، والمصغيات إلى الحديث ، والطير ، وببقرة وحشية لها طفل انقضت عليه السباع ، كمانعت ناقته بالجنون...

يقول مشبهاً إياها بالسهام في انطلاقها القوي(١):

سَواهِمَ تَغْتَلي فِي كُلِّ فَــرْعٍ   كَمــا يُرْمَى لذِي الغَرَضِ القِتارُ(٢)

فالنوق تروح وتجيء في كل اتجاه ، وفي سرعة فائقة تشبه السهام المرسلة إلى أغراضها وغاياتها باندفاع " كَمــا يُرْمَى لذِي الغَرَضِ القِتارُ " .

وشبهها بالنعامة في قوله(٣) :

تُخوِّدُ تَخْويدَ النَّعامةِ بَعْدَمــا   تَصَوَّبَتِ الجَوْزاءُ قَصْدَ المَغارِبِ(٤)

فسير الناقة السريع يشبه سير النعامة ، والمشبه به جاء مصدراً مبيناً لنوع المشبه ، والتقدير " تخوِّد تخويداً كتخويد النعامة " .

قال الله تعالى (وتَرَى الجِبَالَ تَحْسَبُهَا جامِدَةً وهي تَمرُّ مَرَّ السَّحابِ صُنْعَ اللّـهِ الذي أتقنَ كُلَّ شيءٍ أنَّه خبيرٌ بما تفعلون)(٥) . التقدير : تمر مروراً كمرور السحاب .

وقول القطامي " تَصَوَّبَتِ الجَوْزاءُ قَصْدَ المَغارِبِ " يشير إلى أنها قضت وقتاً طويلاً في السير .

وفي موضع آخر شبه المطايا بالقطا ، وذلك حيث يقول(٦) :

وَشَدَّ المطايا بالرِحالِ كأنَّها   قَطـاً قَلَّ عَنْهُ المـاءُ صُفْرٌ مَنــاقِرُهْ

---

(١) ديوان القطامي ٨٢ .

(٢) تَغْتَلي : الاغتلاءُ : الإسراع ، اللسان ١٣٣/١٥.

فَرْع : فَرْعُ الطريق : أعلاه ومنقطعه ، اللسان ٢٤٧/٨.

القِتار : القِتْر ، نَصْل الأهداف ، اللسان ٧٣/٥.

(٣) ديوان القطامي ٥٣ .

(٤) تُخوِّدُ : التَّخْويدُ : سرعة السير ، اللسان ١٦٦/٣ .

(٥) النَّمل آية ٨٧ .

(٦) ديوان القطامي ٢١ ، ٢٢ .

تُعارضُ بَرَّاقَ المُتُونِ مُوَقَّعــاً   رَضيضَ الحَصَى لَيْسَتْ تَنامُ سَوافرُه(١)

شبه الشاعر المطايا بالقطا وذلك لفرط نشاطها ، ثم ذكر بأنه قد قلَّ عنه الماء ، والقطا معروف بسرعة طيرانه لخفته ، وحين يقلُّ عنه الماء يصير أسرع من ذي قبل ، كما أنه يسير بإزاء طريق داست حصاه الرواحل والأقدام ، فهو يسلكه ليدله على الماء .

وقوله " صُفْرُ مناقره " عبَّرت عن شدة هزال رحاله وعطشها وتعبها؛ لأن توضيح أوصاف المشبه به مما ينعكس على المشبه .

ثم إنَّه طير لا يخيفه أن يعارض طريقاً غير مأهول ، ولا يأمن أحدٌ النوم فيه " ليست تنام سوافره " .

وهي نوق تسابق القطا ، في قوله(٢):

فَباتَ يُبارِي النِّيبَ مِنْ بَكَراتِهــا   رَعِيلٌ كأَسْرابِ القَطَا المُتَسَرِّبِ

إِذا عارَضَتْ مِنْ عــالجٍ مُكْفَهِرَّةً   زَبُونَ الذُّرَى من ظَهْرِها المُتَقَبِّبِ(٣)

يشبه الشاعر الإبل في تباريها لشدة عطشها على الماء يتسرب بعضها على أثر بعض بأسراب القطا الباحثة عن الماء، كما أن لها ظهراً يشبه القبة في عظم حجمه.

كذلك يشبه النوق بالسمام ، في قوله(٤) :

فَظَلَّ يُباريها سَمَــامٌ كَأَنَّهــا   عَوالي عَرِيشٍ قد حَنَتْهُ أواسِرُه(٥)

---

(١) بَرَّاق المتون : يعني طريقاً يلوح بياضاً . موقعاً : موطوءاً قد رُضَّ حصاه من كثرة ما وُطيء ومُرَّ عليه . وسوافره : سُفَّارُه من سلكه من الناس. يُنظر : الديوان ط . ليدن ص ٢٢ .

(٢) ديوان القطامي ٧٣ .

(٣) عالِج : رِمال ، اللسان ٣٢٧/٢ .

(٤) ديوان القطامي ٢٢ .

(٥) سَمام : السُّمام ، بالفتح : ضَرْبٌ من الطير نحـــو السُّماني ، وهو دون القطا في الخِلْقَة ، اللسان ٣٠٥/١٢ .

الصورة تصف إبلاً نجيبة دخلت في منافسة مع السمام ، فقد استعار الشاعر السمام للإبل الأخرى التي تباري النوق ، وقوله "عَوالي عَرِيشٍ قد حَنَتْهُ أواسِرُه"، تشبيه ، حيث شبه هذه الإبل التي استعار لها السمام بعمد الهودج المحنية ، وذلك في الطول .

ومن تشبيهات السرعة تشبيه سرعة الناقة بسرعة الطير ، في قوله(١) :

تَمُرُّ كَمَرِّ الطَّيْرِ في كُلِّ غَمْرَةٍ وَيَكْتَحِلُ التَّالي بمُورٍ وحَاصِبِ(٢)

فمرور الناقة يشبهه القطامي بمرور الطير في السرعة والخفة ، والتشبيه مفرد ، ولأن السير في قفر وسرعة و " في كُلِّ غَمْرَةٍ " ، والغَمْرَةُ : الشدة(٣) ، فقد أثارتْ النوق الغبار خلفها حتى إنَّ التابع لها يكاد يكتحل بهذا الغبار والحاصب " وَيَكْتَحِلُ التَّالي بمُورٍ وحَاصِبِ " .

وللحداء تأثير واضح على النوق وصفه بقوله(٤) :

فإذا سَمِعْنَ هَماهِماً مِنْ رُفْقَةٍ وَمِنَ النُجُومِ غَوابرُ لم تَخْفِقِ(٥)
جَعَلَتْ تُمِيلُ خُدودَها آذانُها طَرَباً بِهِنَّ إلى حُداءِ السُوَّقِ
كالمُنْصِتاتِ إلى الحَديثِ سَمِعْنَهُ مِن رائعٍ لِقُلُوبِهِنَّ مُشَوِّقِ

يصوّر القطامي سير النوق في وقت كانت بعض النجوم فيه غابرة لم تخفق ، حتى إذا سمعت صوت همهمة أخذت تستحث الخُطى لا سيما وهي تصغي إلى حداء رقيق عذب " طَرَباً بِهِنَّ إلى حُداءِ السُوَّقِ " ، فهن يطربن له ، ويستمتعن به كالمنصتات لحديث من وقع في قلوبهن الافتتان به ، فهن ينصتن

---

(١) ديوان القطامي ٥٤ .
(٢) بمُور : المُورُ ، بالضم : الغُبار ، اللسان ١٨٧/٥ .
(٣) اللسان ٢٩/٥ .
(٤) ديوان القطامي ٣٣ .
(٥) هَماهِماً : الهَمْهَمة : الصوت الخفيُّ ، اللسان ٦٢٢/١٢.

بلذّة ، ويرهفن السمع بشَغَف ، مما انعكس على سيرها ، فأضحى فيه نشاط وخفة ، وقد أمالت أذانُها خدودها لشدة انصاتها ، وترقبها بآذانها للحادي " فالإبل تصرُّ آذانها إذا حدا في آثارها الحادي ، وتزداد نشاطاً ، وتزيد في مشيها"(١) .

ويشبه الشاعر حال هذه النوق بحال المنصتات إلى حديث شاقها ، وملأها بالوله والوجد ، ولأنه من إنسان مشوق ، فحديثه إلى قلوبهن نافذ ، وتأثيره عليهن واضح .

وفي المقطوعة السابقة نلمس التقاط تلك الرعشات الخفية التي خالجت الناقة ، وزادت من مرحها ونشاطها ، ورصد الشاعر لها في تتبع بديع .

وفي موضع آخر نرى القطامي يشبه ناقته بالبقرة الوحشية ، وذلك في السرعة حيث يقول(٢) :

كَأَنَّ نُسُوعَ رَحْلِي حِينَ ضَمَّتْ حَوالِبَ غُرَّزاً وَمِعاً جِياعا(٣)

---

(١) الحيوان ، ٤/١٩٣ .

(٢) ديوان القطامي ٤٥ .

(٣) رَحْلي : الرَّحْل الذي تُرْكب عليه الإبل وهو الكور ، اللسان ١١/٢٨٠.
غُرَّزاً : إبل غُرّز : قلَّ لبنها ، اللسان ٥/٣٨٦ .
مِعاً : المعىَ من أعْفاج البطن ، والجمع الأمعاءُ ، أقام الواحد مقام الجمع ، اللسان ١٥/٢٨٧ .

عَلَى وَحْشِيَّةٍ خَذَلَــــتْ خَلُوجٍ وكانَ لَهـا طَلاً طِفْلٌ فَضاعا(١)
فَكَرَّتْ عِنْـدَ فِيقَتِهـا إِلَيْــهِ فَأَلْفَتْ عِنْدَ مَرْبِضِهِ السِباعا(٢)
لَعِبْـنَ بِــهِ فَلَـمْ يَتْـرُكْنَ إِلاَّ إِهــابـاً قَــدْ تُمُزِّقَ أو كُراعا
فَسـافَتْهُ قليــلاً ثُـمَّ وَلَّــتْ لَهــا لَهَـبُ تُثيرُ بِهِ النِـقاعـا
أجَــدَّ بِهــا النَجاءُ فَأَصْحَبَتْها قَوائِمُ قَلَّ ما اشْتَكَتِ الظُلاعـا
كَــأَنَّ سَبِيــبَةً مِـــنْ سابِرِيٍّ أُعيرَتْهــا رِداءً أَوْ قِــناعا(٣)

الأبيات تصوّر قصة هذه الوحشية النافرة ، التي كان لها طلاً طفل فانقضت عليه السباع ، حتى تركته أشلاء ممزقة فهي هائجة .

وقوله " فَكَرَّتْ " تصوير دقيق للإقدام الشديد، والهجوم الشرس كأنها في حرب ، وذلك وقت اجتماع لبنها ، وإقبالها على ولدها تريد إرضاعه ، فإذا هي أمام منظر مهول ؛ فقد فوجئت بالسباع الضارية عند مربض ابنها ، وإذا بالسباع قد مزقته ولم تبق منه " إلاَّ إهــابــاً قَــدْ تُمُزِّقَ أو كُراعـا " ، فأصابها ما أصابها من حسرة وجنون ، فما كان منها إلا أن جعلت تشتم ما بقي من أشلائه رحمة وحزناً ...

ثم انقلبت تعدو فزعة تضرب الأرض بقوة لها لهب تثير به الغبار من

---

(١) خذلت : تخلفت عن صواحبها وانفردت ، اللسان ٢٠٢/١١ .
خلوج : اختُلِجَ ولدُها أي انتزع منها، اللسان ٢٥٧/٢ .

(٢) فيقتها : وقت اجتماع اللبن في ضرعها ، اللسان ٣٢١/١٠.

(٣) سَبِيبَة : الثوبُ الرقيق ، اللسان ٤٥٦/١ .

شدة حنقها وجنونها ، تحملها قوائم صُلبة ، وصف قدرتها على التحمل بقوله : " قَوائِمُ قَلَّ ما اشْتَكَتِ الظُلاعـا " ، وهي كناية عن كونها قوائم شديدة لم تخذلها في جريها . والظُلاع : داء يأخذ في قوائم الدّواب ، والإبل من غير سير ولا تعب فَتظْلَعُ منه(١) . أي يندر لمثلها أن تشكو ذلك الداء !

والأبيات تذكر صفات هذه " الوحشية " في صورة مركبة سريعة متداخلة متناسقة متكاملة في ترتيب هو غايةٌ في البلاغة ، وبراعة التصوير .

والشاعر يشير إلى أن نسوع رحله على تلك النياق التي وصفها بأنها حوالب غرَّز ، وأنها تضم معا جياعاً قد أصبحت واسعة تجري على بطون النياق كأنها على ناقة وحشية جرى نسعها على بطنها من شدة الضمور .

وفي قوله : "كَـأَنَّ سَبِيبَـةً مِـنْ سابِرِيٍّ " تشبيه بياض الوحشية بسبيبة الكتان .

وهذه الإطالة ، والتحليل والتفصيل في عناصر الصورة مما يثريها ، وينعكس على المشبه فيزيده بياناً ووضوحاً ، ذلك أن " من مسالك الشعراء أنهم يشبهون الشيء بالشيء ثم يأخذون في ذكر أوصاف وأحوال تحدد المشبه به تحديداً دقيقاً ، وكل حال وتصوير يذكر في هذه الصورة إنما يصف المشبه ، وينعكس عليه ، ويكشف حالاً من أحواله "(٢) .

---

(١) اللسان ٢٤٤/٨ .

(٢) التصوير البياني ، للدكتور / محمد محمد أبو موسي ٧٠ .

يقول القطامي من قصيدة مطلعها(١) :

حَلَّ الشَّقيقَ مِنَ لِعَقيقِ ظَعائِنُ فَنَزَلْنَ رامَةَ أَوْ حَلَلْنَ نَواهـــــا

إلى أن يقول مشبهاً ناقته في سرعتها بأتان مذعورة :

فَرَحَلْتُ يَعْمَلَةَ النَّجاءِ شِـــمِلَّةً تُرْضي الزَّميلَ إذا الزِّمامُ عَواها(٢)

تَلْوي بِأَسْحَمَ وارِدٍ حين اغْتَدَتْ تَنْفِـــي الذُّبابَ إِذا الذُّبابُ عَراها

شِبْهَ الأَتانِ تَوَجَّسَتْ فـــي قَفْرَةٍ يَهْمـــاءَ واخْتَلَسَ السِّباعُ طَلاهـا

فهي ناقة شملّة خفيفة في سيرها ، وسريعة ، وجملة " تُرْضي الزّميل " دلّت علـى إحسـاس الرديف بالرضا والانتشاء ، وهو أمام ناقة مروضة ذلول فعلى الرغم من كونها سريعة السير ، إلا أن استجابتها بالوقوف عند شد الزمام يدل على طاعتها وقوتها ، التي لا تنوء بحمل رديف لراكبها دون أن يجد منها التواءً أو صعوبة ، فهي سهلة الإذعان إذا ما عطف زمامها !

ويصف ذيلها بأنه أسود اللون " أسحم " ، تستعين به في طرد الذباب عنها ، وقوله " تَنْفِـــي الذُّبابَ إِذا الذُّبابُ عَراها " كناية عن دوام حركتها ونشاطها .

وإدراك القطامي لهذه الدقائق يكشف عن ارتباطه بناقته .

كما يشبه الشاعر هيجان واضطراب ناقته بآتان في صحراء موحشة يهماء وقع وليدها نهبة للضواري تنهشه بافتراسها له خلسة ، وهو تشبيه مركب .

والصورة تصف الشعور الداخلي لأتان مذعورة أصابها الفزع في تلك الصحراء المقفرة ، وقد فقدت وليدها .

---

(١) ديوان القطامي ٧٥ .

(٢) النَّجاءِ : السُّرعة ، اللسان ١٥/٣٠٦ .

الزَّميل : الرَّديف ، اللسان ١١/٣١٠ .

عواها : عَوَى الشيء : عَطَفَه ، اللسان ١٥/١٠٩ .

كما يصف القطامي النوق بالجنون ، في قوله(١) :

وَتَرَى لجَيْضَتِهِنَّ عِنْدَ رحِيلِنـــا وَهَلاً كَأَنَّ بِهِــنَّ جِنَّةَ أَوْلَقِ(٢)

يشبه الشاعر الفرق والفزع الذي أصاب النوق فجعلها تروغ في سيرها، وتحيد عن القصد ، فهي تميل عن الطريق مرَّة يميناً ، ومرَّة شمالاً كأنَّ بها مسٌّ من الجن ، وهذا دليل النشاط الذي تجاوز الحد ، كما انتزع الفزع فؤادها " وَهَلاً كَأَنَّ بِهِــنَّ جِنَّةَ أَوْلَق " ، وناهيك عن سرعة ناقة هذا حالها .

وكلمة " لجَيْضَتِهِنَّ " وعرة ، ولكنها عن شدة الصدود أبلغ ، لا سيما والتعبير بالوهل يعني الفزع ، والولق وهو الجنون .

ونعت الناقة بالجنون جاء في موضع آخر من شعر القطامي ، في قوله(٣):

يَتْبَعْنَ سامِيَةَ العَيْنَيْنِ تَحْسَبُهـــا مَجْنُونَةً أَوْ تَرَى ما لا تَرَى الإبِلُ

الصورة تصف مشهداً للنوق حين يسلم هذا القطيع من الإبل انقياده إلى ناقة " سامِيَةَ العَيْنَيْنِ " .

ولعل أوّل ما يلفت النظر نحو هذه الناقة أو السامية ، التي تشرئب

---

(١) ديوان القطامي ٣٣.

(٢) لجيضتهنَّ : الجَيْضَة : الرَّوَغانُ والعُدولُ عن القصد، اللسان ١٣٢/٣.

وَهَلاً : الوَهَل ، بالتحريك : الفزع ، اللسان ٧٣٧/١٢ ،

الوَلْق : العَدْو الذي كأنه ينزو من شدة السرعة ، وقيل : الخفة من النشاط كالجنون ، اللسان ٣٨٤/١٠ .

(٣) ديوان القطامي ٤ .

بعينيها، وتمعن في رفع محاجرها ، وتثبيتها على هذه الحالة ، فكل من يشهد ذلك يفزع من نشاطها ، وينسبه إلى الجنون ، ثم انظر إلى العطف الجميل " أَوْ تَرَى ما لا تَرَى الإِبِلُ " ، وما أضافه من قوة للمعنى أحالت الأمر إلى شيء خارق لا وجود له في الحقيقة ، ولا غرو فهي تلحظ بعينيها المحلقتين في البعيد ما لا تشهده الإبل السائرة خلفها مما منحها نشاطاً لا حدّ له .

والملاحظ أن أكثر أدوات التشبيه التي وردت في مبحث الناقة هي " كأَنَّ "و" الكاف " ، وقد استعملها الشاعر استعمالاً كمياً متقارباً ،كما جاءت أداة التشبيه " شبه " في موضع واحد ، إلى جانب مجيء التشبيه بغير أداة في موضعين من شعر الناقة .

ومن التشبيهات التي خلعها الشاعر على ناقته ، وذلك حين وصف الوسادة التي يضعها على ناقته ، وكأنها فوق ثور وحشي قد راح يرعى في أرض مقفرة ، صوّر ذلك في قوله(١) :

وَكَأَنَّ نُمْرُقَتِي فُوَيْقَ مُوَلَّعٍ ... يَرْعَى الدَّكادِكَ من جُنُوبِ قِطانا(٢)

بِعَوازِبِ القَفَراتِ بَيْنَ شَقِيقَةٍ ... وَكَثِيبِهَا يَتَنَظَّرُ الحَدَثَانا(٣)

---

(١) ديوان القطامي ١٦ .

(٢) نُمرقَتِي : النُّمْرقُ : الوسادة ، اللسان ٣٦١/١٠.

الدَّكادِك : موضع في بلاد بني أسد . يُنظر : معجم ما استعجم ، للبكري ٥٥٤/٢.

قِطان : أرض في ديار بني تغلب . يُنظر : المصدر السابق ١٠٨١/٢.

(٣) عوازب : عزبت الأرض إذا لم يكن بها أحدٌ ، اللسان ٥٩٨/١ .

شقيقة : قطعة غليظة بين كل جَبْلَي رمْل ، اللسان ١٨٤/١٠.

الحَدَثان : حدثان الدهر مصائبه ، اللسان ١٣٣/٢ .

لَهِـقٍ كَستَهُ مِـنَ المُحَرَّمِ لَيْلَـــةٌ هَتَنَتْ عليْهِ بِديمَـــةٍ هتَتانَا(١)
فَثَنَى أكارِعَـــهُ وبَاتَ تُحِمُّـــهُ رِهَـــمٌ تُسِيـلُ تلاعَهُ إمْعانَا(٢)
أرِقاً تُضاحِكُـــهُ البُروقُ بِراجِفٍ كَسَنا الحَـرِيقِ ولامِعٍ لَمَعانَا
فَغَدا صَبِيحَةَ صَوْبِهَا مُتَوجِّسـاً شَئِزَ القِيامِ يُقَضِّبُ الأغْصانَا(٣)
بِحَضِيـضِ رابِيَــةٍ يَهُزُّ مُذَلَّقاً صُلْباً يَكُونُ لَهُ الطِلالُ دِهانَا(٤)
فَتَرَى الحَبَابَ كَـأنَّمـا عَبِثَتْ بِـهِ ثَقَفِيَّتانِ تُنَظِّمـــانِ جُمـانَا(٥)
فَلَبَيْنَمـا هُـوَ غافِلٌ إذْ راعَـــهُ لَحِمُونَ سَرَّحَهُــمْ بَنُو نَبْهانَا(٦)
مَعَهُـــمْ ضَوارٍ مِنْ سَلُوقٍ كَأنَّها حُصُنٌ تَجـولُ تُجَرِّرُ الأرْسانَا
فَطَلَبْنَهُ شَأْواً تَخـــالُ غُبـــارَهُ وغُبارَهُنَّ إذا اجْتَهَدْنَ دُخانَا(٧)
وَهِـــلاً مَخافَتَهُنَّ ثُمَّـــتَ رَدَّهُ ذِكْرُ القِتالِ لِحِيْنِ آخَرَ حانَا(٨)

---

(١) لهق : أبيض ، اللسان ٣٣٢/١٠.

(٢) تُحِمُّهُ : أحمَّ نفسه إذا غسلها ، اللسان ١٥٤/١٢ .

(٣) شَئِزَ : قَلِق ، اللسان ٣٦١/٥ .

(٤) مُذَلَّقاً : حاداً ، اللسان ١٠٩/١٠ .

الطلال : الطَّلُّ : فوق الندى ودون المطر ، اللسان ٤٠٥/١١ .

(٥) الحَبَاب : الطَّلُّ على الشجر يُصْبِحُ عليه ، اللسان ٢٩٥/١ .

(٦) رواية ط . بيروت ص ٦٢ :

" يحمون أرسلهم بنو ذكوانا " ، إلا أن رواية ط . ليدن أنســب ؛ لأن سرّحهم فيها معنى الشدة والعنف والكثــرة ، ثم إنَّ السَّراح له وقت معلوم، وهو مع الحيوان أليق ، أما الإرسال فهي كلمة مطلقة .

(٧) شأْواً : شوْطاً ومدى ، اللسان ٤١٧/١٤.

(٨) وَهِلاً : الوَهَل : الفزع ، اللسان ١٢ ، ٧٣٧ .

فَسَــمَا وَقَــامَ يَذُودُهُنَّ بِمُرْهَفٍ　　صُلْبِ القَنَاةِ كَأَنَّ فيه سِنَانا(١)

حَرِجاً يَكُرُّ كُرُورَ صاحِــبِ نَجْدَةٍ　　خَزِيَ الحَرائِرَ أن يكونَ جَبانَا

وَيَكونُ حَدُّ سِــلاحِهِ لأَشَدِّهَــا　　قَرَمــاً وَأَكْثَرها لـه غِشْيــانَا(٢)

فإذا انْتَهَيْنَ مَضَى علــى غُلَوائِهِ　　وإذا لَحِقْنَ بَهَ أَصبْنَ طِعانَا(٣)

فَحَسَرْنَ غَيْرَ مُخَدِّشَـــاتِ أَديمِهِ　　ونَجَــا يَرُوحُ تَرَوُّحاً عَجْلانَا(٤)

في الأبيات السابقة نلحظ الاستطراد في وصف المشبه به ، فقد بُنيت صورته على قصة مترابطة الأجزاء تصف حال ثور الوحش ، وهو من التشبيه التمثيلي ؛ حيث صوَّر هيئة الثور فوصفه بأنه " مُوَلَّع " ، والتوليع إذا كان في الدابة ضُروبٌ من الألوان من غير بلق(٥) .

وقوله " يَرْعَى الدَكادِكَ من جُنوبِ قِطانا " ، و "يَرْعَى" بصيغة المضارع تعني تجدد رعيه مرَّة تلو مرَّة .

وجملة " يَتَنَظَّرُ الحَدَثانَا " رسمت ترقباً قلقاً لأحداث ستقع لذلك الثور اللهق بعد أن " كَسَتْهُ مِنَ المُحَرَّمِ لَيْلَةٌ " ، فالليلة ماطرة ، وهو مطر رهم . وقد استمر

---

(١) مُرْهَف : رقّت حواشيه ، اللسان ١٢٨/٩ .

(٢) قَرَماً : القَرَمُ : شدة الشهوة إلى اللحم ، اللسان ٤٧٣/١٢ .

(٣) غُلوائه : سرعته وأوّله ، اللسان ١٣٣/١٥ .

(٤) فَحَسَرْنَ : الحَسْرُ : الإعياءُ والتَّعبُ ، اللسان ١٨٨/٤ .
أديمه : الجلد ما كان ، اللسان ٩/١٢ .

(٥) اللسان ٤١١/٨ .

نـزول الماء حتـى اضطـره الحال إلـى الإنـزواء فـي مكان قريـب ، وأخـذ فـي ثنـي أكـارعـه حـيـث أرّقــه ، وأقــلقــه صــوت الـرعـد يلـمـع ويـرجـف بشـدة " أَرِقاً تُضاحِكُـهُ البُروقُ بِراجِفٍ " .

وهي صورة عجيبة سوف يأتي الحديث عنها في مبحث " الاستعارة في شعر الطبيعة " .

هذا حـال " الثور " في ليله ، أمـا نهاره فيخشى فيه غدرة ذلك الصائد، وترصده له " فَغَدا صَبِيحَةَ صَوْبِها مُتَوجِّســاً " .

والشاعر يصف أحوال الثور النفسية ؛ فهو متوجس قلق، و " شئز القيام " تصوير دقيق لما شمله من علامات الامتعاض والتوتر والتخبط ، ومع خوفه أخذ يتنقل ، ويقضب الأغصان ، ويسير في أسفل الرابية .

وجملة " يَهُزُّ مُذَلّقاً " فيها استحضار للمشهد، فكأننا نراه يهزُّ قرونه الصلبة بعد أن كساه الندى والطل " صَلْباً يَكُونُ لَهُ الطِلالُ دِهانَا " .

ويشـبـه الشــاعر حُبَابَ المطـر بحبـات جمـان نظمتـه ثَقَفِيتَّان ، وبينـمـا الثـور كذلـك لم يتنـبـه لما حـوله إذ به يرى صـائداً يقـود كـلاباً سـلوقية ، وهــي التـي ترجـع فـي أصلها إلى " سلوق " من بلاد اليمن(١) ، وقـد شـبـهها الشـاعر بالخـيل تجـرر أرسـانهـا تبخـتـراً وخـيـلاءً "كـأنهـا حُصُنٌ تَجـولُ تُجَرِّرُ الأَرْسـانا " ، وهــي كناية عـن قــوة الكلاب وضراوتهـا .

---

(١) الحيـوان ، ١٩٨/٢ . وقـد ورد البـيت برواية مختلفة عما جاء في ديوانه ، وهي :

معه ضَوَارٍ من سَلوقَ له طَوْراً تُعانِدُه وتنفعـه

كما يصف حال الثور وقد تسلل إليه الخوف إلا أنه عاد حين تذكر القتال ، لا سيما وأنه على أرض المعركة ، لذا أسرع في النهوض استعداداً للدفاع " فَسَمَا وَقَامَ يَذُودُهُنَّ بِمُرْهَفٍ " ، و " بمُرْهَفٍ " استغناءً بالصفة عن الموصوف .

وهذا العطف بالفاء " فسما " ، وما تفيده من ترتيب وتعقيب يتناسب مع الموقف ، فما أن تذكر القتال إلاّ وارتفعت همته وقام .

ثم إنَّ هناك شيئاً ردّه إلى القتال عبَّر عنه بقوله "لحيْنِ آخَرَ حانَا " ربما الشعور بالكبرياء، وخوفه أن يتهم بالجبن !

وقوله " حَرِجاً يَكُرُّ كُرورَ صاحِبِ نَجْدَةٍ " ، و " حَرِجاً " حملت معنى الضيق والغيظ الذي أصاب الثور ، وقد اتبعها بـ " يَكُرُّ " التي تفيد الاستمرار.

والصورة حوت تشبيهاً ؛ حيث شبه رجوع الثور نحو تلك الضواري بكرور صاحب نجدة خاف مغبة الخزي ، والمعايرة بالجبن " خَزِيَ الحَرائرَ أن يكونَ جبانَا " ، لذا فقد مضى مضاءً شديداً مثلما يفعل صاحب النجدة ، وهو الشجاع الذي لا يُقهر كما صوّرته العقلية العربية .

والشاعر يصوّر الأحداث التي ألمت بهذا الثور ، وكيف واجه قسوة وعرامة الطبيعة ، وكيف انتهى موقفه بهذه الحرب التي فرضتها عليه كلاب الصيد فأخذ يسدد طعناته صوبها ، وعمد إلى أشد الضواري ، وأكثرها هجوماً ؛ لأنه إذا بدأ بها أخاف الآخريات " وَيَكونُ حَدُّ سِلاحِهِ لأشَدِّهَا قَرِماً وأَكْثَرِها لَه غِشْيانَا " .

وقوله " مَضَى على غُلَوَائِهِ " عبَّرت عن جلده وقوته؛ بحيث كان في

الانتهاء كما كان في الابتداء ، فقد استمر الثور بين إقبال نحو كلاب الصيد، وبعد عنها حتى اضطرها للرجوع ، ونجا من افتراسها له ، ولم تستطع إصابته بمكروه " فَحَسَرْنَ غَيْرَ مُخدِّشاتِ أديمهِ " .

ولفظة " حَسَرْنَ " دلَّت على انطفائها جبانة مخذولة !

ثم يخلص الشاعر من وصف الثور بهذه الصورة ، وهذه الأحوال إلى ذكر شجاعة قبيلته ، وامتناعها أن تُحَلّ ، في قوله(١) :

وَنَحُلّ كُلَّ حِمًى نُخَبَّرُ أنَّه مُنِحَ البُروقَ ولا يُحَلُّ حِمانا

يقول الجاحظ :

" ومن عادة الشعراء إذا كان الشعرُ مَرثيَةً أو موعظةً أن تكون الكلاب التي تقتل بقرَ الوحش ، وإذا كان الشعر مديحاً ، وقال كأنّ ناقتي بقرة من صفتها كذا ، أن تكون الكلابُ هي المقتولة ، ليس على أنّ ذلك حكايةٌ عن قصة بعينها ، ولكن الثِّيرانَ ربما جرحت الكلاب وربما قتلتها ، وأما في أكثر ذلك فإنها تكون هي المصابة ، والكلاب هي السالمة والظافرة ، وصاحبها الغانم"(٢) .

وقد عقد الدكتور عبد القادر القط مقارنة بين صورة الثور عند القطامي ، وصورته عند ذي الرُّمة ذاكراً أن الجامع بين الصورتين وبين غيرها لدى بقية الشعراء هو الإحساس بأن " ما يجسم الشاعر فيه من

---

(١) ديوان القطامي ١٨ .
(٢) يُنظر : الحيوان ، ٢٠/٢ .

صفات وما ينسب إليه من مشاعر ، وما يرصد في حياته من لحظات أنه أمام رمز كبير يتجاوز الوجود الحيواني للثور وإن ظل مرتبطاً في صوره المادية بهذا الوجود"(١) .

والملاحظ في قصة ثور الوحش تتداخل تشبيهات عدة من صورة إلى أخرى ، وذلك في تركيب غني بالتسلسل والاستطراد ، كما تنوعت فيها أدوات التشبيه من حرف ، وفعل ، ثم إنَّ الشاعر راعى الصور المتحركة في تتبع الأحداث التي تلاحقت على الثور .

---

(١) يُنظر : في الشعر الإسلامي والأموي ، للدكتور : عبد القادر القط ٤١٢ .

رابعاً - الحيـوان والطير:

١ - الجمـل .

٢ - الخـيل " الـفـرس " .

٣ - الأسـد .

٤ - الـكـلاب .

٥ - الـطـيـر " الـمـكـاكـي " .

* * *

وصف القطامي الإبل ، والجمل ، والخيل ، والثور ، والبقرة الوحشية ، والأسد ، والكلاب ، وقد قلَّ كلامه في وصف الخيل ، أما الصور الأكثر تكراراً في شعره فهي صورة الناقة ، ولذا أُفردت بمبحث خاص ، فقد أولع بها ، وهو ولع شاركه فيه غيره من الشعراء ، لا سيما ووجود الناقة أمر حتمته ظروف البيئة ، ذلك أن البيئة التي عاش فيها القطامي تميل إلى البداوة ، لذا تعتبر صوره في الناقة موغلة في البادية .

أما ذكر الأطيار فإنه جاء في شعر القطامي عرضاً ، حيث اقتصر على التشبيه بها في السرعة ، واقترن ذكر بعضها بالأطلال ، والناقة .

١ - الجمل :

وصف القطامي الجمل في قصيدة ابتدأها بمناداة زُفَر الكلابي ، وسَبِّ شخص يقال له ابن النعامة(١) ، وذلك حيث يقول(٢) :

أَلاَ مَنْ مُبْلِغٌ زُفَرَ بْنَ عَمْرٍو وخَيْرُ الْقَوْلِ ما نَطَقَ الْحَكِيمُ
رَأَيْتُ ابْنَ النَّعامَةِ يَدَّرِينِي وَلَمْ يَكُ يَدَّرِي مِثْلِي الْحَلِيمُ
أَتَخْتِلُنِي وَتَحْسِبُنِي كَخِشْفٍ مِنَ الغِزْلانِ أَعْقَلَ ما يَرِيمُ (٣)
تَقَحَّمُ في الخَبارِ وَتَخْتَلِينِي وَضِغْثُ الْمُخْتَلِي كَلأٌ وَخِيمُ (٤)
لَعَلَّ الصَّيدَ سَوْفَ يَصِيرُ شَثْناً يُبَيِّنُ حِينَ يَنْهِمُ أَوْ يَقُومُ (٥)
هِزَبْراً يَرْهَبُ الأَقْرانُ مِنْهُ مِنَ اللاَّئي يَبِيتُ لَها نَئِيمُ (٦)
أَبَنَّ مَوارِدَ الغَمْرَيْنِ عَصْراً وَطَوْراً مِنْ مَساكِنِهِ القَصِيمُ(٧)

---

(١) النعامة رجل لم يُعلم اسمُه . يُنظر: الديوان ص ٥٤.

(٢) ديوان القطامي ٥٤ - ٥٦ .

(٣) خِشْف : الخِشْفُ : الظَّبْيُ بعد أن يكون جِدايةً . اللسان ٩/٧٠.
أَعْقَل : العَقَلُ : التواء في الرِّجْل . اللسان ١١/٤٦٢ .

(٤) الخَبارُ : ما اسْتَرخَى من الأرض وتَخَفَّرَ . اللسان ٤/٢٢٨
تَخْتَلِيني : الخَلى هو الحشيش الذي يُحتَشُّ من بُقول الرَّبيع . واختلاه : جَزَّه وقطعه ونزعه . اللسان ١٤/٢٤٣ .

(٥) شثناً : الشثن : الذي في أنامله غِلظٌ . اللسان ١٣/٢٣٢.
يَنْهِمُ : يصرخ . اللسان ١٢/٥٩٤ .

(٦) نئيمُ : هو دون الزَّئير . اللسان ١٢/٥٦٧ .

(٧) أَبَنَّ : بَنَّ بالمكان وأَبَنَّ أقام به . اللسان ١٣/٥٩ .
القَصيمُ : ما يُنبت الغضى . اللسان ١٢/٤٨٦ .

أذلكَ أمْ رياضَـــةُ رأسِ قَـرْمٍ ... تَخَمَّطَ وَهْــوَ تَرْكَبُهُ الهُمُــومُ (١)

مِنَ العُصْلِ الشَّوابِكِ نشر جربٍ ... عَلَنْـدى المَنْكِبَيْنِ بِهِ العَصيـمُ (٢)

إذا سَمِـعَتْ لَهُ القِعْـدانُ عَزْفاً ... ذَرِقْــنَ فَهُنَّ مِـنْ فَزَعٍ كُظومُ (٣)

مُعَرًّى فَهْـوَ يُرْفَضُ حَيْثُ أمْسَى ... مِـنَ الأهْمَــالِ تَعْرِفُهُ النُّجومُ (٤)

تَبيـتُ الغُــولُ تَهْزَجُ أنْ تَــراهُ ... وَصَنْجُ الجِنِّ مِـنْ طَرَبٍ يَهيمُ (٥)

أبِيٌّ ما يُقــادُ الدَّهْرَ قَسْــراً ... ولا لِهَـوَى المُصَرِّفِ يَسْتَقيــمُ

تَصُدُّ عَـضارِطُ الرُّكْبــانِ عَنْهُ ... وَشَــهْراً مِـنْ تَخَمُّطِهِ يَصومُ (٦)

أنُوفُ حِــينَ يَغْضَــبُ مُسْتَعِزٌّ ... جَنُــوحُ يَسْــتَبِدُّ بِــهِ العَـزيمُ

فالشاعر يواجه بهذا من يختله ، ويخدعه ، ويدَّريه ، ويهزأ به ، ويجعله كولد الظبية الغافل العاجز " وَتَحْسِبُني كَخِشْفٍ مِنَ الغِزْلانِ أعْقَـلَ ما يَـرِيمُ " ، ونفيه الالتواء في قوائمه يعني إثبات قدمي شاعرنا ، فقد انعكست كل هذه الصور التي عامله بها العدو حين جعله خشفاً ، وحين اختتله ، وجعله كالحشيش الضعيف يختلى .

ويشبه الشاعر الصيد بالأسد ، وأن الصيد قد يقوى ، وتصير له من

---

(١) القَرْمُ : الفحل الذي يترك من الركوب والعمل ويُودَع للفِحْلة . اللسان ١٢/٤٧٣ .

(٢) العُصْلُ : ناب أعْصَل مُعْوجٌ شديد . اللسان ١١/٤٤٩ .
العَصيمُ : الوَبَرُ . اللسان ١٢/٤٠٧ .

(٣) كُظومُ : كظم البعير جِرَّته ازْدَرَدَهار وكف عن الاجترار . اللسان ١٢/٥٢٠ .

(٤) يُرْفَضُ : يترك . اللسان ٧/١٥٦ .

(٥) يَهيمُ : يهيم الصوت : يذهب ويجيء . الديوات ص ٥٥ .

(٦) عَضارِطُ : أجراء . اللسان ٧/٣٥١ .

أدوات القوة ما يكون به هو الصائد ، ثم إنَّه أسدٌ متى أُستفز ، تستبين ذلك حين يصيح أو يقوم إلى المصاولة . ترهبه أقرانه من اللائي يُسمع لها زئير مُدوّي .

والشاعر بقوله " أذلك " يعني أن ذلك الأسد أسهل عليك أم رياضة جمل هذه صفاته ، وكأنه يقول : تطمع في وأنا أسد أو جمل .

ولم يكن وصف الجمل مقصود الشاعر ، وإنما ضربه مثلاً لنفسه ، وهو مثل ثان بعد أن شبه نفسه بالهزبر ، والعرب تتدرج في مثل هذا من البليغ إلى الأبلغ ، فلا بد أن يكون هذا الفحل أشد وأشمل في الصفات من الأسد السابق ، وقد ركز في وصفه للجمل على معان إنسانية ؛ فهو أبيٌّ لا يُقاد قسراً، وهو أنوف فيه الأنفة والاستعلاء ، وهو مستعز، وجنوح لا يستطيع شيءٌ أن يرده عن أمر مال إليه . كما أبرز صفة خوف الغير منه ؛ فالقعدان تذرق حين سماعه ، والغول تهزج بسبب رؤيتها له ، والجن تضج بأصواتها وتذهب وتجيء من الأنس به ، والراضة تصد عنه لعدم الرغبة ، فقوته خارقة لا توجد إلاّ في الأساطير .

وهي صورة مركبة ، وصورة بيانية فذة رائعة ، أجملها القطامي ، وفصلها لهذا الجمل الشرود . والتَّخمُّطُ أخذ الشيء بغضب ، والشاعر جعل هذا في حالة ارتكاب الهموم له " تَخَمَّطَ وَهْـوَ تَرْكَبُهُ الهُمُومُ " ، وهذا يعني أن العنف أعنف ، والطيش أكثر وأشد !

والبيت التالي حوى أقوى الأوصاف التي وصف بها نفسه ، وهو قوله

مُعَرًّى فَهْـوَ يُرْفَضُ حَيْثُ أَمْسَى ... مِـنَ الأَهْمَـالِ تَعْرِفُهُ النُّجومُ

فصورة العاري الذي يهابه ويتهيبه ، ويفر منه كل من رآه ، وأنه تفرد وحده ، ولم يعد أحدٌ يتعرف عليه ، وأنه صار له أصدقاء من غير البشر ، يعيش مع النجوم التي عقدت بينها وبينه نسبٌ وصلة ، وهي كناية عن كونه مستحيل

المأخذ ، متروكاً يرعى النجوم ، وعن القوة .

وفي هذا تصوير فائق لقدرة خارقة ، وإذا كان بهذه المثابة فكيف بابن النعامة يَدَّرِيهِ ؟ ! " وَلَمْ يَكُ يَدَّرِي مِثْلِي الْحَلِيمُ " ؛ لأن كل من فيه عقل لا يبارى من هذا شأنه !

فالصورة التي يرسمها القطامي للجمل صورة بالغة الإبداع ، وهي صورة أكاد أحسب - في حدود ما قرأت - أنه تفرد بها دون غيره ، وإن بالغ في وصف الشرود وأطال ، إلا أنها من الصور التي احتفل بها الشاعر ، وأدمن النظر إليها ، ودقق وتأمل ، ومنحها من فنه وإبداعه ما أكسبها جمالاً وحسناً .

وحين نتأمل كلمة " العُصْلُ " ، وكلمة " الشَّوابِك " ، وإضافة هذه إلى تلك ، وما تؤديه هذه الإضافة من تداخل وقوة ، ونتأمل القعدان التى أصابها البكم ، وأنها خرست لما سمعته ، وأثر ذلك في مخاطبة العدو الذي هزيء به ، كما أن قوله " نشر جرب " كناية عن ذيوع شدة بلواه ، ثم موارة جربه بنبت الجرب عليه . ولذلك كان وصفه مغايراً لأوصاف الإبل في الشعر !

وفي موضع آخر جاء تشبيه الجمل في قوله(١) :

إلاَ رُبَّ يَوْمٍ صائفٍ قَدْ رَأَيْتُهــا ... تُراعي بَخَبْتٍ عــازبٍ أُمِّ رَبْرَبِ
إِذا ما أَهابَ الرَّاعِيانِ تَراجَعَتْ ... إلى رِزِّ مَحْبُوكِ البَضيعَةِ مُنْجِبِ(٢)
صِلَخْدٍ عَظِيــمِ المَنْكِبَيْنِ كَأَنَّما ... عَلَيْــهِ خَميلُ جِيــبَ لَمَّا يُهَدَّبِ (٣)

---

(١) ديوان القطامي ٧٤ .

(٢) رِزّ : الرِّزُّ ، بالكسر : الصوت . اللسان ٣٥٣/٥ .
مَحْبُوكَ : محكم الخلق . اللسان ٤٠٨/١٠ .
البضيعة : اللحم . اللسان ١٣/٨ .

(٣) صِلَخْد : الجمل المُسِنُّ الشديد الطويل . اللسان ٢٥٨/٣ .
خَمِيل : قطيف من كثرة وبره أي وبر البعير
ينظر : الديوان ط . ليدن ص ٧٤ .
والخميل: جمع خميلة : قطيفة ، اللسان ٢٢٢/١١ .

تَرَى الشَّوْلَ تَأْوِي جانِبَيْـهِ كَأَنَّـها عَذارَى تَهادَى بَيْنَ أَهْلٍ ومَلْعَبِ (١)

يرسم الشاعر صورة للإبل في تراجعها تلوذ بفحلها الكريم المنجب القوي المتليء شحماً ولحماً يشبه القطيف من كثرة الوبر وانتشاره ، وقوله " لمَّا يُهَدَّبِ" أي لم يتم فتل ذلك الوبر مما دلَّ على القوَّة والضخامة ، وهذا الاستثناء من قبيل التفصيل في التشبيه ، ثم إنَّ الفحل القوي مأوى للشول التي شبهها بعذارى تَهادَى بين أَهْلٍ ومَلْعَبِ ، كما كنى بقوله " تَهادَى بَيْنَ أَهْلٍ ومَلْعَب " عن جمالها وحسنها وذهابها ومجيئها لاهية آمنة مطمئنة !

* * *

٢ - الخيل " الفرس " :

لقد كان ديدن الشعراء التفاخر والتكاثر بالخيل ، فحكموا لها بالصلاح والخيرية ، يقول شاعرهم(٢) :

الخير ما طلعت شمس وما غربت مُوكَّلٌ بنواصي الخيل معصوب

وقد عبر القطامي كغيره من الشعراء عن حبه للخيل ، وولعه بامتطائها لكل هدف ، ورأى فيها مظهر عزَّة وقوة ؛ فهي مراكبهم في كل غارة يمتطون ظهورها ، لتقودهم إلى ساحة الحرب والنزال ، في قوله(٣):

وَفي صالِحاتِ الخَيْلِ إنَّ ظُهورَها مَرَاكِبُنا في كُلِّ يَوْمٍ نُغـاوِرُهْ

كما وصفها بالكثرة ، في قوله(٤) :

بِقَوْدٍ وأَسْـلافٍ وَسُدٍّ كَأَنَّهُمْ مَخارِمُ مَوْصولٌ بِهِنَّ مَخارِمُ

---

(١) الشَّوْل : الشَّول من النوق التي خفَّ لبنُها وارتفع ضَرْعُها . اللسان ٣٧٤/١١ .

(٢) الأنوار ومحاسن الأشعار ، لأبي الحسن الشِّمِشْاطي ٢٨٥ .

(٣) ديوان القطامي ٢٣ .

(٤) ديوان القطامي ٤٧ .

يصف الشاعر كثرة الخيول والفرسان وتقدمهم ، ومَخارم : مقصود بها الطُّرُق في الجبال(١) ، والسُّدُ : السحاب المرتفع(٢) ، وهو مستعار للجماعة ، فقد شبه الجماعة بالسحاب .

ومن تشبيهات الخيل في شعر القطامي تشبيه سعالها بالدُكاع أو النُحاز ، في قوله (٣):

تَرَى مِنْهُ صُدُورَ الخَيْلِ زُوراً كَأَنَّ بِها نُحازاً أَوْ دُكاعا

والصورة سوف ترد في مبحث " تشبيهات الحرب " .

وقد جاء ذكر الفرس في موضع واحد فقط من شعر القطامي حين شبه الفرس بالذئب ، في قوله(٤):

إِذْ لا تَرَى العَيْنُ إِلاَّ كُلَّ سَلْهَبَةٍ وَسابِحٍ مِثْلِ سيدِ الرَدْهَةِ العادِي(٥)

الصورة تصف الكتائب التي استعان بها الممدوح في صولاته حتى إنَّ العين لا ترى إلا الخيول الطويلة ، والأفراس القوية السريعة ، ويشبه الفرس منها بالذئب في سرعة الحركة والعدو " وَسابِحٍ مِثْلِ سيدِ الرَدْهَةِ العادِي " ، والسِّيدُ : الذئبُ ، و "سابح" صفة للفرس ، وهي استعارة تصريحية تبعية ؛ حيث استعار " السباحة " لشدة العدو .

---

(١) اللسان ١٧١/١٢ .

(٢) المرجع السابق ٢٠٨/٣ .

(٣) ديوان القطامي ٣٨ .

(٤) ديوان القطامي ١١.

(٥) سلهبة : فَرَسٌ سَلْهَبٌ وسَلْهَبَةٌ إذا عَظُم وطال ، وطالتْ عظامهُ . اللسان ٤٧٤/١ .

٣ - الأسد :

تحظى ذات الشاعر بنصيب وافر ؛ إذ يفخر بنفسه ، ويمجد شجاعته التي فاقت شجاعة الأسد ، وذلك في قوله(١) :

نادَى الْمُنادِي بِلَيْلٍ فأَسْتُجِيبَ لَهُ   واللَّيْثُ مثْلِي إِذا لَمْ يَسْتَبِنْ عزَما

والصورة التشبيهية " الليث مثلي " من التشبيه المقلوب ، وهي من الصور النادرة في شعر القطامي ؛ حيث شبه الليث بنفسه ، وقد عكس التشبيه مبالغة في إثبات صفات القوة والجسارة له ، وأن المضي في الأمر بعزم وشدة –ولو كان في ظلام معوق لا يمكن الاستبانة فيه – أمر واجب لا تردد فيه كما أن الليث لا يتردد ، ولا يهاب " واللَّيْثُ مثْلِي إِذا لَمْ يَسْتَبِنْ عَزَما " .

ويمكن أن يكون هذا على طريق المبالغة .

وفي موضع آخر يأتي ذكر الأسد أثناء مدحه لأحد أبطال تغلب ، في قوله(٢) :

وَإِنَّا يَوْمَ نازَلَهُمْ شُعَيْثُ   كَلَيْثِ الْغابِ أَصْحَرَ فاسْتَعارا(٣)

والإضافة في قوله " ليث الغاب " صوّرت شدة بطش الشاعر وقومه ، وقدرتهم على الفتك بالأعداء، فهو يريد أن يشبه نفسه وقومه في هذا اليوم بليث الغاب .

ولبني نفيل قوة فائقة عبَّر عنها القطامي بقوله(٤):

فَإِنِّي قَدْ وَجَدْتُ بَنِي نُفَيْلٍ   يَشُنُّونَ الْقَنابِلَ والْغِوارا (٥)

---

(١) ديوان القطامي ٧٢ .

(٢) ديوان القطامي ص ٦٣ .

(٣) أصْحَرَ : إذا خرج إلى الصحراء . اللسان ٤/٤٤٤ .

(٤) ديوان القطامي ٦٣ ، ٦٤ .

(٥) بنو نُفَيْل : جاء في الجمهرة : " ومن بني عمرو بن كلاب : الصعق وهو خويلد بن نفيل بن عمرو بن كلاب كان سيداً يطعم بعكاظ وأحرقته صاعقة ولذلك سمي الصعق ، ومن ولده : الشاعر يزيد بن عمرو =

عَلَى كَلْبٍ وَأَهْلِ الشَّأْمِ طُرّاً   كَشَدِّ الأُسْدِ غضْباً وَاهْتِصارا (١)

فيصفهم بالشجاعة في منازلة الأبطال ، وأنهم يصبون وابل الرمي على أعدائهم ، كما صوَّر الشاعر ما يتصفون به من قوة ومضاء ، فالمشبه محذوف ، والتقدير : ويشدون عليهم شداً " كَشَدِّ الأُسْدِ غضْباً وَاهْتِصارا " .

* * *

٤ - الكلاب :

جاء في كتاب الحيوان : " الكلاب أصنافٌ لا يحيط بها إلا من أطال الكلام . وجملة ذلك أنَّ ما كان منها للصيد فهي الضِّراء ، وواحدها ضِروة، وهي الجوارح والكواسب ، ونحن لا نعرفها إلا السَّلوقيّة وهي من أحرار الكلاب وعتاقها"(٢).

وقد خصَّ القطامي هذا النوع من الكلاب بالصيد ، وذلك حيث يقول(٣):

فَلَبَيْنَما هُوَ غافِلٌ إذْ راعَهُ   لَحِمُونَ سَرَّحَهُمْ بَنُو نَبْهانَا

مَعَهُمْ ضَوارٍ مِنْ سَلُوقَ كَأَنَّها   حُصُنٌ تَجَوَّلُ تُجَرِّرُ الأَرْسانَا

== بن الصعق ، ومن ولد يزيد الشاعر المذكور زفر بن الحارث بن عبد عمرو بن مُعاذ بن يزيد بن عمرو بن الصعق القائم بالجزيرة أيام مروان ، وبنوه الكوثر بن زُفَر ، ووكيع بن زُفَر ، والهذيل بن زُفَر ، وكلهم رؤساء ". يُنظر : جمهرة أنساب العرب ، لابن حزم ٢٨٦ .

القَنابِل : طائفة من الناس ومن الخيل . اللسان ١١/٥٧٠ .

الغُوار : الغارة : الجماعة من الخيل إذا أغارت . اللسان ٥/٣٦ .

(١) طُرّاً : جميعاً . اللسان ٤/٤٩٨ .

اهْتِصار : الهَصْرُ : الكسْرُ ، اللسان ٥/٢٦٤ .

(٢) الحيوان ، ١/٣١١.

(٣) ديوان القطامي ١٧ .

فهذه الضواري تشبه خيولاً تجول تجرر الأرسان في قوتها وضراوتها، والتي يسرّحها بنو نبهان، فكأنها جيش يقوده قائد مدرب، والتشبيه مفرد مقيد ، مجيء أداة التشبيه" كأنَّ "مما يقوي الشبه بين المشبه والمشبه به.

والتعبير بقوله " فَلَبَيْنَما هُوَ غافِلٌ إذْ راعَهُ " عن المفاجأة على حين غفلة ، وفي مكان خطر، والمرُوَّع هو الثور الذي فرضت عليه كلاب الصيد تلك الحرب . والصورة سبق الحديث عنها في " تشبيهات الناقة " .

* * *

٥ - الطير " المكاكي " :

لم يقف القطامي عند مظاهر الطير ، ووصف صفاته ، وأجزته ، كما أنه لم يذكر من الطير سوى المكاكي .

ومفرده المكاء " طائر يصوت في الرياض يسمى مكاء لأنه يمكو : أي يصفر كثيراً "(١) .

يقول القطامي :

حَلُّوا بأخْضَرَ قد مالت سَرارَتُهُ من ذي غُثاءٍ على الأعْراضِ أنْضادِ
قَفْرٍ تَظَلُّ مَكاكِيُّ الفَلاةِ به كأنَّ أصواتَها أصْواتُ نُشّادِ
مالي أرَى الناس مُزْوَراً فُحولُهُمُ عَنِيّ اذا سَمِعُوا صَوْتي وإنْشادِي

فللمكاكي أصوات عذبة تشبه أصوات النُّشاد ، وهو تشبيه مفرد ، وتغريد هذا النوع من الطيور جاء في أرض قفر ، فهي في مأمن من أن تُفزَّع أو تُثار ، لذا تضاعف صوتها ، وانتشر صداه ، وهي صورة صوتية اعتمد فيها الشاعر على حاسة السمع . والتعبير بصيغة المضارع " تظلُّ " يجعل الحدث متجدداً ، وقد دلّت على نشاطها في تغريدها .

---

(١) يُنظر : حياة الحيوان ، للدميري ٣٢٢/٢ .

(٢) الأعراض : النواحي ، انضاد : مُنضَّد ، سرارةُ الوادي وَسَطُه .
ديوان القطامي ط . ليدن ٩ .

وتساؤل الشاعر " مالي أرَى الناس مُزْوَرّاً فُحولُهُمُ عَنِيَ " يشير إلى التعجب ؛ ففي الوقت الذي يأنس ويطرب بصوت المكاكي يعجب أيضاً من هؤلاء الناس الذين يزهدون في صوته وإنشاده ، وهو الشاعر الفحل المجيد . ولفظة " مُزْوَراً " من الازورار ، ولا يكون إلا للخيل إذا خافت في قتال أو نحوه فهي تميل وتنحرف مبتعدة ، قال عنترة بن شداد واصفاً فرسه في الحرب(١):

فازور من وقع القنا بلبانه وشكا إلى بعبرة وتحمحم

لو كان يدري ما المحاورة اشتكى ولو كان لو علم الكلام مكلمي

والقطامي عبَّر بها عن رغبة الفحول عنه ، وزهدهم فيه ، وفي شعره، و "الفحول " على المجاز للشعراء ، وقد عنى بها هنا كبار رجال القبيلة ، حيث نلحظ تحسر الشاعر ، فبعد أن زهدت فيه الغواني زهد فيه الرجال أيضاً !

---

(١) ديوان عنترة ١٥٣ .

خامسا - الحرب والسلاح :

١ - الحــرب :

لقد كان القطامي مؤرخاً لأهم الأحداث التي وقعت في عصره ، وعن دوره يقول بارت في مقدمته : " إن المعارك الطاحنة التي دارت في النصف الثاني من القرن الأول الهجري بين المجموعات التغلبية الكبيرة في أرض الرافدين ، أولاً مع بني كلب ثم مع قبائل قيس عيلان أثرت كثيراً على شعراء هذه القبائل ومن بينهم القطامي"(١) ومن تشبيهات القطامي في الحرب أنه شبه قومه بالحريق أصاب غابة ، كما شبه علاقتهم بقيس بالأديم الممزق الذي أعيا الصنّاع ، وشبه الأصوات التي تصدر عن صدور الخيل النُحاز أو الدُكاع ، ونزف الدماء من العروق بالتقيء ، وتصدع العلاقات بالعظام المهيضة التي ليس لهيضتها اجتبار !

يقول القطامي في قصيدته العينية(٢):

وكُنَّـا كالحَـريقِ أصـابَ غاباً   فَيَخْـبُو سـاعَةً ويَهُـبُّ سـاعا

فَـلا تَبْعَـدْ دِمـاءُ ابْنَـيْ نِـزارٍ   وَلا تَقْـرَرْ عُيـونُك يا قُضاعا (٣)

يصور الشاعر ما تتمتع به قبيلته في دفاعها عن حقوقها ، وأن لهم قدرات حربيّة أرهبت أعداءهم؛ إذ لم تنطفيء لهم نارٌ في الحرب،فالمشبه الشاعر وقومه ، والمشبه به حريق أصاب غاباً، وإذا نشب الحريق في غابة كان غاية في سرعة الالتهام ، والإبادة بسبب الريح والشجر ؛ فهي نار ملتهبة يصعب إخمادها أو محاصرتها ، فما أن يسكن لهيبها حتى يهبَّ من جديد ، ذلك أن الحريق بين

---

(١) مقدمة بارت .

(٢) ديوان القطامي ٣٩ .

(٣) ابْنَيْ نِزار : مضَر ، وربيعة .

حركة ظهور وتأجج ، وحركة سكون واختفاء " فَيَخْبُو ساعَةً ويَهُبُّ ساعا " ، وكأنَّ الشاعر يشير إلى عدم الاستقرار لا سلماً ولا حرباً .

والتشبيه هنا أُريد منه تشبيه حركة أو هيئة بغيرها ، يقول الشيخ عبد القاهر مبيناً الهيئة المقصودة في تشبيه كهذا وهي : " أن تطلب الوفاق بين الهيئة والهيئة مجرّدة من الجسم ، وسائر ما فيه من اللون وغيره من الأوصاف ، كما فعل ابن المعتز في تشبيه البرق حيث قال :

وكأن البرق مُصْحَفُ قارٍ فانطباقاً مرّةً وانفتاحا

لم ينظر من جميع أوصاف البرق ومعانيه إلا إلى الهيئة التي تجدها العين له من انبساط يعقبه انقباضٌ وانتشارٍ يتلوه انضمام ... "(١) .

ويدعو القطامي على " قضاعة " ، وذلك في قوله " وَلا تَقْرَرْ عُيونُك يا قُضاعا " ، وهو دعاء عليهم بأن تظل عيونهم دامعة دمعها ساخن لا يكف ، أما ربيعة وقيس فيدعو لهما أن لا يهلكا ولا يفنيا " فَلا تَبْعَدْ دِماءُ ابْنَيْ نِزارٍ "(٢) .

---

(١) يُنظر : أسرار البلاغة ١٤٠ .

(٢) " من مذاهبهم أنهم يقولون للميت إذا مات لا تبعد ، وفي كتاب اللب : أن العرب قد جرت عادتهم باستعمال هذه اللفظة في الدعاء للميت ولهم في ذلك غرضان أحدهما : أنهم يريدون به استعظام موت الرجل الجليل وكأنهم لا يصدقون بموته .
والغرض الثاني : أنهم يريدون الدعاء له بأن يبقى ذكره ولا يذهب ؛ لأن بقاء ذكر الإنسان بعد موته بمنزلة حياته . يُنظر : " بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب " ، للألوسي ١٤/٣ .

ومن تشبيهات الحرب تصوير يوم الطعان في لوحة فنية مكتملة ، في قوله(١):

وَيَـوْمَ تَلاقَـتِ الفِئَتَـانِ ضَرْباً وَطَعْناً يَبْطَـحُ البَطَـلَ الشُجَاعـا
تَـرَى مِنْـهُ صُـدُورَ الخَيْلِ زُوراً كَأَنَّ بِهـا نُحـاراً أَوْ دُكـاعا (٢)
وَظَلَّتْ تَعْبِـطُ الأَيْـدِي كُلُـوماً تَمُجُّ عُروقُهـا عَلَقـاً مُتـاعا (٣)

وهي صورة حسية تكشف عن هول المعركة ، والإطاحة بالأبطال ، والاندفاع بقوة نحو القتال ضرباً وطعناً لا هوادة فيهما ، حتى إنَّ صدور الخيل تشكو وتئن من وطأته ، فتصدر أصواتاً ، وتسعُل سُعالاً شديداً يشبه " الدُكاع " أو " النُحار " ، وهو تشبيه مفرد .

والدُكاع في بعض معانيه داءٌ يأخذ الإبل في صدورها ، وكذا النُحاز(٤) ، وجملة " يَبْطَـحُ البَطَـلَ الشُجاع " من قبيل المجاز العقلي .

والقطامي كما هو جلي يصف حرباً شعواء ؛ فالأيدي تطعن ، والجراحات النازفات تندفع منها دماءٌ غزيرةٌ ، والتعبير بـ " الأيدي " لإظهار مدى القوة والبطش والاقتدار .

---

(١) ديوان القطامي ٣٨ .
(٢) زُوراً : الزَّوَرُ ، بالتحريك : المَيَلُ . اللسان ٤/٣٣٤ .
(٣) تعبط : عَبَطَ الشيءُ : انشقَّ . اللسان ٧/٣٤٨ .
يمجُّ : مَجَّ الشَّرابَ والشيءَ من فيه : رماه . اللسان ٢/٣٦١ .
عَلَقاً : العَلَقُ : الدم . اللسان ١٠/٢٦٧ .
مُتاعا : مَتَعَتْ أي إذا احمَّرت الأكُفُّ والأشاجِعُ من الدم . اللسان ٨/٣٣٠ .
(٤) اللسان ٨/٩٠ .

ولفظة " تمجُّ " ، وإسناد ذلك إلى العروق تصوير لمبلغ ما لفظته تلك العروق من دماء غزيرة حتى لكأنها تتقيأ دماً ، وهي أيدٍ تنزف دماً طرياً في بدايته ثم لم يلبث أن يكون خاثراً " عَلَقاً مُتاعا " !

ويصور الشاعر في أسىً ولوعة ما خلفته الحروب الدامية بين " قيس " و " تغلب " من آلام يصعُب برؤها ، وذلك حيث يقول(١) :

أَلَمْ يَحْـزُنْكِ أَنَّ ابْنَيْ نِـزارٍ   أسالا مِـنْ دِمائِهِمـا التِـلاعا
وَصـارا ما تُغِبُّهُمـا أُمـورٌ   تَزيـدُ سَنَا حَريقِهِـما ارْتِفـاعا
كَما العَظْمُ الكَسيرُ يُهاضُ حَتَّى   يَبِتَّ وإنَّمـا بَدَأَ انْصِـداعا(٢)

وهي صورٌ بصرية ترسم مشاهد أليمة لحروب مريرة ؛ فهناك دماءٌ أُريقت " أسالا مَنْ دِمائِهِما التلاعا " ، والتِّلاعُ : مسَايلُ الماء يسيل من الأسْناد والنِّجاف والجبال حتى يَنْصَبَّ في الوادي(٣) . وقوله " أسالا مَنْ دِمائِهِما التِلاعا" كناية عن فداحة الخطب ، وعظم الحادثة .

وتنفطر نفسُ الشاعر حزناً حين يلحظ تفاقم وتعاظم الأمور بين القبيلتين ، وهي حالة تشبه العظم الكسير المهيض الذي كسر وقت انجباره ، فسوء حالته ، ووصوله إلى هذه الدرجة حتى صار لا يوصل إلا لينقطع ، ولا يجبر إلا لينكسر رغم أنه في البدء كان مجرد انصداع يمكن رأبه ، وهي صورة مركبة .

وقوله " يُهاضُ حَتَّى يَبِتَّ " بالبناء للمجهول جسَّد معنى المغالبة ،

---

(١) ديوان القطامي ٣٧ .

(٢) يُهاضُ : هاض العظم : كسر بعد الجبور أو بعدما كاد ينجبر . اللسان ٢٤٩/٧ .
يبتُّ : البَتُّ : القطع المستأصل . اللسان ٦/٢ .

(٣) اللسان ٣٦/٨ .

ومعاودة المحاولة ، ولكن هيهات وقد أهيض العظم !

وهذا التحسر ظهر في موضع آخر من شعره ، في قوله(١) :

أذاكَ هُدِيتَ أمْ ما بالُ ضَيْفٍ … تَضَمَّنَهُ المضاجِعُ والشِعارُ
وَأَرَّقَنِي بَدائِعُ فِي مَعَدٍّ … أراها اليَوْمَ لَيْسَ لَها ازْدِجارُ
إذا ما قُلْتُ قَدْ جُبِرَتْ صُدُوعٌ … تُهاضُ ولَيْسَ لِلْهَيْضِ اجْتِبارُ
كَذاكَ المُفْسِدُونَ إذا تَوالَوْا … عَلَى شَيْءٍ فَأَمْرُهُمُ التَّبارُ

تساؤل الشاعر في حسرة عن حال القوم ، وتعجبه يوحي بالأسى من إصلاح ذات بينهم ، فكلما ظن أن الصدوع - وعنى بها الخلافات - قد جبرت إذا به يفاجأ بأنها تهاض مرة أخرى فيشبهها بالعظام المهيضة وليس لهيضتها اجتبار .

وبدء الشاعر بلفظ " أذاك " استفهاماً يعقبه دعاء بلفظة " هُدِيتَ " لمن يسأله فيه بلاغة . والتعبير بقوله " كذاك المفسدون " كأنه كف من الشاعر عن الدهشة والاستفهام ، واعتراف بأن هذا الذي يحدث ليس شيئاً غريباً ، فكذاك شأن المفسدين ، وفي هذا روعة الاستدراك من الشاعر على نفسه بحملها على الاعتراف بحقيقة المفسدين ، فهذا شأنهم ولا عجب ولا تعجب خاصة إذا توالوا على شيء فمآله إلى خراب وهلاك ودمار" فَأَمْرَهُمُ التَّبارُ " .

---

(١) ديوان القطامي ٨٣ ، ٨٤ .

٢ - السلاح :

لم يخصص القطامي شعراً في وصف السلاح ؛ بمعنى أنه لم يصف الآلات الحربية المستخدمة آنذاك نحو السهم ، البيضة ، القوس ، الترس ، وإنما اقتصر على وصف السيف ، والدرع ، والرمح ، وفي مواطن محدودة . أما السيف فقد أضفى عليه بعض الصفات الشائعة ، فهو الأبيض ، والصارم ، كما شبهه بالشهب في توهجها ، ولمعانها صوَّر ذلك في قوله(١) :

نَفْسِ فداءُ بني أُمٍّ هُمُ خَلَطُوا　　　يوم العَروبةِ أوراداً بأوراد(٢)
بِيضاً صَوارِمَ كالشُهْبانِ نَعْسِفُها　　　في البِيضِ مِنْ مُسْتَقِيماتٍ وَمُنْآدِ

فالسيوف تتصف بالمضاء والحدة تضرب الأعداء بقوة فيها عَسْفٌ وشدة سواء المستقيم منها أو المُعوَّج " مُسْتَقِيماتٍ وَمُنْآدِ " .

وقد شبه السيوف بالشهبان في حالة القتال عندما ترتفع وتنخفض فيصدر لها لمعانٌ وتلألأ .

كما يتخذ القطامي من السيوف مصدراً لحماية خارجية تحيط به وبقومه ، وذلك حيث يقول(٣) :

وَمَعْقِلُنا السُّيوفُ إذا أَنَخْنا　　　وقَدْ طارَ القَنازِعُ والشِّرارُ (٤)

فهي سلاحٌ يجدون فيه غَناءً عن المعاقل التي تُبنى للاحتماء بها ، واللجوء إليها إذا اشتد أُوارُ المعركة .

وجملة " مَعْقِلُنا السُّيوفُ " تشبيه بليغ ، فيه تقديم وتأخير مراده أن مأواهم ومعقلهم ، وقلاعهم هي السيوف ، وقوله " وقَدْ طارَ القَنازِعُ والشِرارُ " كناية عن انتشار شِرار الناس وتكاثرهم !

ومعنى الاستغناء بالسلاح عن الحصون له نظائر في الشعر ، كقول

---

(١) ديوان القطامي ١٢ .
(٢) يوم العَروبةِ : الجمعة ، اللسان ٥٩٣/١ .
أوراد : جماعات ، الديوان ط. ليدن ١٢ .
(٣) ديوان القطامي ٨٨ .
(٤) القَنازِعُ : صغار الناس . اللسان ٣٠٣/٨ .

سلمة بن الخرشب(١) :

نزلنا على رغم العِدى في مفـازةٍ معاقلنا فيها السيوفُ الصوارمُ

الرمـاح :

لم يرد ذكر الرماح إلا في موضعين من شعر القطامي ؛ حيث وصفها بأنها طويلة ، ونافذة تخترق جسد المرمى بها ، في قوله (٢) :

قَـوَارِشَ بالرِمـاح كأَنَّ فيـها شَواطِنَ يَنْتَزِعْنَ بِهَا انْتِـزاعا (٣)

الصورة حركيـة ، وصفت حركة الرماح ، كما أن لفظة " قوارش " نقلت أصوات تصادم بعضها ببعض ، وطعن هذا لذاك في معركة مسعورة ، والكلمة توحي بجرس حروفها إلى احتدام المعركة حتى لكأننا نرى اصطخابها الذي يعتلي ويتزايد مع التحام الرماح ، وتداخلها .

وقـوله " شَوَاطِنَ يَنْتَزِعْنَ بِهَا انْتِـزاعـا " دلَّ على طول تلك الرمـاح ، فالفوارس يصوبون رماحهم الطويلة والشديدة ، التي تشبه الحبال حين تُرفع من البئر بسرعة وعنف بالغين .

وقـد ورد فـي " الأنـوار ومحـاسـن الأشـعـار " : " قـال الأصـمـعي : أحسـن مـا قـالت العـرب في طول الرِّمـاح قـول القطامي ..."(٤) ، ثم ذكر البيت المشار إليه .

---

(١) الأشباه والنظائر ، للخالديّن ٩٠/١ .
" وهو سَلَمة بن عَمْرو بن نَصْر بن حارثة بن طَرِيف بن أنمار بن بغيض ابن ريث بن عطفان " . يُنظر : المفضليات ٣٦ .

(٢) ديوان القطامي ٣٨ .

(٣) قوارش : اقترشت الرماح : تطاعنوابها فَصك بعضها بعضاً ووقع بعضها على بعض فسمعْتَ لها صوتاً . اللسان ٣١٥/٥ .
شواطن : الشَّطن : الحبل الطويل الشديد . اللسان ٢٣٧/١٣.

(٤) يُنظر : الأنوار ومحاسن الأشعار ، لأبي الحسن الشّمِشْاطيّ ٥٠/١ .

وتشبيه الرماح بالأشطان من الصور المألوفة لدى الشعراء ، ومن ذلك قول عنترة(١) :

كأنَّ رماحَهُمْ أشطانُ بِئرٍ لها في كُلَّ مَدْلَجَةٍ خُدودُ (٢)

كما نعت القطامي الرماح بالطول ، في قوله(٣) :

ومَنْ رَبَطَ الْجِحاشَ فإنَّ فينا قَناً سُلُباً وأَفْراساً حِسانا(٤)

---

(١) ديوان عنترة ٤٩ .

(٢) مَدْلَجَة : المَدْلَجَة : ما بين الحوض والبئر . اللسان ٢/٢٧٣ .

(٣) ديوان القطامي ٥٨ .

(٤) سُلُباً : رمح سَلِبٌ : طويل ، والجمع سُلُب . اللسان ١/٤٧٢ .

سادساً - الطبيعة :

١ - الطريق .

٢ - السّراب .

٣ - الماء .

٤ - الليل .

* * *

على الرغم من أن شعر الطبيعة لم يكن هدفاً لذاته لدى القطامي ، فقد استمد منه بعض صوره ، ومن العناصر التي انتزعها من الطبيعة الصامتة صورة الطريق ، السرَّاب ، الماء ، الليل .

١ - الطريق :

يرد تصوير الطريق في سياق الرحلة ، ووصف سير الإبل في قوله (١) :

وتَرَى لِجَيْضَتِهِنّ عِنْدَ رَحِيلِنا وَهَلاً كَأَنَّ بِهِنَّ جِنَّةَ أَوْلَقِ
وَإِذَا لَحَظْنَ إِلَى الطَّرِيقِ رَأَيْنَهُ لَهَقاً كشاكِلَةِ الحِصانِ الأَبْلَقِ

الصورة التشبيهية تصف طرقاً ممتدة واضحة ، تتراءى أمام السالكين كخطوط خاصرة الحصان الأبلق ، وهو تشبيه مفرد مقيد فالشاعر ينتزع لوضوح الطريق ، والتوائه شاكلة الحصان الأبلق ، وهي الموضع الضامر منه .

والصورة تصف رحيلهم ليلاً ، وقد ألقى القمر نور ضوئه على الطريق فاتضحت معالمه ، وتلحظ الإبل الطريق وامتداده بعد أن شق عليها طول المسير ، مما جعلها تحيد عن الرحلة ، وتميل عنها ، وفي انطلاقها تشبه انطلاق الفزع الذي أصابه ما يشبه الجنون " وَهَلاً كَأَنَّ بِهِنَّ جِنَّةَ أَوْلَقِ " ، وكلمة " وَهَلاً " أشاعت في البيت معنى الرعب والهلع .

كما يأتي وصف الطريق مع ذكر رحلة النوق في فجاج مخوفة ، في قوله (٢) :

لمَّا وَرَدْنَ نَبِيّاً واسْتَتَبَّ بنا مُسْحَنْفِرٌ كَخُطوطِ السَيْحِ مُنْسَحِلُ(٣)
على مَكانٍ غِشاشٍ ما يُقِيمُ بِهِ إلاَّ مُغَيِّرُنا والمُسْتَقِي العَجِلُ (٤)

المشبه مسار طريق ماضٍ مستقيم تحددت معالمه بعد أن وطئته أرجل كثيرة " اسْتَتَبَّ بنا مُسْحَنْفِرٍ " ، والمشبه به خطوط رداء ممتدة ، وفيها آثار بلىً ، ووجه الشبه الانبساط والقدم ، وهو تشبيه مفرد مقيد ، والقيد جاء

---

(١) ديوان القطامي ٣٣ ، ٣٤ .
(٢) ديوان القطامي ٤ .
(٣) خبيّاً : كثيبُ رَمْلٍ مرتفع في ديار بني تَغْلب .
يُنظر : معجم ما استعجم ، للبكري ١٢٩٦/٢ .
استتب : استقام وتبيَّن . اللسان ٢٢٦/١ .
مسحنفر : ممتدّ . اللسان ٣٥٢/٤ .
السَّيْح : العباءَةُ المخططَة . اللسان ٤٩٣/٢ .
مُنْسحل : المِسْحَل : المِنْحَت . اللسان ٣٢٨/١١ .
(٤) غِشاش : على عجلة . اللسان ٣٢٤/٦ .

في جانب المشبه به " كخطوط السَيْح مُنْسَحِل " .

والتعبير بقوله " على مَكانٍ غِشَاشٍ " نقل إلينا معنى التبرم ، وسرعة التحول عن مكان لا يقف فيه إلا المضطر ، ومن هو في عجلة من أمره، ثم لا يلبث أن ينتقل عنه لشدة جدبه " ما يُقِيمُ به إلاَّ مُغَيِّرُنا والمُسْتَقِي العَجِلُ " .

٢ - السَّراب :

صوَّر القطامي السَّراب في صورة بالغة الروعة لما فيها من الطرافة والغرابة وذلك حيث يقول(١) :

وَجَرَى السَرابُ على الإكام كَأَنَّهُ   نَسْجُ الوَلائدِ بَيْنَهـا الكَتَّانَا (٢)

يشبه الشاعر السَّراب بشكله اللامتناهي والملقى على المرتفعات يتلألأ بثوب من الكتان رقيق أبيض نسجته ولائد صغار ، وأوجه الشبه من الشكل والرِّقة واللون ، والتشبيه مقيد في الطرفين ، وهي صورة بصرية .

كما أن أداة التشبيه " كأنَّ " دلَّت على شدة القرب بين طرفي التشبيه ، وعن الفرق بين « كأنَّ » وبين أختها « الكاف » تحدث الشيخ عبد القاهر في دلائل الإعجاز حيث قال وفي فصل عنوانه : « لا يكون لإحدى العبارتين مزِيَّةٌ على الأخرى ، حتَّى يكون لها في المعنى تأثيرٌ لا يكون لصاحبتها.

فإن قلتَ : فإذا أفادت هذه ما لا تفيد تلك ، فليستا عبارتين عن معنى واحد ، بل هما عبارتان عن معنيين اثنين .

قيل لك : إن قولنا « المعنى » في مثل هذا ، يراد به الغرضُ ، والذي أرادَ المتكلم أن يُثْبِتَهُ أو ينفيه ، نحو أن تقصد تشبيه الرجل بالأسد فتقول «زيد كالأسد» ، ثم تريد هذا المعنى بعينه فتقول : « كأنَّ زيداً الأسد » ، فتفيد تشبيهه أيضاً بالأسد ، إلا أنك تزيد في معنى تشبيهه به زيادةً لم تكن في الأول ، وهي أن تجعله من فَرْط شجاعته وقوة قلبه ، وأنه لا يروعهُ شيء ، بحيث لا يتميز عن الأسد ، ولا يُقَصِّر عنه ، حتى يُتَوهَّم أنَّه أسدٌ في صورة آدميّ »(٣) .

* * *

---

(١) ديوان القطامي ١٦ .

(٢) السَّراب : هو الذي يجري على وجه الأرض كأنه الماءُ ، ويكون نصف النهار . اللسان ١/٤٦٥ .
الإكام : جمع أكَمَة وهي الرابيَة . اللسان ١٢/٢١ .

(٣) دلائل الإعجاز ٢٥٨ .

٣ - الماء :

شاعت في شعر القطامي ألفاظ السقيا ، وغريض الغمام ، وشرب القائلة ، والماء النَطاف ، والسحاب ، والمتحلب ، والشؤبوب ، والحَبَاب ، والفَحْمة ، فمع الطلل يمزج الشاعر صورة المشبه به بما يدل على الماء ؛ حيث شبه الطلل بالكتاب الذي مسَّهُ بَلَلُ فغيَّر من صورته بعد أن شبهه بالخلل . والصورة وردت في " تشبيهات الأطلال " . كما شبه غُثاء الماء بالخرق النشار ، وشبه حباب المطر بحبات الجمان ، والماء الزلال بماء القطر النقي المتحلب . يقول القطامي من قصيدته الفاخرة يمدح فيها عبدالملك بن مروان، والتي تعد أطول قصائده حيثيلغ عدد أبياتها مائة بيت ، ومطلعها (١) :

أمِنْ طَرَبٍ بَكَيْــــتَ وَذِكْرِ أَهْلٍ ... وَلِلطَّرَبِ المُتَاحِ لَكَ ادِّكــارُ

إلى أن قال(٢) :

وجـاشَ المــاءُ مُنْهـمراً إليهــم ... كَـأَنَّ غُثَاءَهُ خِـرَقُ نشـــارُ (٣)

فالمشبه ما يطفو فوق الماء من الزَّبد والوسخ ، والمشبه به ملاءة نشرت ، وبسطت ، ووجه الشبه الاتساع والامتداد،والكثرة واختلاف الألوان ، والتشبيه مفرد ، والصورة جاءت في سياق استعراض قصة نوح عليه السلام ، والطوفان والسفينة حتى استوت - بإذن اللّه - على " الجودي " ، وهو سرد تاريخي جيد ؛ ساقه الشاعر لإنذار قومه أن يصيبهم بسبب تفرقهم ، وعدم انتصاحهم ما أصاب قوم نوح .

وفي موضع آخر يقترن ذكر الماء بوصف الأحداث التي ألمت بالثور الوحشي ، الذي واجه قسوة الطبيعة من جوع وبرد ومطر ، يقول واصفاً حَبَاب الماء بالجمان(٤) :

فَتَرَى الحَبَابَ كَأَنَّما عَبِثَتْ بــه ... ثَقَـفِيَّـانِ تُنَظِّمــانِ جُمــانَـا

ومن تشبيهات الماء ما ورد في سياق وصف شرب النوق ، في

---

(١) ديوان القطامي ٨٠ .
(٢) المرجع السابق ٨٥ .
(٣) غُثَاءَهُ : ما يجيءُ فوق السيل مما يحمله من الزَّبَد والوَسَخ وغيره . اللسان ١١٦/١٥ .
(٤) ديوان القطامي ١٧ .

قـولـه(١):

وَمَـرَّتْ بِمُعْتَمِّ الجبـــالِ كَأَنَّـــها عَصائبُ فُرْسانٍ عَلى إِثْرِ مَطْلَبِ(٢)
فَصَبَّحْنَ قَبْلَ الصُّبحِ أَوْ بَعْدَمابَدَا زُلالاً كَمــاءِ العـــارِضِ المُتَحلِّبِ

الصورة تصف استباق النوق مسرعة تشبه عصائب من الفرسان جادة .

ورغم وعورة الطريق ، وكثرة جباله وارتفاعها ، فهي مسرعة في طلب بغيتها ، والزلال هو الماء العذب ، وحذف الصفة مكتفياً بالموصوف ، يريد مورداً مهجوراً صافي الماء حتى إن ماءه من صفائه كماء المطر حين نزوله نقياً بارداً . شبه الماء الزلال بماء القطر لأنه الأصل ، ولا يكون إلا صافياً ، أما ماء الأرض فقد يكون زلالاً وقد يكون غير ذلك ، وهي صورة مركبة ، صوَّر فيها القطامي قضاء النوق الليل بطوله في طلب الماء ثم بلوغ أملها " فَصَبَّحْنَ قَبْلَ الصُّبحِ أَوْ بَعْدَمابَدَا زُلالاً " .

٤ - الليــل :

ورد ذكر الليل أثناء تصوير رحلة الشاعر عن أرض لم يجد فيها احتفاءً بالضيف ، في قوله(٣) :

سَرَى في جَليدِ اللَّيْلِ حَتىً كأَنَّما تَخَزَّمَ بالأَطْرافِ شَوْكُ الْعَقارِبِ (٤)

يشبه الشاعر الليل بكتلة من الجليد ، لشدة البرد ، وهو من قبيل إضافة المشبه به للمشبه " جليد الليل " ، كما شبه انكماش أطرافه من البرد بمن داخلت أشواك العقارب أطرافه فلسعتها ولدغتها .

والشاعر يراعي الأحوال والمقامات ؛ فلفظة " تخزَّم " من الكلمات الواصفة للمعنى ، حيث دلَّت على معنى العمق والقوة في وصول وخزات الشوك إلى تلك الأطراف المنهكة ، وتمكنه منها واللجوء إلى أداة التشبيه ، وهي أبلغ وأدق من كلمة " شك " ، واللجوء إلى أداة التشبيه " كأن " ، التي تفيد المبالغة والتأكيد ، ثم إن الإضافة في قوله "شوك العقاب " زادت من تصوير مبلغ التوجع ، لا سيما وقد كان سراه في جليد الليل !

---

(١) ديوان القطامي ٧٤ .

(٢) مُعْتَم : العَميمُ : الطويل . اللسان ٤٢٥/١٢ .

(٣) ديوان القطامي ٥٢ .

(٤) تخزَّم بالأطرافِ : شكَّها ودخل فيها . اللسان ١٧٥/١٢ .

سابعاً - الخمر:

وصف القطامي الخمر ، ودنانها ، وكؤوسها ، ومجلسها ، والشرب ، والساقية ، والندامى ...

وورد ذكر الخمر في شعره بأسماء مختلفة ، فهي السُلاف ، المُدام ، العقار ، الراح ، العانيَّة ، الصهباء ، الكميت ، الطلاء ، والصبوح !

وقد جعل القطامي لهوه ولَذَّاته في جانبين هما(١) :

وَثِنْتَيْنِ مِمَّا قد يَلَذُّهُما الْفَتَـى جَمْعتُـهُما راحٍ وبَيْضـاءَ كـاعِبِ

وهذا الجمع بين شرب الراح ، ووصل الكاعب البيضاء كان في أيام الشباب قبل أن يجرب ، وقبل أن يكتمل عنده الحلم ، ويريد به العقل حيث أعقب ذلك بقوله :

قُدَيْدِيمَةَ التَّجْرِيبِ والْحِلْـمِ إِنَّني أَرَى غَفَلاتِ الْعَيْشِ قَبْلَ التَّجارِبِ

والحكمة تشير إلى أن المرء يغفل فيلهو ، وينساق مع اللذات أحياناً قبل أن يجرب شئون الحياة " أَرَى غَفَلاتِ الْعَيْشِ قَبْلَ التَّجارِبِ " .

وقد سبق طرفةُ بن العبد القُطاميَّ في حصر لَذَّاته ، إلا أن طرفة جعلها في ثلاثة أشياء : الحرب ، والخمر ، والنساء ، في قوله (٢) :

ولولا ثلاث هُنَّ من عيشة الفتى وجَدِّكَ لـم أحفل متى قام عوَّدي

فمنهن سبْقي العاذلات بِشَربةٍ كميتٍ متى ما تُعْلَ بالماء تُزبِدِ(٣)

وكرِّي إذا نادى المضاف مُحنَّباً كسيدالغضا ، نَبَّهتَهُ ، المتورِّدِ(٤)

---

(١) ديوان القطامي ٥٠ .

(٢) ديوان طرفة ٣٢ ، ٣٣ .

(٣) الكُمَيْتُ : من أسماء الخمر فيها حُمرة وسواد . اللسان ٨١/٢ .

(٤) المُضاف : المضاف في الحرب هو الذي أحيط به . اللسان ٢١١/٩.
مُحنَّباً : التَّحْنيبُ : انحناء وتَوْتيرُ في الصُّلْبِ واليدين .
اللسان ٣٣٥/١.

وتقصير يوم الدَّجنِ ، والدجنُ معجبٌ

ببهكنة تحت الخباء المعمَّد(١)

ويصف القطامي الخمر بقوله(٢) :

ورَقِيقَةِ الحَجَراتِ بادِيَةِ القَذَى كدَمِ الغَزالِ صَبَحْتُها النَدْمانا

الشاعر يصف خمراً مصفاة نقية فهي " رقيقة الحجرات " ، ولشدة رقتها وصفائها فإن القذى يُرى في أسفلها ، ويشبه الخمر بدم الغزال في اللون والنقاء وطيب الرائحة ، وهو تشبيه مفرد مقيد ، والقيد جاء في جانب المشبه، والمشبه به ؛ لتحديد المعنى تحديداً دقيقاً .

ونعت الخمر بالرِّقة والصفاء مما افتن فيه الشعراء ، ومن ذلك قول الأعشى(٣) :

تريك القذى من دونها وهي دونه إذا ذاقها من ذاقها يَتَمطَّقُ

وفي شعر الخمر تحدث القطامي عن مجلس شراب ، ووصف دنان الخمر الممتلئة ، وذلك حيث يقول(٤) :

وَراحٍ سُلافٍ شَعْشَعَ التَجْرُ مَزْجَها

لِنَحْمَى وما فينا عَنِ الشُرْبِ صادِفُ(٥)

---

(١) يوم الدَّجنِ : إذا كان ذا مطر . اللسان ١٤٧/١٣ .

(٢) ديوان القطامي ١٥ .

(٣) ديوان الأعشى ٢١٩ .

(٤) ديوان القطامي ٢٥ ، ٢٦ .

(٥) شَعْشَع : شَعْشَع الشَّراب : مَزَجَه بالماء . اللسان ١٨٢/٨ .

لِنْحمَى : حَمَى الشيءَ حَمْياً وحِماية : منعه ودفع عنه ، اللسان ١٩٨/١٤ .

صادف : الصُّدُوفُ : الميل عن الشيء . اللسان ١٨٧/٩ .

فَصالُوا فَصُلْناواتّـَقَوْنا بماكِرٍ ليُعْلَمَ هلْ منّا عَنِ البَيْعِ كانفُ(١)
فَحَطُّوا إلينا شاصياتٍ كأنَّها مِنَ السِنْدِ مَسْلوبُ القَميصِ وراعِفُ
فَلَمّا انْتَشَيْنا عَدّني مِنْ صَديقِهِ وَعادَ الصَبُوحُ والشِواءُ السَدائِفُ(٢)

الصورة تصف ما دار في مجلس شراب اجتمع فيه الشاعر مع رفقة له ، وقد راح بائع الخمر يساوم في السعر ، فهو بائع ماكر عرف مدى شغفهم بها " وما فينا عَنِ الشُرْبِ صادِفُ "، فقد كان إصراراً من الشاعر ورفاقه على الشراء إلى أن أحضر لهم البائع ما أرادوا بعد المساومة والاجتراء حين النشوة " فصالوا فصلنا " ، ويصف انتشاءهم بالخمر بعد معاقرتهم لها ، وقد نشأت بينه وبينهم صداقة ، فانصرفوا بعدها إلى الأكل " وَعادَ الصَبُوحُ والشِواءُ السَدائِفُ " .

ويشبه الدنان بشخص قادم من السند عارٍ من ثيابه ، وراعف ، وهو تشبيه معنوي ، والشاصيات : الزِّقاق المملوءة الشائلة القوائم(٣) . وهذا التخصيص " مِنَ السِنْدِ " وهو عن بعد مكانها ، والذي ورد عند غالبية قدامى الشعراء ، فقالوا عن الخمر :

سلافية ، وبابلية ...

وقوله : " مَسْلوبُ القَميص " تفصيل حسن ، وهو شائع في شعر القطامي.

وللأخطل صورة تشبه صورة القطامي ، في وصف قناني الخمر حيث يقول(٤) :

---

(١) صالوا : صال عليه إذا استطال . اللسان ٣٨٧/١١ .
كانف : كَنف عن الشيء : عدل . اللسان ٣١٠/٩ .
(٢) السَدائِف : السديف : لحم السَّنام . اللسان ١٤٧/٩ .
(٣) اللسان ٤٣٢/١٤ .
(٤) ديوان الأخطل ١٦/١ .

أناخُوا فَجَرُّوا شاصيات كأنَّها ... رِجالٌ ، مِن السُّودانِ لم يَتَسَرْبَلُوا(١)

وتشبيه الأخطل استحسنه أبو هلال العسكري ، وحكم له بالجودة في قوله " والبيت من أحسن ما قيل في الزقاق "(٢) .

ولعلَّ مردَّ ذلك التفصيل الدقيق الذي أضفاه الأخطل على وصفه "لم يتسربلوا " مما يدل على دقة وقوة ملاحظة الشاعر ، وهو ما عناه القطامي بقوله " مَسْلوبُ القميص " .

وقد ذكر الشيخ عبد القاهر أن للتفصيل أوجهاً تتفاوت أوضَحها "وهو الأوْلَى والأحقُّ بهذه العبارة أن تفصّل بأن تأخذ بعضاً ، وتدع بعضاً ، كما فعل في اللهب حين عزل الدخان عن السنا وجرَّده ، وكما فعل الآخر حين فصل الحدق عن الجفون وأثبتها مفردة فيما شبّه ، وذلك في قوله :

لها حَدَقٌ لم تتَّصل بجفونِ "(٣) .

كما شبه القطامي السُّكْر بالقيد ، في قوله(٤) :

وَتِرعيَّةٍ لَمْ يَدْرِ ما الْخَمْرُ قَبْلَها ... سَقَيْناهُ حَتَّى كانَ قَيْداً لَهُ السُّكْرُ (٥)
فَثُمَّ كَفَيْناهُ البِدادَ وَلَمْ نَكُنْ ... لِنُنْكِدَهُ عَمَّا يَضَنُّ بِهِ الصَّدْرُ(٦)
فَظَلَّ إِلَى أَنْ باتَ عِنْدِي بِنَعْمَةٍ ... إِلَى أَنْ غَدَا لا لَوْمُ أَهْلٍ ولا خَمْرُ
غَطاريفُ يَدْعُونَ الكريمَ أخاهُمُ ... وإِنْ لَمْ يَكُنْ فيهِ لَهُمْ مِنْهُمُ صِهْرُ(٧)

---

(١) يتسربلوا : السِّرْبالُ : القميص . اللسان ١١/٣٣٥ .

(٢) يُنظر : ديوان المعاني ١/٣١٣ .

(٣) أسرار البلاغة ١٥٢ .

(٤) ديوان القطامي ٥٩ .

(٥) ترعيَّة : صناعة آبائه الرِّعاية ، اللسان ١٤/٣٢٦ .

(٦) المُبادَّةُ في السفر : أن يخرج كل إنسان شيئاً من النفقة ثم يجمع فينفقونه بينهم ، والاسم منه البِداد ، اللسان ٣/٨١ .
لِنُنْكِدَهُ : نَكِدَه حاجته : مَنَعه إياها ، اللسان ٣/٤٢٨ .

(٧) غَطاريف : الغِطريف : السيِّد، اللسان ٩/٢٧٠ .

الأبيات تشير إلى موطن من مواطن الفخر الذاتي ، فالشاعر يمتدح نفسه بالفتوة والكرم ؛ حين تفضل وأنعم على رجل سوقي : ترعِيَّة " من العامة " لَمْ يَدْرِ ما الْخَمْرُ قَبْلَها " ، وقوله "حَتَّى كانَ قَيْداً لَهُ السُّكْرُ" تشبيه بليغ ، وفيه تقديم وتأخير .

ويفخر الشاعر بأنه قد سقى ذلك الرجل خمراً على نفقته ، ولم يكلفه ثمنها ، كما وثق به وجنّبه مشقة الدفع ، حيث كفاه الشاعر ورفاقه ذلك ، فانصرف غير ملوم لعدم دفع ثمن الخمر ، ثم إنَّه لم يبق على سكره " إلى أَنْ غَدَا لا لَوْمُ أَهْلٍ ولا خَمْـرُ " . ويذكر الشاعر ولعه ورفاقه باتخاذ الكريم أخاً لهم ولو لم يكن ذا قربى أو صهر ، ولعلَّها خصال يباهي بها أمام الصاحبة مظهراً لها جانباً من أخلاقه ، لترفع عنه اللوم ، فقد ابتدأ القصيدة بقوله(١) :

أَلاَ بَكَـرَتْ مَيٌّ بِغَيْرِ سَفَـاهَةٍ   تُعَـاتِبُ والْـمَوْدُودُ يَنْفَعُـهُ العَـزْرُ
فَقُلْتُ لَها إِنِيّ بِحِلْمِكِ واثِــقٌ   وإِنَّ سِوَى ما تَأْمُرِينَ هُـوَ الأَمْـرُ

فالشاعر يذكر عتاب الصاحبة ، وربما لم يشر إلى عتابها إلا في هذا الموضع من شعره كُلِّه ، وقد ذكر عتابها له واحترز فقال " بغير سفاهة " ، فهو يلاطفها ، فلم ينف ذنباً اتهمته به ، وإنما لجأ إلى حلمها ، وثقته في ذلك ، ولجأ أيضاً إلى سلطانها عليه ، ومع ذلك فهو يقول " وإِنَّ سِوَى ما تَأْمُرِينَ هُـوَ الأَمْـرُ " أي الأمر في غير ما تأمرين ، بمعنى أنه استرضاء مع تبييت العصيان ، والإصرار عليه .

---

(١) ديوان القطامي ٥٩ .

وفي موضع آخر وصف الندماء ، فشبههم برجال من وادي عبقر ، في قوله(١) :

شَـرِبْـتُ وفِتْـيانُ كجِـنَّةِ عَبْـقَرٍ

كِـرامُ إذا ما الأمْـرُ أعْيَت مرائِرُه (٢)

يفخر القطامي بأنه شرب مع ندامى " شَرِبْتُ وفِتْيانٌ " ، فهم كرامٌ لديهم القدرة على البذل والإقدام ، والشاعر يربط بين الشراب والجود وسخاء النفس في الوقت الصعب " كِرامُ إذا ما الأمْرُ أعْيَت مرائِرُه " ، وهي كناية عن الشدة والقوة ، مستقاة من الحبل المحكم الفتل ، و " أعْيَت " صوَّرت شدتهم إذا ما انقطعت الحيل .

هذا ومن الملاحظ كثرة اعتماد القطامي على أسلوب التشبيه، وعلى الصورة الحسية ، كما كان قادراً على أن يبحث ويتغلغل في الطبيعة المحيطة به من سماء ، وماء ، وسحاب ، ومرعى ، وإبل ، فالشاعر مرتبط بعصره وبيئته، فهو يفتش من خلال ذلك عن عناصر تنقل ما يريد التعبير عنه ، ذلك أن "المتكلم حال اقتناصها يقلب وجهه فيما حوله ، أو يرجع إلى أعماق نفسه يفتش عن الأشياء والنظائر ، والأشياء التي يحضر بعضها بعضاً ، ويدل

---

(١) ديوان القطامي ٢١ .

(٢) عِبْقر : موضع بالبادية كثير الجن . اللسان ٥٣٤/٤ .

أعْيَت : عَيَّ بالأمر : عجز عنه ولم يُطِقْ إحْكامه . اللسان ١١١/١٥.

مَرائره : المَرائِر : الحبال المفتولة على أكثر من طاق . اللسان ١٦٩/٥ .

بعضها على بعض ، وكل ما يمكن أن يفتح به باب الإفهام لما يجد "(١) .

كما لجأ إلى أسلوب الاستعارة ، ومع أنها تشبيه حُذف أحد طرفيه إلا أننا نجد أن ما استعاره القطامي يختلف عما شبه به ، وهذا ما سوف يتضح من خلال تتبع عناصر الإبانة في مبحث " الاستعارة " .

---

(١) التصوير البياني ، للدكتور : محمد محمد أبو موسى ٥ - ٦ .

الفصل الثاني
الاستعارات في شعر القُطَامي

١ - الطلل .
٢ - المرأة .
٣ - الناقة .
٤ - الحرب .
٥ - الطبيعة .
٦ - الخمر .

لقد تنوعت عناصر الإبانة في شعر القطامي ، ولجأ إلى ألوان من الصور البيانية لإيضاح تلك العناصر ، ومن هذه الألوان الاستعارة .

يقول الإمام عبد القاهر في تحديد معنى الاستعارة : " اعلم أن الاستعارة في الجملة أن يكون للفظ أصلٌ في الوضع اللغويّ معروفٌ تدلّ الشواهد على أنه اختصّ به حين وضع ، ثم يستعمله الشاعر أو غير الشاعر في غير ذلك الأصل وينقله إليه نقلاً غير لازم فيكون هناك كالعاريّة "(١).

وعن دور الاستعارة وفضيلتها يقول : " ومن الفضيلة الجامعة فيها أنها تبرز هذا البيان أبداً في صورة مُستجدَّةٍ ، تزيد قدره نُبلاً ، وتوجب له بعد الفضل فضلاً ، وإنك لتجد اللَّفظة الواحدة قد اكتسبت بها فوائد حتى تراها مكررة في مواضع ، ولها في كل واحد من تلك المواضع شأن مفرد ، وشرف منفرد ، وفضيلة مرموقة ، وخلابة مومُوقة " (٢).

أولاً - الطلل :

وقف القطامي من الديار وقفة الذكرى ليعبر عن مكانتها في نفسه ، وذكر الدهر الخائن الخبل ، وتعزى بأن الجديد لا تبقى بشاشته .

وقد استعار القطامي للطلل التسليم ، والخطاب ، والنداء ، والدعاء .

ومن استعارة كلمة " التحية " للديار المقفرة قوله في إحدى مطالعه الطلليه(٣) :

إنَّا مُحَيُّوكَ فَاسْلَمْ أيُّها الطَّلَلُ ... وإنْ بَلِيتَ وإنْ طالتْ بك الطِيَلُ(٤)
إنِيّ اهْتَدَيْتُ لِتَسْلِيمٍ عَلَى دِمَنٍ ... بِالغَمْرِ غَيَّرَهُنَّ الأَعْصُرُ الأُوَلُ

---

(١) أسرار البلاغة ٢٩ .

(٢) المرجع السابق ٤١ .

(٣) ديوان القطامي ١ .

(٤) الطِيَلُ : جمع طِيلة ، والطِّوَل جمع طوَلة ، فاعْتَلَّ الطِّيَل وانقلبت ياؤه واواً لاعتلالها في الواحد . وطال طِوَلُك وطِيَلُك أي عُمْرك ، ويقال غَيْبتك / اللسان ٤١٢/١١ .

الدمن : دِمْنَةُ الدار : أثرها ، والدِّمْنَةُ : آثار الناس وما سَوَّدوا ، اللسان ١٥٧/١٣ ، ١٥٨ .

كانَتْ مَنَازِلَ منَّا قد نَحُلُّ بهـــا حَتَّى تَغَيَّرَ دَهْرٌ خَائِنٌ خَبِــلُ[١]
لَيْسَ الجَدِيدُ به تَبْقَى بَشَاشَتُــهُ إِلاَّ قَلِيلاً ولا ذو خُلَّةٍ يَصِــلُ

يتوجه الشاعر نحو الطلل بادئاً بتحيته ، وندائه بقوله "إنَّا مُحَيُّوكَ فَاسْلَمْ أَيُّها الطلل " ، والدعاء له بأن يظل سالماً وإن تقادم عهده ، فاستعارة " التحية " ، وهي من خصائص الإنسان للطلل جاء ت على سبيل الاستعارة المكنية ، فالطلل كائن حي يخصه الشاعر بالكلام ، والتسليم مع أنه جماد لا يحسن النطق ، والتحية لمن يعيها ، وفي ذلك تشخيص يبعث الحياة في هذا الرسم الدارس ، الذي يقع في موضع يقال له " الغمر " .

ومع ما تنطق به رواية " إنّي اهتَدِيتُ " بضمير المتكلم لا استبعد أن تكون الرواية " أنّى اهتديتَ" بضمير الخطاب . ويبدو لي –على الرغم من رواية الديوان– أن الأبلغ أن تكون : أنّى اهتديتَ ؟ كأنه يتعجب من اهتدائه إلى الدمن مع تغيير الزمن رسومها ، وهذا ما نجده كثيراً عند الشعراء الأقدمين يوهمون أن معالم الديار قد دثرت حتى ليكون الاهتداء إليها مما يتعجب منه .

وقد امتدح النقاد هذا الاستهلال ، وعدوه من المطالع الجيدة[٢] ، ولعلَّ السرِّ في ذلك توفيق الشاعر في كونه خاطب الطلل ، وحياه ، ودعا له بالسلامة في مصراع واحد .

والتعبير بقوله "كانَتْ مَنَازِلَ منَّا قد نَحُلُّ بها " ينم عن تعلق الشاعر بتلك الأماكن ، وقد طال العهد بينه وبينها ، والتي تعني له أشياء وأشياء ، لذا نراه يتحسر لما أحدثه الدهر من تغيير وتبديل ، فينسب إليه الغدر والجنون " حَتَّى تَغَيَّرَ دَهْرٌ خَائِنٌ خَبِلُ " ، فهو يلقي باللائمة على دهر لم يدم صفوه حتى أحال اجتماعهم إلى فرقة ، فأضحت منازلهم موحشة بعد أن رحل أهلها عنها ، وانطوت معهم أيام أنس وسرور ووصال .

---

(١) خُلَّة : الخُلَّة ، بالضم : الصداقة ، اللسان ٢١٧/١١ .
(٢) يُنظر : العمدة ، لابن رشيق ٢١٨/١ – المثل السائر ، لابن الأثير ٩٩/٣ – خزانة الأدب ، للبغدادي ٣٧١/٢ .

ويستوحي الشاعر من ذلك الوقوف حقيقة لا مناص من الاعتراف بها ، وكأنها عزاءٌ له في حزنه على ما أصاب أماكن الأحبة إذ يربط بين عدم بقاء الأشياء على طبيعتها ، وبين استحالة دوام وصال كُلِّ ذي صداقة "ولا ذو خُلَّةٍ يَصِلُ " .

كما بدأ القطامي بعض مقدماته الطللية بنداء الديار والدعاء لها بالسلامة ، ومن ذلك قوله(١) :

أَلا يا دِيارَ الحَيِّ بالأَخْضَرِ اسْلَمي ... وَلَيْسَ عَلَى الأَيَّامِ والدَهْـرِ سالِمُ
تُراوِحُها العَصْرَيْنِ طَوْراً مُسِفَّـةٌ ... وَطَوْراً صَباً مِنْ آخِرِ اللَيْلِ خازِمُ(٢)
تَحُـلُّ بِها والْحَـيُّ حَيٌّ بِغِبْـطَـةٍ ... تَقَـرُّ بِهِـمْ عَيْناكَ لَوْ دامَ دائِـمُ

فتدفق العاطفة تجاه ديار الأحبة يجعل الشاعر يحن إلى مخاطبتها ومساءلتها ، وندائها ، وذلك على سبيل الاستعارة وإلا فالديار خرساء بكماء لا تقدر على الرد أو الجواب ، إلا أنها تبقى أثيرة لديه ، ففيها مراتع الأحبة ، ومدارج لهوه وصباه .

والشاعر يبادرها بالنداء ، ويدعو لها بأن تظل سالمة على مدى الأيام، ثم يرجع عن دعائه ، وقد استشعر أن السلامة لا تكون مع الدهر والأيام ؛ وكأنه أراد بالأيام الزمن ، وبالدهر أحداثه وكوارثه ، وهذا وجه قوله " وَلَيْسَ عَلَى الأَيَّامِ والدَهْـرِ سالِمُ " .

وحين ننظر في طرائق ذكره للطلل في المقطوعتين نلحظ هنا تركيز الشاعر على ما حلَّ بالديار من البلى ؛ فيذكر توالي العصرين يتعاورانها حتى خلفا أثراً لا ينمحي ، وكما تشقى الديار بالريح المسفة العنيفة التي تحاول أن

---

(١) ديوان القطامي ٤٦ .

(٢) الْعَصْرَيْنِ : الليل والنهار ، اللسان ٤/٥٧٦ .

مُسِفَّـةٌ : الريح التي تجري فُوَيق الأرض ، اللسان ٩/١٥٤ .

صَبَـاً : ريحٌ معروفة تقابل الدبور ، اللسان ١٤/٤٥١ .

خَـازِمٌ : ريحٌ خازِمٌ : باردة ، اللسان ١٢/١٧٥ .

تطمس معالمها تنعم بريح الصَّبا ، وهي ريح طيبة لينة ، تهب آخر الليل ، وليس لهذا نظائر في المقطوعة السابقة، وإنما قال هناك " غيرهُنَّ الأعصرُ الأولُ " وفي هذا إجمال .

ثم إن المعنى المشترك بين الموقفين هو ذكر حلول قومها وقومه بهذه الديار قال في اللامية " كانت منازل منَّا قد نحُلُّ بها " ، فهو لم يذكر الغبطة ، ولا المسرة ، وإنما منازل يحلون بها ، ثم ذكر الدهر الخائن .

أما في الميمية فيقول "تَحُلُّ بِها والْحَيُّ حَيٌّ بِغِبْطَةٍ ... " حيث ذكر الغبطة ، التي تقرُّ بها العينان ، وهي التفاتة لطيفة ؛ لأنه خاطب نفسه حين ذكر قرّة العين بالغبطة ، والحلول ، وهذا جزء مهم من المعنى فيه تدفق حي ، مما ناسب معه مجيء الكلام على طريقة خطاب النفس ! ومن مشاهد الطلل في شعر القطامي ما جاء في الرائية ، ومن ذلك قوله(١) :

وَمَلْعَبُ رَبْرَبٍ أُدْمٍ هِجَانٍ ... تَأَوَّدُ عِنْدَ مِشْيَتِهَا انْفِتَارُ(٢)

بَوارِقُ تَرْقُدُ الصَّبَحاتِ خُرْدٌ ... بِهِنَّ مِنَ السِّنَاتِ ضُحَى انْبِهارُ(٣)

وَنادَيْنا الرُّسُومَ وَهُنَّ صُمٌّ ... وَمَنْطِقُها المَعاجِمُ وَالسِّطارُ

وَكانَ الصَّبْرُ أَجْمَلَ فَانْصَرَفْنا ... وَدَمْعُ العَيْنِ أَلْبَثُهُ انْحِدارُ

فالشاعر يجول بناظريه في تلك الرسوم بعد أن تدرج في وصفها إلى أن تسلل للحديث عن " ملعبَ رَبْرَبٍ " ، والرَّبْرَبُ جماعة البقر ما كان دون العشرة (٤) .

---

(١) ديوان القطامي ٨١ ، ٨٢ .

(٢) أُدْم : الأُدْمة : البياض مع سواد المقلتين ، اللسان ١٢/١١.
تَأَوَّدُ : التأوّد : التثني ، اللسان ٣/ ٧٥ .

(٣) خُرْدٌ : الخَريدَة : الحيية الطويلة السكوت الخافضة الصوت الخَفِرة المتسترة ، اللسان ٣/١٦٢ .
الصَّبَحات : الصَّبْحة : نوم الغداة ، اللسان ٢/ ٥٠٣ .

(٤) اللسان ١/ ٤٠٩ .

ونلحظ الربط القوي ، والذي نحمده للشاعر ، فقد أوصلنا إلى ذلك في تدرج رائع محكم ، ودون إقحام ، حتى إذا وصف ما وصف من آيات الديار وعلاماتها نقلنا إلى وصف ملاعب النساء ، مما عساه أن يكون غرضه من ذلك الوقوف ، والدافع إليه .

والصورة تبرز ما كان في بقايا ذلك الملعب من نساء يشبهن جماعة البقر في الجمال والاختيال في المِشية ؛ فقد استعار " الرَّبْرَب " للنساء ، وهي استعارة تصريحية أصلية . كما يصفهن الشاعر بأنهن هجانٌ أي أصيلات حرائر لسن إماءً .

وقوله "بَوارِقُ تَرْقُدُ الصَّبَحاتِ خُرْدُ " أظهر جمال هؤلاء النسوة ، فوجوههن لها بريق أخّاذ كضوء البرق ، تبدو عليهن آثارٌ من قوة الشباب ونضارته ، وهي كناية عن رقودهن بالغدوات تنعماً ، ثم إنهن إذا سرن ضحى انْبِهارُ يشبهن المستيقظات من النوم " بِهِنَّ مِنَ السِّناتِ ضُحَى انْبِهارا " !

والصورة سوف يأتي الحديث عنها في مبحث " الكناية " .

ويعترف الشاعر بعدم جدوى مناداة الرسوم ، فهي لا تسمع ولا تملك منطقاً ولا جواباً "وَنادَيْنا الرُّسُومَ وَهُنَّ صُمٌّ " .

ونجد هذا الاعتراف بعدم القدرة على إجابة الرسوم عند كثير من الشعراء ، ومن أولئك أبو العلاء المعري في قوله(١) :

هل تَسْمعُ القوْلَ دارٌ غيرُ ناطقةٍ وفقْدُها السَّمْعَ مقرونٌ إلى الخَرَسِ؟

ومناداة الرسوم من قبيل الاستعارة ، كما شبه القطامي آثار الديار بالصمِّ "وهُنَّ صُمٌّ " وهو تشبيه بليغ عند الجمهور ؛ لوجود الطرفين ، أما الإمام عبد القاهر الجرجاني فيرى أن من جعله استعارة فإنه لا يلام على ذلك ، حيث يقول :

---

(١) شرح ديوان سقط الزند ١٢١ .

" فإن أبيت إلا أن تطلق الاستعارة على هذا القسم الثاني ، فينبغي أن تعلم أن إطلاقها لا يجوز في كل موضع يحسن دخول حرف التشبيه عليه بسهولة ، وذلك نحو قولك : (هو الأسد ، وهو شمس النهار ... وهكذا كل موضع ذكر فيه المشبه به بلفظ التعريف . فإن قلت : " هو بحر " و " هو ليث " و " وجدته بحراً " ، وأردت أن تقول إنه استعارة كنت أعذَرَ ، وأشبه بأن تكون على جانب من القياس ، ومتشبثاً بطرف من الصواب .

وذلك أن الاسم قد خرج بالتنكير عن أن يحسن إدخال حرف التشبيه عليه فلو قلت " هو كأسد ، وهو كبحر " كان كلاماً نازلاً غير مقبول ، كما يكون قولك " هو كالأسد "إلا أنه وإن كان لا يحسن فيه الكاف فإنه يحسن فيه " كأن " كقولك " كأنه أسد " أو ما يجري مجرى " كأن " في نحو " تحسبُه أسداً " و "تخاله سيفاً ")[١] .

والشاعر يرى الرسوم مفصحات ، وأن بيانها تجلى في آثارها ، وحالها الذي آلت إليه ، وهو أبلغ وأفصح إجابة " ومنطقها المعاجم والسّطار" ؛ وكأن الدلالة الواضحة لتلك العلامات مما أزال عجمتها ، فهي تفصح عما يراد منها حتى وإنّ كنّ صُمّاً ، وإن لم تجب !

والأبيات السابقة من قصيدة ابتدأها بقوله [٢]:

أمِنْ طَربٍ بَكَيْتَ وذِكْرِ أَهْلٍ	وَلِلطَّرَبِ المُتَاحِ لَكَ ادِّكَارُ[٣]
وَأَطْلالٍ عَفَتْ مِنْ بَعْدِ أُنْسٍ	وَدارُ الحَيِّ مُنْكَرَةٌ قِفَارُ[٤]
خَلَتْ غَيْرَ السِّبَاعِ[٥] بِها وَعِينٍ	وظِلْمَانِ النَّعامِ لَهَا عِرارُ[٦]

---

(١) أسرار البلاغة ٣,٤ ، ٣.٥ .

(٢) ديوان القطامي ٨٠ .

(٣) الطَّرَبُ : خفة تعتري عند شدة الفرح والحزن والهم ، اللسان ٥٥٧/١ .

(٤) قِفَار : الخلاء من الأرض ، اللسان ١١٠/٥ .

(٥) رواية ط . بيروت ص ١٣٧ " الظِّبَاء " .

(٦) ظِلْمان : الظليم : الذكر من النعام ، اللسان ٣٧٩/١٢ .
عِرار : صوت ، اللسان ٥٥٧/٤ .

فقد جرَّد الشاعر من نفسه شخصاً ، وأخذ يسائله ، وهو تساؤل مبعثه وجد ان يقطر بالأسى لما يشهده من أطلال خربة أقفرت من أهلها ، فأوحشت من بعد أُنس ، وخلت من ساكنيها ، ولم يعد فيها غير العين ، والسباع والنعام تمرح في جنباتها " وظلمان النعام لها عِرارُ " . كُلُّ هذا من القصيدة المطولة ، والتي يعالج فيها القطامي قضايا قومه ، وأمته ، ويخوض في السياسة ، وأحوال الأمة ، وهي من حرِّ شعره .

ثانياً : المرأة :

لقد رأينا في مبحث التشبيه الأوصاف التي أسبغها القطامي على المرأة ، وفي باب الاستعارة نجد أن هناك جوانب تناولتها تتعلق بوصف المرأة من حيث طلعتها ، جسمها ، رائحتها ، عنقها ، شعرها ، حليها ، حديثها ، مكانتها ، طيفها ، ووصلها ، كما أنِ منها ما وقفه الشاعر على وصف الرحلة إليها .

كما نلحظ الاتكاء على بعض تلك العناصر التي وردت في التشبيه ، ومن ذلك إطلاق " الغمامة " على المرأة ، وعلى أسنان الصاحبة .

وكلمة " غمامة " كلمة مليئة ؛ لأن فيها معنى الخصوبة والحياة ، والصفاء ، والري ، والربيع .

والربط بين الصاحبة والغمامة ربط لا يغفل ، ففيه معنى الخصوبة ، والتكاثر ، ونماء الحياة ، والسحابة والمرأة كلاهما نبع من ينابيع الحياة ، ثم إنَّ في هذا معنى السمو ، والعلو ، وبعد المنال ، والطهر والنقاء ... إلى غير ذلك مما تستشعره النفس عند سماع " الغمامة " . يقول القطامي من قصيدة طويلة عدد أبياتها ست وستون بيتاً ، مطلعها (١):

ما اعْتادَ حُبُّ سُلَيْمَى حِينَ مُعْتادِ   وما تَقَضَّى بَوَاقي دَيْنِها الطادِي

وفي الخُدور غماماتٌ بَرَقْنَ لنـــا   حَتَّى تَصيَّدْنَنا من كلِّ مُصْطادِ(٢)

الصورة تصف أثر هؤلاء النسوة حين برقن من خلف الخدور ، وما أحدثته

---

(١) ديوان القطامي ٨ .

(٢) الخُدور : الخِدر : سِتْرٌ يُمدُّ للجارية في ناحية البيت، اللسان ٤/ ٢٣٠.
غمامات : الغَمامة ، بالفتح : السحابة ، اللسان ١٢/ ٤٤٣.

من جـذب للقلوب ، وخلب للألبـاب ، و " برقن " تشـيـر إلى سـرعـة ظهـورهن واختبائهن .

وقـوله " وفي الخدور غـمـامـات " أسلوب اسـتـعـارة ؛ فـالمسـتـعـار له مـحذوف في حين صُرِّح بالمستعار منه ، وهي استعارة تصريحية أصليَّة ، ثم إنَّ تقديم الخبر " الجار والمجرور " فيه من الإثارة والتشويق ما لا يخفى ، وكذلك في " تصيدننا " استعارة تبعية ، واستخدام الفعل " تصيَّد " أفاد البراعة في الإغراء ، وأنهن أفلحن في جذب قلوبهم ، وقوله " من كل مصطاد" عبَّر عن معنى الإحاطة حتى لم يعد هناك مجالٌ للانفلات من القيد الآسر .

والشاعر خلال تصويره يعمد إلى الألفاظ المعبِّرة وكأنَّ صيداً على الحقيقة قد وقع ، كما أن الجمع في " غمامات " دلَّت على كثرة من يتشوقن إليه، ويحاولن أن يوقعنه في شباكهن .

كما استعار القطامي " عيني البقرة " لعينيها ، و " البَرَد " لأسنانها ، و "صفائح الفضة" لبياض جسمها ، و " النهل " للمفارق ، و " الإيقاد " للمعان القـلائـد ، و " الـقتل " لأثـر حديث النساء ، و " الروضة " لمنزلة الصاحبة ...

ووصف أسنان وريق الصاحبة ، في قوله(١) :

مُنَعَّمَةٌ تَجْلُـو بِعُـودِ أراكــةٍ ذُرَى بَرِدٍ عَذْبٍ شَتَيتِ الْمَنَاصِبِ(٢)

---

(١) ديوان القطامي ٤٩ .

(٢) ضُبطت " بَرِدٍ" بالكسر في طبعة " ليدن " ، والصواب " بَرَدٍ" كما في طبعة بيروت ص ٤٣ .
أراكة : الأراك : شجر السِّواك يُستاك بفروعه ، اللسان ٣٨٨/١٠.
شتيت : مُفَلَّج ، اللسان ٤٨/٢ .
المناصب : مراكز الأسنان ، الديوان ، ط . ليدن ، ص ٤٩ .

فقد استعمل الشاعر " البرد " وأراد به أسنان الصاحبة ، وقوله " ذُرَى بَرِدٍ عَذْبٍ شتيت المناصب " أسلوب استعارة ، شبه الأسنان في لمعانها وبياضها بالبرد بجامع الصفاء والنقاء في كل منها ، وذلك على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية في الاسم .

والتعبير بكلمة « ذرى » جمع « ذروة » أعالي الأسنان ، و « المناصب» وهي مراكز الأسنان ، ووصف الثغر بـ « شتيت » أي مفلّج ، والسِّرُّ : هو أن السواك ليس للنظافة ، وإنما هو للتطيب ، ذلك أن أصول الأسنان متباعدة لا يتبقى فيما بينها شيء ، ولذلك فهي تجلو أعاليها بعود أراكة .

وفي قوله " مُنَعَّمَة تَجْلُو " حذف للمسند إليه ، وللحذف وقع بلاغي مؤثر عبَّر عنه الإمام عبد القاهر الجرجاني بقوله : " هو باب دقيق المسلك ، لطيف المأخذ ، عجيب الأمر ، شبيه بالسِّحر ، فإنك ترى به ترك الذِّكر أفصح من الذكر ، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة ، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق ، وأتم ما تكون بياناً إذا لم تُبنْ "(٢) .

كما ذكر أن من عادتهم أنهم إذا ذكروا الأطلال ، والرجال ، والصاحبة قطعوا الكلام ، وبنوه على الحذف والاستئناف ، وهو من الحذف الذي ترى فيه " نُصْبَةَ الكلام وهَيْئَته " تروم منك أن تنسى هذا المبتدأ ، وتباعده عن وَهْمِكَ ، وتجتهد أن لا يدور في خَلَدِك ، ولا يعرض لخاطرك ، وتراك كأنك تتوقَّاه توقي الشيء تكره مكانَهُ والثقيل تخشى هجومه " (١).

---

(١) دلائل الأعجاز ١٤٦ .

(٢) دلائل الإعجاز ١٥١ .

وفي موضع آخر يشبه القطامي أسنان الصاحبة بالبرد، في قوله (١):

لَيْسَتْ تَرَى عَجَباً إلاَّ بَدَا بَــرِدُ غرُّ الْمضَاحِكِ ذُو نَوْرٍ إذا ابْتَسَما

يرسم الشاعر صورة لأسنان الصاحبة ، فهي غُرٌّ بيضٌ ناصعة تفترُّ عن ثغر جميل ، وابتسامة آسرة .

والصورة تصف ما تراه العين ؛ لأن الكلام بُني على الظاهر المحسوس بالبصر " غرُّ الْمضَاحِكِ ذُو نَوْرٍ إذا ابْتَسَما "، وقد جاء ت في سياق يناسبها ، فالشاعر ذكر أنها قامت تريك ، وتجلو عن محاسنها ، وأنها مُنَعَّمَة ، وهي مثل السراج ، ضحوك السن ، مترفة النفس ، تبسم كلما ترى عجباً ، والأبيات سبق الوقوف عندها في مبحث " تشبيهات المرأة " .

ويصف القطامي عيني المرأة بقوله(٢) :

وَلَقَدْ يَرُوعُ قُلُوبَهُنَّ تَكَلُّمي وَتَروعُني مُقَلُ الصُّوارِ المُرْشِقِ(٣)

الشاعر مفتون بجمال راعه وأدهشه ، وحمل إلى قلبه المسرَّة ؛ ذلك أن كلامه يملك قلوب الحسناوات إعجاباً ، أما هو فتروق له تلك المُقل التي تطيل النظر وتديمه " وَتَروعُني مُقَلُ الصُّوارِ المُرْشِق " ، فقد استعار عيني البقرة لعيني المرأة ، شبه عينيها بعيني البقرة ، حذف المشبه ، وذكر المشبه به على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية . وفي كلمة « المُرْشِقِ » استعارة تبعية ، شبه نظرات تلك العيون ، وما تحدثه في قلبه بالرشق وهو الرمي بالنبل أو السهام ، بجامع قوة التأثير ، وعظيم الوقع في كل ، ثم اشتق من الرشق بمعنى الرمي «مرشق » بمعنى رام على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية .

والشاعر قصد حسن عيْني البقرة دون النظر إلى باقي صفاتها ، وهو أمر شائع ، والسبب يرجع إلى أنه " قد تشبه العرب الشيء بغيره في

---

(١) ديوان القطامي ٦٩ .

(٢) ديوان القطامي ٣٤ .

(٣) المُرْشِقِ : الإرشاقُ : إحدادُ النظر ، اللسان ١١٧/١٠ .

بعض وجوهه ، فيشبهون المرأة بالظبية والبقرة ونحن نعلم أن في الظباء والبقر من الصفات ما لا يستحسن أن يكون في النساء ، وإنما وقع التشبيه في صفة دون صفة ، ومن وجه دون وجه "(١) .

وللصاحبة جسم كالفضة يتلألؤ صوّر ذلك في قوله (٢):

تَضَعُ المَجاسِدَ عن صفائحِ فِضَّةٍ   بِيضٍ تَرَى صَفَحاتِهِنَّ حِسانَا

فقد شبه جسم الصاحبة بصفائح الفضة في اللمعان والبريق ، حذف المشبه ، وذكر المشبه به على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية ، والمراد بالمجاسد جمع مجسد وهو :ثوب مصبوغ بالزعفران(٣) . وجملة " ترى صفحائهنَّ حسانا" ترشيح للاستعارة .

وفي موضع آخر من القصيدة يستعمل الشاعر " العلل " لتعميم الدهان شعر الصاحبة ، في قوله :

وتَرَى النَعِيمَ على مَفارِقِ فاحِمٍ   رَجِـلٍ تَعُلُّ مُتونَه الأدْهانا(٤)

فالصاحبة لها شعر أسود شديد السواد ، و " فاحِم " استغناءً بالصفة عن الموصوف ، وهو شعر ينهل من الأدهان ، والعَلَلُ : هو الشَّرْبَةُ الثانية حتى قيل : عَلَلٌ بعد نَهلٍ (٥). وهي استعارة تبعية في الفعل ، شبه غمرها الشعر بالأدهان بعد أن أشبعته دهاناً بالعلل ، وهو الشربة الثانية .

والقطامي يحرص على إظهار المرأة بهذه الصورة من الدعة والنعمة ، وربما يعود ذلك إلى رغبته في هذا النوع المترف من النساء خاصة وهو يعيش

---

(١) أمالي المرتضى " غرر الفرائد ودرر القلائد" ، للشريف المرتضى ٢٦/١.
(٢) ديوان القطامي ١٤ .
(٣) اللسان ١٢١/٣ .
(٤) رَجِل : بَيْنَ السُّبوطة والجعودة ، اللسان ٢٧٢/١١ .
(٥) اللسان ٤٦٧/١١ .

حياة تميل إلى البداوة كما سبق أن أشرنا .

ويصف القطامي حلي النساء ، في قوله(١) :

وَعُجْنَ سَوالِفاً وَقَدَتْ عَلَيْها قَلائِــدُها كَمَا تَقِـدُ الجِمــارُ(٢)

فالأعناق أُحيطت بقلائد لامعة ، ومما زاد في رونقها ولمعانها أنها عُلِّقت على أعناق بيض نقية أظهرت توقدها ، فقد أطلق " الوقد " ، وأراد اللمعان، شبه اللمعان بالوقد ، حذف المشبه ، وذكر المشبه به على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية في الفعل " وقدتْ " .

كذلك صوَّر القطامي في شعره صدى حديث النساء ، فأطلق " القتل " على أثر حديثهن ، في قوله(٣) :

يَقْتُلْنَنا بِحَدِيثٍ لِيس يَعْـلَمُهُ مَـن يَتَّقِـينَ ولا مَكْتُـومُهُ بــادِي

فَهُنَّ يَنْبِذْنَ مِن قَوْلٍ يُصِبْنَ به مَواقِعَ الماءِ مِن ذي الغُلَّةِ الصادِي

يشبه الشاعر تأثير حديثهن على من يسمعه أو يتوجهن به إليه بالقتل في الأثر ، وقوة الإصابة " يقتلننا بحديث " ، وهي استعارة تصريحية تبعية ، فحديثهن مثير بالغ الإثارة ، وهو خاص لا يردن لأحد أن يسمعه فيشي به " ولا مكتومة بادي " ، ولذا يمنعنه عن الرقباء والعذال " ليس يعلمه من يتقين " وفي هذا وصف لهن بالتحفظ ، وعدم الابتذال في القول .

ويشبه الشاعر وقع حديث النساء بوقع الماء على الراغب فيه ،

---

(١) ديوان القطامي ٨٣ .

(٢) سَوالِفاً : السالفةُ : أعلى العنق ، اللسان ١٥٩/٩ .

(٣) ديوان القطامي ٨ .

المستزيد منه ، ثم إنهنّ ماهرات عليمات بفن الاصطياد ؛ فما أن ينبذن بكلمة إلا ولهذه الكلمة وقعها على ذي لهفة يكاد يُقتل عطشاً .

وقد وفق القطامي كل التوفيق في اختيار لفظة " ينبذن " في سرعتها وقوة ايحائها ، وإخفاء نوع القول بعدها .

وقوله "يُصِبْنَ به مَواقِعَ الماءِ مِن ذي الغُلَّةِ الصادِي " غاية في الرقة والعذوبة والعفة ، فقد عف الشاعر عن التصريح ، واستغنى بـ " المواقع " عن تسمية هذه المواقع ، وفي هذا تلميح أبلغ من التصريح .

واللفظتان " الغُلَّة " و " الصَّادي " ، وما تومئان إليه من حرقة وتعطش ، وقد عبرتا عن شدة الوجد والهُيام والظمأ ، والالتياع بالغُلَّة التي جسدت حالة العاشق ، حيث اتسعت اللفظة ذاتها لاستيعاب هذا الحشد الهائل من المعاني دونما حاجة إلى أية مبالغة ، وهنا تكمن روعة البلاغة ، وقد عدَّها الشيخ عبد القاهر الجرجاني غرض الشاعر من قوله : " وجدتك لا تحصل على معنى يصحُّ أن يقال إنَّه غرض الشاعر ومعناه إلاَّ عند قوله ذي الغُلَّة"(١) .

أما لفظة " الصادي " فجاءت متممة بحسن التقفية ؛ لأن الغُلَّة تفوق "الصدى " من حيث القوة في الترتيب ، ذلك أن " أول مراتب الحاجة إلى شرب الماء العطش ، ثم الظمأ ، ثم الصَّدى ، ثم الغُلَّة ، ثم اللُّهْبَة "(٢) .

وفي المواهب الفتحية ، للشيخ حمزة فتح الله – رحمه الله تعالى – مقارنة عقدها بين قول عمر بن أبي ربيعة :

قال لي صاحبي ليعلم ما بي أَتُحبُّ القَتُولَ أخْتَ الرَّبابِ
قلت وجدي بها كوجدك بالما ء إذا ما مُنِعْتَ* بَرْدَ الشراب

---

(١) يُنظر : دلائل الأعجاز ٥٣٥ .
(٢) فقه اللغة ، للثعالبي ١٦٦ .

وبين قول قيس بن ذريح :

حلفت لها بالمشعرين وزمـــزم وذو العرش فوق المقسمين رقيب
لئن كان بَرْدُ الماءِ حرَّان صادياً إلـــى حبيبـاً إنهـا لحبـيب

وقول القطامي :

يَقْتُلْنَنا بحَدِيثٍ ليـس يَعْـلَمُه مَـن يَتَّقِـينَ ولا مَكْتـومُه بـادِي
فَهُنَّ يَنْبِذْنَ مِن قَوْلٍ يُصِبْنَ به مَواقِعَ الماءِ مِن ذي الغُلَّةِ الصادِي

والمقارنة لدى الشيخ هي بين ثواني الأبيات - كما ذكر - وقد حكم بالأفضلية لبيت القطامي ؛ لأنه " أطلق ذلك الماء ولم يصفه ، ولا شرط ولا علَّق وإن كانت السلاسة تقطر من مائه المطلق "(١) .

غير أن فضل قول القطامي لا يقتصر على ما ألمح إليه الشيخ - على حسنه - بل يزيد أنه كان في موقف المخبر عن حقيقة يراها من الوضوح والصدق بحيث تتعاضد الكلمات الدالة الموحية من " يقتلن " و " ينبذن " و "يصبن " ، وتأمل هذا القتل الذي نجم عن نبذ وكأنه رشق سهام لم تطش ، فإنهن " يصبن " ، ويصبن المقتل الذي كشفت عنه العبارة البليغة الموحية "مواقع الماء من ذي الغُلَّة " ، وإذا أصبن إصابة على هذه الدرجة من التمكن ، فهي القاتلة لامراء ، والقتل هنا يعني شدة التعليق ، وشدة الإثارة في وقت واحد ، ومفتاح ذلك كله " ذي الغلة " على نحو ما أشار الإمام عبد القاهر .

وجاء ت استعارة القتل في شعر القطامي للأعناق ؛ فللنساء أعناق طويلة تستثير في النفس غيرة قاتلة ، وصف ذلك بقوله :

تَنـازَعْنـا الحَديـثَ فَحدَّثَتْنا عَطابِيـلُ تُقَتِّلُ مَـنْ يَغـارُ

ووصف القطامي منزلة الصاحبة فأطلق الروضة وأراد بها مكانتها ، في قوله(٢) :

أذلكَ أَمْ بَيْضَــاءُ مِلأنْسِ حُـرَّةٌ أتاها بوُدِّ الصدْرِ منِّي الخَطاطفُ
لهَا رَوْضَةٌ في القَلْبِ لَمْ تَرْعَ مِثْلَها فَرُوكٌ ولا المُسْتَعْبِراتُ الصَلائـفُ

---

(١) المواهب الفتحية ، للشيخ حمزة فتح الله ١٣٢/٢ .
(٢) ديوان القطامي ٢٦ .

الصورة تشير إلى أن للصاحبة أرفع مكان في القلب ، وأنضره ، وأبهجه ، وقد جعله الشاعر " روضة " حتى لا تمله ، وقوله " لها روضة " أسلوب استعارة ، شبه مكانة الصاحبة بالروضة ، حذف المشبه ، وذكر المشبه به على سبيل الاستعارة التصريحية، و " لم ترع مثلها " ترشيح للاستعارة .

ويذكر الشاعر أن حسنها ودلّها يشبه بالخطاطف التي تنتزع الشيء انتزاعاً ، حيث اختطفت ودّهُ إليها ، وعلقتها الأشواق ، والعواطف ، وقد قصد قوة تأثير الصاحبة وسرعة جذبها ، فالخُطّاف : الحديدة المعوجة كالكلوب يختطف بها الشيء[1].

وقوله " لها روضة " تعبير بديع رائع ، أفاد معنى التفرد، فهذا التخصيص للمحبوبة ، ليس لفروك يبغضها الرجال[2] ، ولا لصلائف يكرههن أزواجهن محل فيه ، ولا مكان حتى لمستعبرة تبكي من عدم حب زوجها لها ، فالصاحبة تنفرد وحدها بقلبه لا يشاركها فيه أحد ، فود قلبه مكنون بعيد غير مبذول للنساء على خلاف ما قال في غير هذا !

وفي قوله « أذلك » المشار إليه الخمر التي انصرف عنها إلى المرأة ، وفي النسيب نجد الصلة وثيقة بين الخمر والمرأة ، فبعد أن وصف القطامي الخمر ودنانها ، وكؤوسها ، ومجلسها ، والشراب انتقل إلى الصاحبة ، فذكر ما اجتمع لها من صفات فهي بيضاء" من الإنْس حُرَّةٌ " .

وفي موضع آخر يشبه قلبه بالشيء المرهون ، في قوله[3] :

حلَّتْ جَنُوبُ قُمَيقْما بِرَهِينِها فمتى الخَلاصُ لذا الرَهـينِ المُغْـلَقِ
وَنَأَتْ بِحاجَتِنا وَربَّتَ عَنْـوَةٍ لَكَ من مَواعِدِها التي لَـمْ تَصْـدُقِ
كَعَناءِ لَيْلَتِنـا التـي جُعِلَتْ لَنا بالقَرْيَتَيْـنِ ولَيْلَـةٍ بالخَنْـدَقِ

---

(١) اللسان ٧٦/٩ .

(٢) المرجع السابق ٤٧٤/١٠ .

(٣) ديوان القطامي ٣٥ .

أَوْ قَبْلَ ذَاكَ إِذِ الحَيَـــاةُ لَذِيذَةٌ وإِذِ الزَمَـــانُ بِصَفْـوِهِ لم يَرْنَـقِ

فقد شبه الشاعر انحباس قلبه بالرهن الذي لا فكاك له ، واستعار الرهن للقلب ، واشتق منه " رهين " على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية ، كما صوَّر تباعد الصاحبة عنه بشئونها بعد أن صار قلبه في هواها كالرهن المُغلق ، وعجيب من الشاعر أن ينتظر الخلاص منه ، وكان الأجدر به أن لا يتمنى ذلك ، فقديماً عاب النقاد على جميل قوله :

فلو تركتْ عقلي معي ما طلبتها ولكن طلابِها لِمَا فات من عقلي

فلا يطلبها لذاتها ، وإنما يطلب عقله بأن تعيده إليه فقوله " فلو تركتْ عقلي معي ما طلبتها " موحشٌ ؛ لأنه ينفي طلبها إذا كان له عقل ، جاء في الموشح : " اجتمع بالمدينة راوية جرير وراوية نُصَيب وراوية كُثَيِّر وراوية جميل وراوية الأحوص ، فادَّعى كلُّ رجل منهم أن صاحبه أشعر ، ثم تراضوا بسُكينة بنت الحسين فأتوها فأخبروها ، فقالت لصاحب جميل : أليس صاحبك الذي يقول :

فلو تركتْ عقلي معي ما طلبتها ولكن طلابِها لِمَا فات من عقلي

ما أرى لصاحبك هوىً ، إنما يطلب عقله ، قبَّح الله صاحبك ، وقبح شعره"(١).

ويذكر القطامي ما يلقاه منها بسب إخلافها المواعيد " وربُتَّ عنوة لك من مـواعـدها التي لم تصـدق " ، وقـوله "كَعَناءِ لَيْلَتِنـا التـي جُعِلَتْ لَنا بالقَرْيَتَيْـنِ ولَيْلَـةٍ بالخَنْـدَقِ " استشهاد وبرهان منه على ما لاقاه في تلك الليلة من خلف الوعد ، فقد نأت بحاجته ، ولم تقضِ له ما تمناه ، الأمر الذي أشقى قلبه وأتعبه .

ونسبة المشقة إلى الزمن من قبيل المجاز العقلي ، وجملة " إذا الزمان بصفوه لم يَرْنَقِ " أسلوب استعاري ، استعار " الماء " للزمن ، حذف المستعار منه ، ورمز له بشيء من لوازمه وصفاته وهو " الرَّنْقُ " على سبيل الاستعارة

---

(١) يُنظر : الموشح ، للمرزباني ٢٥٣ .

المكنية .

وفي شعر النسيب استخدم الشاعر كلمة " الحبل " في موضعين ، فقد استعاره للأسباب التي يتوصل بها إلى النساء، وللوصل ، ومن الأول قوله[١] :

وإذا وَعَدْنَ فهُنَّ أكْثَرُ واعدٍ خُلُفاً وأملح حانثٍ أيْمانَا
وإذا رَأَيْنَ من الشَبابِ لدُونَةً فَعَستْ حِبالُكَ أنْ تكونَ مِتانَا[٢]

وهو شعر نسب فيه القطامي إلى الغواني خلف الوعد ، والكذب ، وكثرة الحلف، والميل إلى الشباب ، وقوله " فَعَستْ حِبالُكَ أنْ تكونَ مِتانَا "أسلوب استعارة ، شبه الأسباب القوية التي يتوصل بها إليهن بالحبال ، حذف المشبه ، وذكر المشبه به على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية .

والصورة تصف ما ينبغي أن يكون عليه حتى يحظى بالقرب منهن ، ولكي تقوى الروابط بينه وبينهن ، وذلك إذا أغراهن الشبان ، وانحزن إلى الشباب لما فيه من حيوية .

ومن استعارة " الحبل " للوصل قول القطامي[٣] :

بانَتْ رَمِيمُ وأَمْسَى حَبْلُها رِمَمَا وطاوَعَتْ بِكَ مَن أغْرَى رمَنْ صرَما[٤]
ولَمْ يكُنْ ما ابْتَلَيْنا مِنْ مَواعِدِها إلاَّ التَّهاتَهُ والأُمْنِّيَةَ السَّقَما[٥]

مطلع قصيدة يستهلها الشاعر بالتعبير عن فراق الصاحبة ، وانقطاع وصالها ، وطاعتها العاذلين ، وفي قوله " أمسى حبلها رمما " استعارة تصريحية أصلية، استعارة محسوس وهو " الحبل " لمعقول " العهد " ، فقد شبه العهد

---

(١) ديوان القطامي ١٥ .
(٢) لدُونة : اللَّدْنُ : الليِّنُ من كل شيء ، اللسان ١٣/٣٨٣ .
(٣) ديوان القطامي ٦٨ .
(٤) رِمَمَا : رَمَّ الحبل : تقطع ، اللسان ١٢/٢٥٢ .
(٥) التَّهاتَهُ : الأباطيل والتُرهاتُ ، اللسان ١٣/٤٨٢ .

بالحبل بجامع الوصل والربط في كل منهما ، فكما أن الحبل يربط بين الشيئين فكذلك العهد يربط بين المتعاهدين ، والقرينة حالية .

وهي من مراتب الاستعارة التي ذكرها الشيخ عبد القاهر الجرجاني في قوله :

" وضرب ثالث وهو الصميم الخالص من الاستعارة ، وحدُّه أن يكون الشبه مأخوذاً من الصور العقلية ، وذلك كاستعارة النور للبيان والحجة الكاشفة عن الحق المزيلة للشك النافية للريب ، كما جاء في التنزيل من نحو قوله عز وجل ﴿ واتَّبَعوا النور الذي أنزل معه ﴾، وكاستعارة الصراط للدين في قوله تعالى﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ و ﴿ انك لتهدي إلى صراط مستقيم ﴾ فإنك لا تَشُكُّ في أنه ليس بين النور والحجة ما بين طيران الطائر وجري الفرس من الاشتراك في عموم الجنس ؛ لأن النور صفة من صفات الأجسام محسوسة والحجة كلام .. واعلم أن هذا الضرب هو المنزلة التي تبلغ عندها الاستعارة غاية شرفها ، ويتسع لها كيف شاء ت المجال في تفنُّنها وتصرُّفها "(١) .

فالحبال رمز للوشائج ، والعلائق ، والصورة تظهر ما أصاب تلك الرابطة والوصلة التي تجمع الشاعر بالصاحبة ، حيث انحلَّت العهود بعد التحامها وقوتها ، وتقطع ما كان موصولاً بينهما . يقول الزمخشري " النقض الفسخ وفك التركيب - فإن قلت - من أين ساغ استعمال النقض في إبطال العهد - قلت - من حيث تسميتهم العهد بالحبل على سبيل الاستعارة لما فيه من ثبات الوصلة بين المتعاهدين ومنه قول ابن التيهان في بيعة العقبة يا رسول اللّه إن بيننا وبين القوم حبالاً ونحن قاطعوها فنخشى إن اللّه عز وجل أعزّك وأظهرك أن ترجع إلى قومك "(٢) .

---

(١) أسرار البلاغة ٦٠ .

(٢) الكشاف ، للزمخشري ١/٥٨ .

والقطامي يرى أن مواعيد المحبوبة من المحال أن تصدق ؛ فهي أباطيل ، وترهات يبرأ منها ، فقد حمّلته هماً وعناءً ، بعد أن أطاعت الوشاة "وطاوعت بك من أغرى ومن صرما " .

كما استعار القطامي الحبل للعهد ، في قوله(١) :

وَحَبْلٍ مِنْ جُمانَةَ مُسْتَجَدٍّ ... أَبَيْتُ لأَهْلِهِ إلاّ ادِّكارا
يُطالِعُني بِدُومَةَ يا لَقَوْمٍ ... إذا ما قُلْتُ قَدْ نَهَضَ اسْتَحارا(٢)

يشبه الشاعر الوصلة بينه وبين الصاحبة بالحبل المستجد ، فيشير إلى الرباط القوي الذي يتجدد باستمرار عواطفه ، وتشبيه العلاقة الودودة التي يحرص الشاعر على بقائها بحبل يُعمل على تقويته ، وإحكام فتله استعارة تصريحية أصلية .

استعار الحبل لعهد المحبة الذي يربطه بالصاحبة ، حيث يعذب التذكر والحنين " أَبَيْتُ لأَهْلِهِ إلاّ ادِّكارا " وكلمة « مُسْتَجَدّ » فيها معنى الطلب ، فهي تطلب وتريد منه أن يجدده .

يستغيث بقومه ، وبكل القوى التي حوله لتخلصه مما هو فيه " يا لقوم " ، ووراء هذه الزفرة فرط الشوق والصبابة ، و " نهض " تشير إلى تلويح الأمل الذي تحول إلى وهم " إذا ما قلتُ قد نهض استحارا " .

وفي شعر النسيب نجد ذكر الطيف في قول القطامي (٣):

---

(١) ديوان القطامي ٦١ .
(٢) استَحارا : لم يهتد لسبيله ، اللسان ٤/٢٢٢.
(٣) ديوان القطامي ٣٢ .

طَرَقَتْ جَنُوبُ رِحالَنَا من مَطْرَقِ   ما كُنْتُ أَحْسِبُها قَرِيبَ المُعْنَقِ
قَطَعتْ إِلَيْكَ بِمِثْلِ جِيدِ جَدَايَةٍ   حَسَنٍ مُعَلَّقُ تُومَتَيْهِ مُطَوَّقِ(١)
هَلاَّ طَرَقْت إِذِ الحَيَاةُ لَذِيذَةٌ   وإِذِ الشَبَابُ قَمِيصهُ لَمْ يُخْلَقِ
طَرَقَتْ نَوَاحِلَ حُلِّلَتْ بِمُعَرَّسٍ   ونُسُوعُها بِرِحالِهَا لَمْ تُطْلَقِ

مطلع قصيدة ابتدأها الشاعر بالتعجب والدهشة حين زاره خيال الصاحبة من مكان لم يكن يتوقع قدومها منه بهذه السرعة ، "ذلك أن عنصر التخيل يلعب الدور الأساسي في لوحة الطيف ، ولذا يكثر تعجب ودهشة الشاعر من زيارة طيف المحبوبة بالرغم من بعد المسافة الزمانية والمكانية ، وتسلله إليه بعد أن رقد رفاقه ، وتركوه لعالم خياله الشخصي ، وهذا بخلاف الطلل والنسيب مما يستند على الأمور المعاشة اليومية ، وما يتمخض عنها من معطيات في حدود الزمان والمكان (٢).

ويصور الشاعر مكان القلادة منها ، فقد وضعت على جيد جميل يشبه جيد الظبية في الطول والحسن " قطعت إليك بمثل جيد جَدايَةٍ " ، كما أن لها قرطين كاللؤلؤتين تزدان بهما أذناها وقوله " حَسَنٍ مُعَلَّقُ تُومَتَيْهِ مُطَوَّقِ " وصف للمشبه .

والشاعر يأنس بطيف الصاحبة ، وفي الوقت ذاته يتحسر فقد زاره بعد فوات لذة الحياة والشباب "هلا طَرَقْتِ إِذِ الحَيَاةُ لَذِيذَةٌ وإِذِ الشَبابُ قَميصهُ لَمْ يُخْلَقِ "، والشاعر يعبر عن ذهاب الشباب باستعارة " القميص " له ،فقد شبهت نضارة الشباب بالقميص ، ووجه الشبه أن كلا منهما يزيد صاحبه رونقاً وبهاء . ويمكن أن تكون استعارة مكنية شبه الشباب بإنسان ، واستعير الإنسان للشباب ، ذكر المشبه ، وحذف المشبه به ، ورمز له بلازم من لوازمه وهو " القميص " .

كما يطالعه طيف المحبوبة بعد رحيل أصاب الركائب بالهزال والنحول، فهي في نسوعها لم تفك " ونُسُوعُها بِرِحالِهَا لَمْ تُطْلَقِ " .

---

(١) تُومَتَيْهِ : التُومةُ : اللؤلؤة ، والتُّومةُ : القُرْط فيه حبَّة ، اللسان ٧٤/١٢.
الطَّوْقُ : حَلْيٌ يجعل في العنق ، اللسان ٢٣١/١٠.

(٢) يُنظر : " حول مدلولات رموز المرأة في مقدمة القصيدة العربية قبل الإسلام " للدكتور : محمود عبدالله الجادر ٢٨٨ ، ٢٨٩ .

الرحلـة :

رسم القطامي في شعره صوراً فنية نقل لنا معها إحساسه إزاء رحيل الأحبة ، الذي أصاب قلبه باللهفة، وملأه بالوجد والحنين .

ومما قيل عن الرحلة إلى ديار الصاحبة في شعر القطامي ما ذكر في وصف حركة الرَّكب ، وتحديد مكانه ، ومنها ما وقفه على الرحلة من أجل الصاحبة ، ومنها ما بني على التمني ، إلى جانب ما ذكره في وصف الظعائن، ومشاهد ارتحالهم .

وقد جاء وصف حركة الرَّكب ، وذلك في " اللامية " حيث يقول(١) :

حتَّى وَرَدْنَ رَكيَّات العَوير وقــد كاد المُلاءُ مِــنَ الكتَّانِ يَشْتَعِلُ(٢)
وقد تَعَرَّجْتُ لَمَّا وَرَّكَتْ أَرَكــاً ذات الشمالِ وعن أيْماننا الرجلُ(٣)
عَلَى مُنادٍ دَعانَا دَعْوَةً كَشَــفَتْ عَنَّا النُعاسَ وفــي أَعْناقنا مَيَلُ
سَمِعْتُها وَرِعانُ الطَوْدِ مُعْرِضَــةٌ من دُونِها وكَثِيبُ العَيْثَةِ السَهِلُ(٤)
فقُلْتُ للركْــبِ لَمَّـا أَنْ عَـلاَ بِهِـمُ مِنْ عَنْ يَمِــينِ الحُبَيَّا نَظْرَةٌ قَبَلُ(٥)
أَلَمْحَةً مِنْ سَنَا بَرْقٍ رَأَى بَصَرِي أَمْ وَجْــهَ عالِيَــةَ اخْتالتْ بِهِ الكِلَلُ
تُـهْدِي لنا كُلَّـما كانَـتْ عُلاوتَنـا
رِيحَ الخُزامَى جَرَى فِيها النَدَى الخَضِلُ

يصوِّر الشاعر رحلته إلى ديار الصاحبة ، وقد دعاه الشوق إليها "دَعَانَا دَعْوَةً كَشَـفَتْ عَنَّا النُعـاسَ "وجملة " كشـفتْ " عـبَّرت عن لذَّة المفـاجـأة ؛إذ جـعلت الشاعر فجأة أمام ذكرياته ، والجملة الحالية " وفي أعناقنا ميل " تطلق للخيال العنان في تصور ما تلا ذلك ، ويذكر الشـاعر تدلـهه وحيرتـه حين يسأل نفسه " ألمحة من سنا برق رأى بصري " ، ثم يقف قليلاً عند الصاحـبة " تُهْدي لنا كُلَّمـا كـانت عُلاوتَنا " ، وهذا الموقف بهذه التـفـاصيل غير مـوقف النابغـة في قصيدته(٦) :

---

(١) ديوان القطامي ٥ .

(٢) يعني بالكتاب هاهنا القطن ، ركيَّـة وركيَّات وركايا .وهي آبارٌ، والغوير بلد ، والكتَّان يشتعل من الحرّ .

(٣) تعرّجتُ تمكّثتُ ، وركّتْ عدلت عنها ، والرجَل مسايلُ الماء ، وأركٌ موضع.

(٤) رعان أُنوف جبال ، مُعْرِضة هي بيني وبينها يعني عُليَّة، والعيثة بالشام ، والطود جبلٌ . ينْظر : الديوان ط. ليدن ٥ .

(٥) الحُبَيَّا : موضع بالشام . يُنظر : معجم البلدان ، لياقوت الحموي ٢١٣/٣. قَبَلُ : كُلُّ شيءٍ أوّلَ ما يُرى فهو قَبَل ، اللسان ٥٣٨/١١ .

(٣) ديوان النابغة الذُبياني ٢٠٢ .

عُوجُوا فحيُّوا لِنُعْم دِمْنَـةَ الدَّار ماذا تَحيُّونَ من نُؤْي وأحْجَار
ألمحةٌ من سَنَا برق رأى بَصَري أم وَجْهُ نُعْم بدا لي أم سَنَا نارِ

والقطامي في طريقه إلى ديار الصاحبة نراه مشوقاً إلى كل معلم يمرُّ به ؛ فيرسم صورة للريح القادمة من جانبها " ريح الخزامى جرى فيها الندى الخَضلُ " وهي استعارة تصريحية ، استعار الجريان لانتشار الندى الذي تحمله الريح.

والصورة سوف يأتي الحديث عنها في " مصادر التصوير البياني في شعر القطامي . .

وفي قوله " اختالت به الكلل " أسلوب استعارة ، فالكِلَّة : السِّتر الرقيق(١) ، فقد جعل الستور تختال بالصاحبة ، وتزدان بطلعتها .

كما جاء ذكر رحلة الصاحبة في قوله(٢) :

دَعاني الهَوَى إذْ شَرَّقَ الحَيُّ غُدْوَةً وما كُنْتُ تَدْعُوني الخُطُوبُ الضَعائفُ
وهَيَّجَ أَحْزاني حُمولُ تَرَفَّعَـت عَلَيْهِـنَّ غِـزْلانٌ عَلَيْهـا الزَخـارِفُ
وبالأَمْسِ قَدْ كانَتْ بَدَتْ لِيَ طيرُهُمْ جَرَتْ بارِحـاً لَوْ زَجَرَ الطيْرَ عائـفُ

يرسم الشاعر صورة فنية لمنظر ارتحال الأحبة ، بعد أن راح يلبي نداء داعي الهوى ، وفي قوله " دعاني الهوى " استعارة مكنية ، شبه الهوى بمنادٍ ، ذكر المشبه ، وحذف المشبه به ، ورمز له بلازم من لوازمه وهو " الدعاء " ، حيث جعل الشيء للشيء وليس له ، كما أن في الصورة تشخيصاً إذ جعل الهوى في هيئة شخص له القدرة على أن يجذب إليه إنساناً عُرف بالهمة العالية ، ولم يك ينصاع للأمور اليسيرة " وما كنتُ تدعوني الخطوب الضعائف " ، إلا أنه يعترف بضعفه أمام سلطان الهوى .

وجملة " إذ شرَّق الحيُّ " أضافت بُعداً في تعميق المعنى ،وقد كشفت عن سرِّ لوعته ، فهو رحيل شرَّق معه أحبابه وابتعدوا مما أيقظ مواجعه ، وأهاج أحزانه .

والتضعيف في كلمة " شرَّق " أضاف بُعداً في تعميق المعنى ، والصورة في قوله " وهَيَّج أحزاني حمولٌ ترفّعت " من المجاز العقلي .

والتعبير بالماضي " ترفّعت " حمل معنى التحسر مما يُشعر بأنهن قد رحلن رحلة عازمة .

---

(١) اللسان ١١/٥٩٥ .

(٢) ديوان القطامي ٢٤ ، ٢٥ .

ثم إنَّ الحمول حين مضت أخذت معها أعزَّ ما يحرص عليه الشاعر ، وخلفت وراء ها حزناً مقيماً لا زال يشكو منه ويئن .

ويصف ظعن الأحبة ، فالحمول التي تحملهن مزخرفة ، والزخارف التي تكون على هوادج النساء إنما هي ضرب من الزينة والبهاء ، والإشارة إلى النعمة ، وكأن الحمول تزين بزينة النساء ما دامت محملاً لهن !

وفي قوله " عليهن غزلانُ " أسلوب استعارة ، شبه النساء بالغزلان ، حذف المشبه ، وذكر المشبه به على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية .

والصورة تصف هؤلاء النسوة ، وأنهن يشبهن الغزلان في الجمال والملاحة .

وقوله " جرت بارحاً لو زَجَرَ الطير عائِفُ " كناية عن التنبؤ بالرحيل بزجر الطير " وذلك أن السانح مَرْجُوٌّ عند العرب ، والبارح : هو المخوف "(١) .
"وأصل التطير أنهم كانوا في الجاهلية يعتمدون على الطير فإذا خرج أحدهم لأمر فإن رأى الطير طار يمنة تيمن به و استمر ، وإن رآه يسرة تشاء م به ورجع ، وربما كان أحدهم يهيج الطير ليطير فيعتمدها ، فجاء الشرع بالنهي عن ذلك ، وكانوا يسمونه السانح ، والبارح ، فالسانح ما ولاك ميامنه بأن يمر عن يسارك إلى يمينك ، والبارح بالعكس "(٢) .

وهناك فن آخر لم يكن وصفاً للرحلة ، وإنما بني على التمني عبَّر عنه القطامي في أبيات منها(٣) :

أَبَتِ الْخُروجَ مِنَ العِـراقِ ولَيْتَها رَفَعَتْ لنا بِقُطَيْقِـطَ الأَظْعـانَا(٤)

---

(١) مروج الذهب ، للمسعودي ١٦٩/٢ .

(٢) فتح الباري ، لأحمد بن حجر العسقلاني ٢١٢/١٠، ٢١٣.

(٣) ديوان القطامي ١٤ ، ١٥ .

(٤) قُطَيقِط : ماء بين سَوَاد العراق واليمامة . يُنظر: معجم ما استعجم ، للبكري ١٠٨٤/٣ .
الأظْعانَا : الظَّعِينة : المرأة في الهودج ، اللسان ٢٧١/١٣ .

فتَحُلُّ حيْـثُ تَقَـرُّ أعْيُنُنـا بهـا فنَـرى أُمَيْمَـةَ فيْنَةً فتَـرانَا
رَمَتِ المَقَاتِلَ مِنْ فُـؤادكَ بَعْـدَمـا كانَـتْ جَنُوبُ تَدِينُكَ الأدْيانَا

الصورة نقلت لنا أمنية يتحقق ببلوغها أقصى أماني الشاعر ؛ حيث يطيب له العيش ، وتَقرُّ عينه بـ " أميمـة " وتسعد ، فقد تطلع قلبه إلى يوم تحل فيه قريباً " فتَحُلُّ حيث تَقَرُّ أعيننا بها فنرى أميمة فينه وترانا " ، ثم انظر إلى هذه الراء ات المتكررة ، وقد أحدثت إيقاعاً موسيقياً منتشياً فيه من الخفة والعذوبة والرقة ما تلذ له الأذن وتطرب .

ويصوِّر الشاعر أثر هذه العاطفة ، فهي رمية استهدفت صميم القلب، وقوله " رمت المقاتل من فؤادك " وصف دقيق أبرز مدى التمكن والاقتدار في إصابة الهدف ، فمقاتل الانسان مقصود بها المواضع التي إذا أصيبت منه قتلته[١] .

وقد كان ذلك منها بعد أن كانت " جنوب " تستعبده ، وتُذيقه ألواناً من الهوان " بعد ما كانت جنوب تدنيك الأديانا " .

ويصف القطامي أثر رحيل الظعائن ، في قوله[٢] :

كَنيَّةِ الحَيِّ من ذِي الغَضْبَةِ احْتَمَلُوا مُسْتَحْقِبِينَ أسيراً ما له فادِي[٣]
أَرْمي قَصيدهُمْ طَرْفِي وقد سلَكُوا بطْنَ المُجَيْمِرِ فالرَّوْحاءِ فالوادِي[٤]
مُحَدِّدِينَ لِبَرْقٍ صَابَ في خِيَمٍ وبالقُرَيَّةِ رادُوهُ بِـرُوَّادِ

---

(١) يُنظر : اللسان ١١/ ٥٥ .
(٢) ديوان القطامي ٨ .
(٣) احتملوا : ذهبوا وارتحلوا ، اللسان ١١/١٧٨ .
(٤) قصيدهم : قَصَدْتُ قَصْده : نحوت نحوه ، اللسان ٣/٣٥٣ .
المُجيْمر: أرض لبني فزارة . يُنظر : معجم ما استعجم ، للبكري ٤/١١٨٧.
الروْحاء : قرية من قرى بغداد . يُنظر : معجم البلدان ، لياقوت الحموي ٤/٢٩٧.

يصف الشاعر وقع رحيل الأحبة على نفسه في صورة بلاغية جسدت ذلك الأثر " مستحقبين أسيراً " ؛ فبعد أن عزم أحبته على الرحيل ، واضمروا النيَّة متوجهين من ذي الغضبة آخذين معهم فؤاده أسيراً لا فداء له ، ويشبه استصحابهم له بمن يؤخذ مجتمعاً في حقيبة ، وهي استعارة مكنية ، وكون القلب يجمع ليودع في حقيبة مما يثير الدهشة والاستغراب ، وهو تصوير لمدى استحواذهم عليه ، وبشكوى الشاعر من الأسر ، لأن الأسير الذي لا يصل إلى غرضه من آسريه يُسَر بفدائه منه .

فالوجهة واضحة وصفها بقوله " مُحددين لبرق صاب في خيم " ، ومحددين : يقال : حَدّد فلان بلداً أي قصد حدوده(١) ، والشاعر يتبع هؤلاء الأحبة بطرفه ، ورمي الطرف يعني التتبع بالنظر والملاحقة ، فهو ينظر جهتهم ، وهم يسلكون طريق المجيمر فالروحاء فالوادي .

ويطلق القطامي " الداء " ويريد به شدة المعاناة ، في قوله (٢):

بِعيْنَيْكَ تَنْظارُ إلى كُلِّ هَــوْدَجٍ وكُلِّ بَشِــيرِ الوَجْهِ حُرٍّ مَسافِرُه

تَراهُ وما تَسْطِيعُهُ غَيْــرَ أَنَّــهُ يَكونُ على ذي الحِلْمِ داءً يُخامِـرُه

يجرد الشاعر من نفسه شخصاً آخر يبثه شكواه ، ويخاطبه وذلك في قوله "بِعيْنَيْكَ تَنظارُ إلى كُلِّ هَــوْدَجٍ " ، فقد شغف بكل ذات هودج ، وهو من المجاز المرسل ، أطلق المحل ، وأراد الحال ، وقد دلّ على دقة تربص الشاعر للعثور على ذلك الغزال بصفاته ، حيث يُعدُّ قصر حُبِّه وتعلقه تعلقاً عاماً ، فهو يُحبُّ لأجله كُلَّ ذاتِ هودج .

واستخدام لفظة " تَنْظارُ " حملت في طياتها معنى الترقب الدائم ، وتواصل الشاعر المستمر بالظعائن ، وتطلعه إلى الهوادج أثناء الرحيل ،

---

(١) اللسان ٣/١٤٣ .

(٢) ديوان القطامي ٢٠ .

والافتتان بالنظر إلى كل وجه حسن " وكل بشير الوجه حُرٍّ مسافره " ، وإن كان يراه ولا يستطيع الوصول إليه ، وهذه الرؤية مع عدم الاستطاعة يشبهها بالداء " يكون على ذي الحلم داءً يخامره " ، وذلك للتعبير عما يلاقيه ويعانيه ، ولفظة " يخامره " بمعنى يخالطه ، والمُخامِرُ : المُخالِطُ : من خامره الداءُ إذا خالطه[1] .

وفي شعر المرأة نلمح شكوى القطامي من إعراض الكواعب ، ونفورهُنَّ من الشيب حيث يقول[2] :

ما لِلكواعِبِ وَدَّعْنَ الحياةَ كما ... وَدَّعْنني واتَّخَذْنَ الشَّيْبَ مِيعادِي
أَبْصارُهُنَّ إلى الشُّبَّانِ مائِلَةٌ ... وقد أُراهُنَّ عَنّي غَيْرَ صُدَّادِ
إِذْ باطِلي لَمْ تَقَشَّعْ جاهِلِيَّتُهُ ... عَنِّي ولم يَتْرُكِ الخُلَّانُ تَقْوادِي

يتساءل الشاعر في استفهام استنكاري عن حال الكواعب معه داعياً عليهن بالموت " ودَّعْنَ الحياة " أي أماتُهنَّ اللّه ؛ فقد فارقنه بعد أن وخط الشيب رأسه .

ويصف شدة ميلهن للشباب " أبصارهن إلى الشبان مائلة " ، وفي إسناد الميل إلى الانظار مجاز ، ومع هذا فإنهن لم يعرضن عنه في حال شبابه الذي عبَّر عنه بقوله " إذ باطلي .." . .

ويذكر الشاعر ما كان عليه من تصابٍ ولهو " إذ باطلي لم تقشَّعْ جاهليّتُهُ " ، وقد أفاد الخبر غرضاً بلاغيّاً وهو إظهار التحسر على حياة أمضاها في اللهو والعبث .

وفي العبارة أسلوب استعارة ، شبه الجهالة والغي بظلام غَشِيَه ، وحال دون رؤية الهدى ، ذكر المشبه ، وحذف المشبه به ، ورمز له بلازم من

---

(١) اللسان ٤/٢٥٥ .
(٢) ديوان القطامي ٧ .

لوازمه وصفاته وهو " الانقشاع " على سبيل الاستعارة المكنية ، كذلك في " تقوادي " استعارة بليغة ؛ حيث شبه نفسه بالبعير الذي يُقاد ، ولا يملك من أمر نفسه شيئاً ، وحذف المشبه به ، ورمز له بشيء من لوازمه وهو الانقياد. ويبدو أن القطامي يشير هنا إلى أنه كان جارياً طلقاً مع أصحابه يذهبون به مذاهب اللهو ، ولا يستطيع لهم خلافاً .

كما نجده يسخط على الكواعب ، في قوله(١) :

لُعِنَ الكَواعِبُ بَعْدَ يَوْمِ صَرَمْنَني   بِشَرى الفُراتِ وبَعْدَ يَوْمِ الجَوْسَقِ(٢)
عَدَّيْنَ كُلَّ تَحِيَّـــةٍ يَعْلَمْنَهـــا   ونَفَـرْنَ مِـنْ شَمَطٍ تَغَشَّى مَفْرِقي
وأَبَيْـنَ شِيمَتَـهُنَّ أَوَّلَ مَـرَّةٍ   وأَبَـى تَقَلُّبُ دَهْـرِكَ المُتَصَفِّـقِ(٣)

يوجه الشاعر إلى الكواعب عتاباً في لهجة جافة مُنكراً عليهنَّ الصد والاجتناب ؛ فهو يدعو عليهن يوم هجرنه ، وقد تجاوزن كل ما مضى من إلف صادق ومودة " عَدَّيْنَ كُلَّ تَحِيَّـــةٍ يَعْلَمْنَهـا " .

وفي قوله " ونَفَـرْنَ مِـنْ شَمَطٍ تَغَشَّى مَفْرِقي " أسلوب استعارة ، شبه انتشار الشيب بالغطاء بجامع الشمول في كل منهما ، حذف المشبه ، وذكر المشبه به على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية في الفعل " تَغَشَّى " ، ولفظة " نَفَرْنَ " معبِّرة ومؤثرة في موقعها ، ففيها تكمن لوعة الشاعر وحزنه ، والبدء بـ " لُعِنَ " دلَّ على الحسرة ، وقد زادها رسوخاً الدعاء عليهن بقوله : "..ودَّعن الحياة كما ودعنني " وذلك في المقطوعة السابقة .

فهو شعر هاجم فيه القطامي المرأة حين تقدمت به السن ، وأحسَّ بانصراف الكواعب والغواني عنه ، حيث استعار التغشية لانتشار الشيب ، والانقشاع للجهالة .

---

(١) ديوان القطامي ٣٤ .

(٢) شَرَى الفُراتِ : ما دنا من الفرات . الديوان ، ط . ليدن ص ٣٤.
الجَوْسق : من قرى النهروان من أعمال بغداد . يُنظر : معجم البلدان ، لياقوت الحموي ٣/١٧٠ .

(٣) المُتَصفِّق : تَصفَّقَ : تقلَّب ، اللسان ١٠/٢٠٢ .

ومما سبق معنا نلحظ ما للاستعارة المكنية من أثر قويّ في تجلية المعنى ، فتسري الحركة في الأشياء الجامدة ، فها هي الستور تختال ، وتزدان بالصاحبة ، والندى الرقراق الشفاف ماء يجري ، وقد اخضل بريح الخزامى ، القادمة من ديار الصاحبة ، والهوى مناد له قوة واقتدار على الشاعر الذي عُرف بالهمة العالية ، إلا أن للهوى صولةً لا تُقاوم ، والقلب يجمع ليودع في حقيبة يُرتحل به بعيداً ليبقى الشاعر مسلوب الفؤاد ، ورؤية الأحبة مع عدم الوصول إليهم داءُ يخالط الشاعر ليختبر حلمه وصبره ، والجهالة غطاء ضفيق يحجب رؤية الصواب !

فهذه العناصر الجامدة قد جسمت في شخوص متحركة ومختلفة ، وقد علل ذلك الدكتور كامل حسن البصير حيث ذكر أن للاستعارة المكنية غرضين :

" أولهما : تشخيص الجمادات وبث الحياة فيها ومنحها الحركة بشتى مظاهرها ، من ذلك قول دعبل الخزاعي :

لا تعجبي يا سَلْمُ من رجل ضحك المشيب برأسه فبكى

فها هنا يشخص المشيب في صورة من يضحك ، وهو شيء محسوس جامد في الواقع بيد أنه اكتسب صفته من هذا البناء اللغوي القائم على إسناد الضحك إليه وإجرائه فناً ، فإذا هو شخص نسمع قهقهته استخفافاً ، ونلمح وجهه في هذه الحال تهكماً .

وثانيهما : تجسيد الأمور المعنوية وإبرازها للحواس في كيان مادي ملموس ، ومن ذلك قول أبي العتاهية :

أتته الخلافة منقادة إليه تُجرِّرُ أذيالها

فالخلافة أمر معنوي لا يتحقق في هيئة نراها عياناً ونحس بها ملموسة ، بيد أن الشاعر جسدها في صورة مجسمة ، فتأتي إلى الخليفة متمشية تجرر أذيالها في غنج ودلال حسناء تزين الدنيا وتزدانُ الدنيا بها"(١) .

---

(١) بناء الصّورة الفنية في البيان العربي ، للدكتور كامل حسن البصير ٣٣٩ - ٣٤٠ .

ثالثاً - الناقة :

يرد ذكر الحيوان بعامة ، والناقة بصفة خاصة في التراث العربي كثيراً ، ويرتبط ذكرها في الغالب بتسرية هموم النفس ، والارتحال للسلو عن الحزن ، والتسلي عنه بناقة يبثونها لواعج قلوبهم ، وهذا طرفة يتجه نحو ناقته في موقف كهذا ، في قوله[١] :

وإنِّي لأمضي الهمَّ عِنْدَ احتضاره بعوجاءَ مِرْقالٍ تَروحُ وتَغْتَدي[٢]

وقول النابغة الذُّبياني[٣] :

فسلَّيْتُ ما عندي بَرَوْحَــــة عِرْمِـسٍ تَخُبُّ بَرْحلـي تارةً وتُناقِـلُ[٤]

أما القطامي فيلقاها بعزيمة ماضية وقد امتطى ناقة سريعة ، صوَّر ذلك في قوله[٥] :

وَإِذا تُعانِيِني الهُمومُ قَرَيْتُهــا سُرُحَ اليَدَيْنِ تُخالسُ الخَطَرانا[٦]

فقد أعدَّ للهموم مركباً ، وامتطى ناقة سريعة تُخالسُ الخطران ، وتحريك ذيلها دلالة على نشاطها .

ويتحدى الشاعر الهموم ، وميزة التحدي برزت فيما يقدمه لها من حزم ومضاء ، حيث شبهه بما يُقدم للضيف من قرىً وحفاوة ، وتناسى التشبيه ،

---

(١) ديوان طرفة ١٢ .

(٢) العَوْجاء : الضامرة من الابل ، اللسان ٣٣٤/٢ .
مِرْقال : ضرب من العدو فوق الخبب ، اللسان ٢٩٣/١١ .

(٣) ديوان النابغة ١١٥ .

(٤) عِرْمس : ناقة صلبة شديدة ، اللسان ١٣٨/٦ .
تَخُبُّ : الخَبَبُ : ضَرْبٌ من العَدْوِ ، اللسان ٣٤١/١.

(٥) ديوان القطامي ١٥ .

(٦) تُعانيتي : تأتيني ، اللسان ١٠٤/١٥ .
الخَطَرَانَا : خطر الفحلُ بذنبه : ضرب به يميناً وشمالاً ، اللسان ٢٤٩/٤، ٢٥٠.

وادعى أن المشبه من جنس المشبه به ، على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية ، فالناقة تأنس لهذا النوع من القرى ، وترتاح له ، فهي نوق نجيبة تطوي الفيافي في سرعة فائقة عبَّر عن ذلك في قوله(١) :

فَاقْرِ الهمُومَ قلائِصاً عِيدِيَّةً ‌ ‌ ‌ ‌ تَطْوي الفَيافِيَ بالوَجِيفِ المُعْنِقِ

القلائص : القلوص : الناقة الطويلة القوائم(٢) ، والوجيف : ضرب من السير سريع(٣) .

فقد تكرر لفظ " القرى " ، وفي هذا إشعار بكرامة الناقة على الشاعر ككرامة الضيف ! .

وقوله "فَاقْرِ الهمُومَ قلائِصاً عِيدِيَّةً " استعارة تصريحية تبعية .

كما أن من استعارات القطامي في شعر الناقة أنه استعار " الخطاب" لها ، و " الشكوى " لتألمها ، و " الفناء " لذهاب شحمها ، و " الرمي " لاقتحامها الفجاج المخوفة .

يقول القطامي(٤) :

أَقُولُ لِلْحَرفِ لَمَّا أَنْ شكَتْ أُصُلاً ‌ ‌ ‌ ‌ مَتَّ السفارُ وأَفْنَى نيَّها الرحَلُ(٥)
إِنْ تَرجعي مِنْ أَبِي عُثْمانَ مُنْجِحَةً ‌ ‌ ‌ ‌ فقد يَهُونُ على الْمُسْتَنْجِحِ العَمَلُ
أَهْلُ الْمَدينَةِ لا يَحْـزُنْكَ شَـأْنُهُمُ ‌ ‌ ‌ ‌ إِذا تَخاطَأَ عَبْدَ الواحِدِ الأَجَلُ(٦)

فالشاعر يتوجه بخطابه إلى ناقته ، وقد أعياها المسير ، ووصل بها الحال إلى

---

(١) ديوان القطامي ٣٣ .
(٢) اللسان ٨١/٧ .
(٣) المرجع السابق ٣٥٢/٩ .
(٤) ديوان القطامي ٦ .
(٥) أُصُلاً : الأصيلُ : العَشِيُّ ، اللسان ١٦/١١ .
نيَّها : النَّيُّ : الشحم ، اللسان ٣٤٩/١٥ .
(٦) هو عبد الواحد بن الحارث بن الحكم بن أبي العاص . كما ورد في نسب قريش ، للزبيري ص ١٦٩ ، وذكر ذلك أيضاً ابن دريد في الاشتقاق ص ٧٨ ، وأشار إلى أن بعض أهل النسب ذكروا بأن الممدوح هو عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك ، وليس عبد الواحد بن الحارث .

الشكوى من شدة ما تلقى ، ونراه يستحثها على مواصلة السير بعد أن أفنى الرحل شحمها ، وأذابه ، كما لجأ إلى التشخيص في خطابه لها حين أحسَّ بما اعتراها من ضعف وإعياء ، فراح يثيبها حماساً وتحفزاً مُعلناً لها عن رغبة قوية تدفعه إلى الجدِّ دون كلل أو سأم .

وفي قوله" أَقُولُ لِلْحَرفِ لَمَّا أَنْ شَكَتْ أُصُلاً " أسلوب استعارة فقد شبه الناقة بإنسان ، ذكر المشبه ، وحذف المشبه به ، ورمز له بـ " الشكوى " وهي من لوازم وصفات المشبه به المحذوف ، وذلك على سبيل الاستعارة المكنية ، وجملة " أقول لِلْحَرفِ " ترشيح للاستعارة ؛ لأنه مما يلائم المستعار منه . والْحَرف : النجيبة الماضية التي أنضتها الأسفار ، شبهت بحرف السيف(١) .

وتشخيص القطامي لناقته جاء ليظهر مدى التواصل بينه وبين رفيقة دربه .

والقطامي لم يثب ناقته على ما تقوم به من جهد ، وكان الأولى أن يجازيها على نجاحها ، فهذا أبو نواس يعلن عن مكافأة يخص بها ناقته في قوله(٢) :

وإذا المطيّ بنا بلغن محمداً   فظهورهن على الرجالِ حرامُ

وفي قول القطامي " أفنى نيَّها الرِحَلُ " صورة بيانية ، فقد استعار " الإفناء" لإذهاب الرحل شحم الناقة ، وهي استعارة تصريحية تبعية ، وفي العبارة مجاز عقلي ، حيث أسند الإفناء إلى الرحل ، كما أن فيها تصويراً لتلك المسافات الطويلة ، والآفاق الممتدة ،التي استهلكت قوى الناقة ، فأذابت ما علاها من شحوم .

ولطفيل الغنويِّ صورة مشابهة ، وذلك حيث يقول :

---

(١) اللسان ٩/٤٢ .

(٢) ديوان أبي نواس ٦٤ .

ولطفيل الغنويِّ صورة مشابهة ، وذلك حيث يقول :

وجعلت كُوري فوق ناجيـةٍ   يقتات شـحم سنامـها الرَّحْلُ

" ومـوضع اللطف والغرابة منه أنه استـعـار الاقـتيات لإذهـاب الرَّحْلِ شَحم السَّنام مع أن الشحم مما يُقْتَات "(١) . فطفيل يصف حاله في أول رحلته ، ولذا ناسب " يقتات " الدالة على الاستمرار ، فلمَّا يبلغ العناء منها مبلغه ، ولم يذب شحم سنامـها من طول السفر ، والتصاق الرحل به ، فالرحلة في مستهلها ، أما القطامي فيصف فناء الشحم ، والذي نجم من جراء رِحَلٍ عديدة متلاحقة تجهد النوق ، وتذيب شُحومَها ، وتبلغ منها ما تضج معه بالشكوى .

وقول القطامي " إذا تخاطأ عَبْدَ الواحد الأجل " كناية عن طول العمر ؛ لأن الأجل لا يخطيء بل هو كتاب محتوم على الممدوح وغيره .

وفي موضع آخر يصف القطامي سير النوق حيث يقول(٢) :

يَرْمِي الفِجاجَ بهاالرُكْبانُ مُعْتَرِضاً   أَعْناقَ بُزَّ لها مُرْخىً لها الجُدُلُ(٣)

يَمْشِينَ رَهْواً فلا الأعْجازُ خاذلـةٌ   ولا الصُدُورُ على الأعْجازِ تَتَّكِلُ(٤)

فَهُنَّ مُعْتَـرِضاتٌ والحَصَى رَمِضٌ   والرِيـحُ ساكِنَةٌ ، والظِلُّ مُعْتَدِلُ(٥)

---

(١) الإيضاح ، ٤٢٣ .

(٢) ديوان القطامي ٣ ، ٤ .

(٣) الفِجاج : الفَجُّ : الطريق الواسع بين جبلين ، اللسان ٣٣٨/٢ .
مُعْتَرِضاً : مُعْتَرِضةٌ في السير للنشاط ، اللسان ١٨٢/٧ .
بُزَّ لهـا : جمل بازل وناقة بازل إذا استكمل السنة الثامنة وطعن في التاسعة وفطر نابه ، اللسان ٥٢/١١ .
الجُـدُلُ : الجديل : حَبْل مفتول من أَدَم أو شعر يكون في عُنق البعير أو الناقة ، اللسان ١٠٣/١١ .

(٤) رَهْوا : سيرٌ سهل مستقيم ، اللسان ٣٤١/١٤ .
الأعجاز : جمع عَجُز وهو مُؤخر الشيء ، اللسان ٣٧٠/٥.

(٥) رمضٌ : الرَمَضُ : حَرُّ الحجارة من شدة حَرِّ الشمس، اللسان ١٦٠/٧.

والصورة تتجلى في تشبيه اقتحام الركبان لهذه الفجاج المخوفة بالرمي ، أي دفع النوق من قبل الركبان " يرمي الفجاجَ بها الركبانُ " ، وهي استعارة تصريحية تبعية ، وقوله : مرخىً لها الجُدُلُ " وصف لخفة سيرها ، ونشاطها دون أن يعترضها أو يعوق انفلاتها عائق حتى إنَّ زمامها مرخىً لها ، فهي إبل كريمة تعطي دون كد .

وتتهادى النوق في سيرها الرهو السهل ، أما كيفية ذلك وتفصيله ، فقد أبدع فيه الشاعر إذ نفى عن الأعجاز الكسل والتخاذل فهي منتصبة ، ثم إنَّ الصدور لا تستند على الأعجاز أثناء سيرها .

وعبارة " يمشين رَهْواً " صوَّرتْ في دقة فائقة جمال هذا السير ، وأظهرت أفانينه ، ولروعة هذا البيت فقد استحسنه النقاد حتى إن بعضهم يرى أنه لو قيل في النساء لكان أجمل وأليق(١) .

وجملة " فَهُنَّ معترضات " أبرزت ما علاها من نشاط وخفة ، وصوَّرت قوة جلدها وشدتها ، لا سيما وقد صدر ذلك عنها في وقت الريح فيه ساكنة ، فلا نسيم يخفف من لهيب الصحراء اللافح ، ثم إنَّ الحصى رمضٌ ، كما أن الظل معتدلُ ، ويكاد ينعدم ، ومع أن كل شيء يبعث على التعب ، وإعاقة المسير إلا أنهنَّ نشيطات كُلَّ النشاط ! .

---

(١) يُنظر : العمدة ، لابن رشيق ٢١٨/١ ، الصناعتين ، لأبي هلال العسكري ١٥٢ ، عيار الشعر ، لابن طباطبا ١٤٣ ، معاهد التنصيص ، للعباسي ١٨٣/١ ، الأغاني ، للأصفهاني ٢٠/٢٤ ، الممتع في صنعة الشعر ، للنهشلي ٧٧، ديوان المعاني ، للعسكري ١١٩/٢ .

رابعاً - الحرب :

تتفق صورة الحرب في مفهوم القطامي مع نظرة الشعراء القدماء لها ، حيث شبهوها بالناقة ، ومن ذلك قوله(١) :

إذا الحربُ شالَتْ للَّتلقُحِ لم تَجِدْ لَنَا جَانباً إلاَّ بِهِ مَنْ يُصابِرُهُ

فقد شبه القطامي الحرب بالناقة الشائلة ذنبها للِّقاح ، بجامع ظهور أمارات الوقوع والحصول في كل منهما ، ذكر المشبه ، وحذف المشبه به ، ورمز له بلازم من لوازمه وصفاته وهو " التلقح " على سبيل الاستعارة المكنية ، وذلك لما للحرب من أهوال تسفر عن ويلات ونكبات ، ففي هذا الوقت العصيب تظهر قوة قوم الشاعر في المصابرة والمجالدة ، ومجابهة العدو " لم تجد لنا جانباً إلا به من يُصابِرُه " .

وفي شعر الحرب نجد القطامي يستعير " الناقة " للحرب ، و "السنا" للمعان السيوف ، و " الشعاع " لبريق السلاح ، و " البحر " لكثرة الجيش ، كما استعار " الحبل " في موضعين : للصلة والعلائق ، ولسرعة التدارك والإنجاء من الهلاك ، و " القرى " للطعن والضرب ، و "الخياطة " لضم الدروع ، و " ورد الماء " للتعطش للدماء .

وقد وصف القطامي القتال الدائر بين القبائل العدنانية ، في قوله(٢) :

كَأَنَّ الناسَ كُلَّهُــــمُ لأُمٍّ وَنَحْنُ لعلَّةٍ عَلَــتِ ارْتِفاعــــا(٣)
فَكُلٌّ قَبيلَةٍ نَظَرُوا إلَيْنـــــا وَحلُّوا بَيْنَنا كَرهــــوا الوقاعا(٤)
فَهُمْ يَتَبيَّنُونَ سَنا سُيـــوفٍ شَهَرناهُـــنَّ أيَّامــاً تِباعـا
ثَبَتْنا مــا مِـــنَ الحَيَّيْنِ إلاَّ يَظَلُّ تَــرَى لكَوْكَبِهِ شُعــاعا
أُمورٌ لَوْ تَلافاها حَليـــــمٌ إذاً لَنَهَى وَهَيَّبَ ما اسْتَطاعـا
وَلَكِــنَّ الأَديمَ إذا تَفَــرَّى بِلىً وَتَعَيُّناً غَلَبَ الصَّنَّاعـــا(٥)
وَمَعْصِيَةُ الشَّفيقِ عَلَيْكَ مِمّا يَزيدُكَ مَرَّةً مِنْهُ اسْتِماعـــا

ومع أن الأمل ظل يراود القطامي طويلاً في اتحاد الصف ضد القبائل

---

(١) ديوان القطامي ٢٣ .
(٢) ديوان القطامي ٣٩ .
(٣) بنو العلَّات لأب واحد وامّهات شتّى ، علت ارتفاعا في العداوة وبُعدِ النسب . الديوان ط. ليدن ٣٩ .
(٤) الوقاعا : المُواقعة في الحرب ، اللسان ٨/٤٠٣ .
(٥) الأديم : الجلد . اللسان ١٢ /٩ .
تَعَيُّناً : التَّعيُّن : أن يكون في الجلد دوائر رقيقة ، اللسان ١٣/٣٠٤ .

القحطانية ، إلا أن الفخر بالقبيلة ، والاشادة بما تملكه من قوة في دفاعها عن حقوقها شيء يحتمه طبيعة الانتماء إلى القبيلة ؛ لذا نرى الشاعر يباهي بقوة قومه ، وأنهم أصحاب حروب ، فسيوفهم مشرعة " شهرناهُنَّ أيَّاماً تِباعاً " ، وفي ذلك دلالة على استمرار العداء وتزايده ، وفي قوله " فهم يتبينون سنا سيوف " صورة بيانية ، حيث استعار " السنا " وأصله للبرق ، استعير لتلألأ السيوف ولمعانها ، شبه بريق السيوف بالسنا ، وهو تصوير يبرز لمعانها حين يلوح عن بُعد ، فتبصره القبيلة المُعادية مما يزيد من هيبتهم ، وجملة "يَظَلُّ ترى لكوكبه شُعاعا " وصف للسلاح ؛ فقد شبه السلاح في بريقه ولمعانه بالشمس ، ثم حذف المشبه به ، ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو " الشعاع " على سبيل الاستعارة المكنية .

والشاعر يشهد حروب قومه ، ويرى الفرقة التي وقعت بين القبيلتين " تغلب " و " قيس " ، فهي علاقة أصابها التصدع تشبه الأديم الممزق الذي دُبغ على فساد أو أصابه البلى ، فليس في متسع الصَناع الإصلاح من شأنه ، أو إعادته إلى سابق عهده " غلب الصَّناعا " ، وامرأة صَناع أي حاذقة ماهرة بعمل اليدين .

فقد شبه الصورة الحاصلة من الشدائد وتزايد البلاء بصورة الجلد إذا تهرأ وتمزق ، واستعير المشبه به للمشبه على سبيل الاستعارة التمثيلية .

وأتى بالتمثيل لبيان ما تحدثه الفرقة من تصدع ونزاع ، وأن الأمر إذا وصل إلى هذا الحد أعجز كل محاول يسعى إلى إصلاح النفوس ، لما بها من ترة ورغبة في الثأر ، والانتقام لقتلاها .

ويذكر القطامي بأن من الحكمة الأخذ بنصح الصديق المخلص المشفق ، وأنك لو عرفت حقيقة ما ينهاك لوددت أن تسمع منه كل ما كان يأمرك به وينهاك عنه .

كما يصور الشاعر ما كان من قومه في الجاهلية ، وذلك حيث يقول(١) :

زَمانَ الْجاهليَّـــة كُلُّ حَــيٍّ ... أبَرْنَا مِــنْ فَصِيلَتِهِمْ لِماعَـــا(٢)

أَلَيْسُوا بِالأُلَى قَسَطُوا قَدِيماً ... عَلَى النُّعْمانِ وَابْتَدَرُوا السِطاعا(٣)

---

(١) ديوان القطامي ٤٠ ، ٤١ .

(٢) أبَرْنَا : أهلكنا ، اللسان ٥/٤ .
فَصِيلَتِهِمْ : فَصِيلةُ الرجل : عَشيرته ورَهْطه الأدْنَوْن ، اللسان ٥٢٢/١١ .
لِماعَا : اللُّمعَةُ : الطائفةُ ، اللسان ٣٢٦/٨ .

(٣) قَسَطُوا : القَسْط : الجَوْر ، اللسان ٣٧٨/٧ .
السطاعا : خشبة تنصب وسط الخباء والرُّواق ، وقيل : هو عمود البيت ؛ وذلك أنهم دخلوا على النُّعمان قُبَّته ، اللسان ١٥٥/٨ .

وَهُمْ وَرَدُوا الكُلابَ على تَميمٍ ... بِمَوْجٍ يَبْلَعُ النَّاسَ ابْتِلاعا(١)

في المقطوعة السابقة يتجلى فخر الشاعر وزهوه أمام القبائل القحطانية ، وهو يستعرض مآثر قومه ، ومواقفهم البطولية ؛ فهم أغاروا على " النعمان " قديماً واسرعوا في هدم قبته ، وهي كناية عن قتلهم لعمرو بن هند ، وهؤلاء هم أنفسهم الذين اجتاحوا تميماً بجيش يشبه البحر في كثرته ، فقد شبه الجيش العظيم الكثير المتتابع بموج البحر المضطرب ، وذلك على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية ، استعير الموج للجيش المتدافع .

وفي قوله " يبلع الناس ابتلاعا " استعارة مكنية ، وقد كشفت الصورة عن اندفاع هذا الجيش المهاجم ، وكثرته ، واقتحامه للأعداء كالموج المتلاطم في البحر يبتلع الناس واحداً واحداً ، فهو جيش يزدرد القتلى ازدراداً دون عناء ، وكأن الشاعر يشير إلى أنهم لم يتعبوا في هزيمتهم.

وفي قوله " وردوا الكُلاب " استعارة تصريحية تبعية في الفعل " وردوا " شبه قدومهم على العدو بورود الماء بجامع الرغبة في الاستزادة ، والتعطش لدماء الأعداء والورود للماء وهو هنا كناية عن تعطشهم لدماء الأعداء .

ويصف القطامي جرأتهم على اقتحام الحروب ، في قوله(٢) :

لم تَرَ قَوْماً هُمُ شَرٌّ لإِخْوَتِهِمْ ... منَّا عَشيَّةَ يَجْرِي بالدَمِ الوادي

نَقْرِيهِمُ لَهْذَمِيَّاتٍ نَقُدُّ بها ... ما كان خاطَ عليهِمْ كُلُّ زَرَّادِ(٣)

يشير الشاعر إلى ما يتصل بسنن العرب في الإغارة ، وولعهم بالحرب حتى ولو كانوا أخوة لهم "لم تَرَ قَوْماً هُمُ شَرٌّ لإخوتهم " ، أي نقاتلهم ويقاتلوننا . وفي قوله "عَشيَّةَ يَجْرِي بالدَمِ الوادي " مجاز عقلي ، وذلك في إسناد الجري إلى الوادي ، فقد سالت الدماء ، وعمّت المكان ، وفي هذا دلالة على عظم الخطب ، وفداحته .

كما يصف الشاعر دروعهم بأنها دقيقة الصنع ، محكمة النسج ، وقوله "نَقْرِيهِمُ لَهْذَميَّاتٍ " أسلوب استعارة ، شبه الضرب بالقرى بجامع التكريم والحفاوة سخرية واستهزاء ، والقرينة هي المفعول؛ لأن اللهذميات لا

---

(١) الكُلاب : أراد يوم الكُلاب الأوّل حين قتلوا شرحبيل عمّ امرىء القيس . الديوان ص ٤١ . ويُنظر : أيام العرب في الجاهلية ، لمحمد أبو الفضل إبراهيم ، وعلي محمد البجاوي ٤٦ - ٥٠ .

(٢) يوان القطامي ١٣ .

(٣) اللهذميّات :اللَّهْذَمُ : كُلُّ شيء من سنان أو سَيْفٍ قاطع ، اللسان ١٢/٥٥٦. زرّاد : الزرّاد : صانع الدرع ، اللسان ٣/١٩٤ .

تقرى وإنما يقرى الطعام " والاستعارة تهكمية " فقد أحال الضرب والطعن قرى يقدم للأعداء ، ومعلوم أن القرى يخصص للضيف تكريماً وحفاوة ، إلا أن الشاعر أتى به هنا للمبالغة في المعايرة والتهكم والإهانة .

وفي قوله " خاط عليهم كُلُّ زَرَّادِ " استعار الخياطة وهي موضوعة لضم أطراف الثوب بالخيط – لزرد الدروع وهي ضم حلقات الدرع بالسلك – فقد شبه زرد الدروع بخياطة الثوب بجامع ضم الأطراف في كل .

" وفي هذه الاستعارة مع الطرافة والجدة الحادثتين من نقل الكلمة إلى غير معناها إشارة إلى دقة هذه الدروع ، وأنها مقدرة عليهم كما يقدر الثوب على لابسه ، وأنها محكمة جداً ، وأن طعناتهم التي قدتها كانت طعنات قوية متمكنة "(١) .

وعلى الرغم من أن للقطامي شعراً يظهر فيه تعصبه لقبيلته ، والإشادة بأيامها ،قال شعراً رائعاً في الحث على السلم ، والتنفير من الحرب وويلاتها ، في قوله(٢) :

قِفي قَبْلَ التَفرُّقِ يا ضُبَاعا ... وَلا يَكُ مَوْقِفُ مِنْك الوَداعا
قفي فادي أسيرَكِ إنَّ قَوْمي ... وَقَوْمَكِ لا أَرَى لَهُمُ اجْتِماعا
وَكَيْفَ تَجامُعُ مَعَ ما اسْتَحلاَّ ... مِنَ الحُرَمِ العظامِ وما أَضاعا
أَلَمْ يَحْزُنْكِ أنَّ حِبالَ قَيْسٍ ... وتَغْلِبَ قَدْ تَبايَنَتِ انْقِطاعا

إنَّه وقوف واستيقاف من نوع آخر بعد حروب مريرة حملت الفرقة والقطيعة والضياع ، وها هو ذا الشاعر يبدي رغبته وكله أمل إلى " ضباعة " بنت زُفَر الكلابي بالاّ يكون وداعاً أخيراً ، وأن يدوم ودها ، ويكره وداعها "ولا يك موقفُ منك الوداعا "(٣) . فقد هاله العداء التغلبي القيسي ، وتطلع إلى وحدة الكلمة بينهما ، ليقفا ضد القبائل اليمنيَّة وإضعافها ، والاستفهام التعجبي و الإنكاري "كيف تجامعُ " ، صوَّر عمق المعاناة ، فالشاعر يتمزق ألماً

---

(١) التصوير البياني ، للدكتور : محمد محمد أبو موسى ٢٢٣.

(٢) ديوان القطامي ٣٧ .

(٣) من شواهد القلب عند البلاغيين . يُنظر : بغية الإيضاح ، لعبد المتعال الصعيدي ١/١٦٦ .

وحسرة على حالهما ، بعد أن أذعنا وانقادا لمن يسعى بالدّس والوقيعة مما جرَّ عليهما النكبات والنزاع والشرور حتى استحال أن يجمع بينهما صلحٌ .

ويشبه الروابط بين القبيلتين بالحبال المنصرمة ، وقد تقطعت ، وانحلَّ نسيجها ، ، فقد استعار " الحبال " للأواصر والمودة ، وهي استعارة تصريحية أصلية .

وقوله " قد تباينت انقطاعا " أفاد مبلغ التدابر والقطيعة التي حلَّت بينهما ، وهذا الاستفهام التقريري " ألم يحزنك ؟ " ، وما يحويه من شجن مسيطر أثار حزناً دفيناً حين وصل إلى مسامع من عناها بقوله ، ولذلك " روى أن ضباعة لما سمعت قوله ألم يحزنك إلخ ... قالت : بلى والله لقد حزنني "(١) .

وفي موضع آخر يستعير الشاعر"الحبل " للنجاة والخلاص ، في قوله(٢) مخاطباً زُفر الكلابي(٣) :

فانْتاشَني لَكَ من غبْراءَ مُظْلمةٍ حَبْلٌ تَضَمَّنَ إصْداري وإيرادي
ولا كرَدِّكَ عَنِّي بَعْدَما كَرِبَتْ تُبْدي الشَناءةَ أعدائِي وحُسَّادِي
فإنْ قَدَرتُ على يَوْمٍ جَزَيْتُ به واللهُ يَجْعَلُ أَقْواماً بِمرْصادِ

الصورة تصف إحساس الشاعر بضيق المكان وكآبته ، حيث شبه رعاية " زُفَر " له ، وإنقاذه مما ألمَّ به بالحبل ، وتناسى التشبيه ، وادعى أن المشبه من جنس المشبه به على سبيل الاستعارة التصريحية الإصلية ثم حذف المشبه ، وأقام المشبه به مقامه على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية " فانتاشني لكَ حَبْلٌ " ، فقد انتزعه من تلك الغبراء المعتمة بعد أن أُلقي به في الأسر مكبلاً ، وقوله " تضمن إصداري وإيرادي " كناية عن الشمول ، وهي كناية أظهرت صدق المحاماه التي حظي بها القطامي من ممدوحه ، وعبَّرت عن استشعاره لفضائل " زُفَر " ؛ فهي كثيرة إلاَّ أن صنيعه هذا لا يماثله

---

(١) يُنظر : خزانة الأدب ، للبغدادي ٢/٣٦٩ .
(٢) ديوان القطامي ١٢ .
(٣) هو أبو الهذيل زُفر بن الحارث بن عبد عمرو بن مُعاذ بن يزيد بن عمرو ابن كلاب الكلابيّ.
كان كَبيرَ قيس في زمانه ، وفي الطبقة الأولى من التابعين ، من أهل الجزيرة . وكان من الأمراء . سمع عائشة ومعاوية . وشهد وقْعة صفّين مع معاوية أميراً على أهل قنّسرين ؛ وشهد وقعة مَرْج راهط مع الضحّاك بن قيس ، فلما قُتلَ الضحّاك هرب إلى قرقيسا ، ولَم يزل متحصناً فيها حتّى مات في خلافة عبدالملك بن مروان في بضع وسبعين . يُنظر : خزانة الأدب ، للبغدادي ٢/٣٧٢ .

صنيع آخر " ولا كردك مالي بعدما كرُبت " ، وكربت بمعنى قربت ، وقد أجاد الشاعر في اختيار لفظة " كربت "؛ فهي تتناسب مع الموقف ، وتحمل معنى كل ما حلَّ به من كرب وقرب نهاية .

وقوله " فإن قدرتُ على يوم جزَيْتُ به " ، وإن كان ظاهره أنه سيرد الجميل إن قدر ، إلا أن زُفَر لم يرغب في أمنية كهذه تقال له لذا سارع بقوله " لا أقدرك اللّه " .

خامساً - الطبيعة :

لا زالت هناك بعض عناصر في الطبيعة تلح على فكر القطامي كصورة السَّراب ، والماء ، والليل ، فالسَّراب يتراء ى في المفاوز ببريق خادع وصفة بقوله[١] :

بِكُلِّ مُنْخَرِقٍ يَجْرِي السَرابُ بِهِ يُمْسي وَراكِبُهُ مِن خَوْفِه وَجِلُ[٢]
يُنْضِي الهِجانَ التي كانتْ تكونُ بها عُرْضيَّةٌ وهِبابٌ حِينَ تُرْتَحَلُ[٣]
حتَّى تَرى الحُرَّةَ الْوَجْناءَ لاغِبَةً
والأرْحَبِيَّ الذي في خَطْوِهِ خَطَلُ[٤]

الصورة تبرز وحشة الصحراء حتى إذا ساد الظلام أصاب من يسير فيها الهلع والفزع والتوجس " يُمْسي وَراكِبُهُ مِن خَوْفِه وَجِلِ " .

كما تصف الصورة مقدار ما تبذله تلك النوق ، فهي تلاحق سراباً علا قيعان الصحراء ، وافترش كل مساحة فيها "يُنْضِي الهِجانَ التي كانتْ تكونُ بها عُرْضيَّةٌ وهِبابٌ " ، وفي هذا تجسيد لما حلَّ بالنوق الهجان من نصب ، وما لحقها من هزال لشدة ما كابدته ، ويُنْضِي : يَهْزِل ، وهي للمنخرق ، ومن قبيل المجاز العقلي حيث أسند الفعل إلى المكان ، كما نال " الوَجْناءَ " منها ، وناقة وَجْناءُ : تامة الخَلْق غليظة لحم الوَجْنة صلْبة شديدة[٥] ، فقد مسَّها اللغب فحالها حال الأرحبي ، ومن في خطوه خطل أي خفة وسرعة[٦] .

---

(١) ديوان القطامي ٣ .
(٢) مَنْخَرَق : الفلاة الواسعة ، سميت بذلك لانْخِراق الريح فيها ، اللسان ٧٤/١٠.
(٣) عُرْضِيَّةٌ : فيها صُعُوبةٌ ، اللسان ١٧٩/٧ .
هِبابٌ : نشاط ، اللسان ٧٧٨/١ .
(٤) لاَغِبَةً : اللُّغوبُ : التَعَبُ والإعياء ، اللسان ٧٤٣/١ .
(٥) اللسان ٤٤٣/١٣.
(٦) المرجع السابق ٢٠٩/١١ .

كما استعار القطامي في شعر الطبيعة " الدعوة " للهواجر ، و "الحديث" لليل، و " النار " للبرق ، و " الضحك " لراجف البرق ، و " الأعناق" لأوائل المطر .

الهاجرة :

ذكر القطامي الهاجرة في موضعين من شعره ، في قوله(١) :

فَهُنَّ مُعْتَرِضاتٌ والحَصَى رَمِضٌ والريـحُ ساكِنَةٌ والظِلُّ مُعْتَدِلُ

وقد استحسن أبو هلال العسكري وصفه هذا أثناء تصويره سير الإبل حيث يقول " والبيت من أبلغ ما قيل في صفة هاجرة "(٢) .

كما ورد ذكرها في قوله(٣) :

وَبَشَّرَنا البَشيرُ بِنُعْمِ طَيْـرٍ وَمِمَّا أَنْ تَقَبَّلَنـا البِشـارُ
بِظُعْنٍ لَجَّجَتْ في يَوْمِ صَيْفٍ وَقالُـوا لَيْسَ بِالأَنْهي قِطارُ
دَعَتْهُنَّ الهَواجِرُ نَحْوَ نَجْـدٍ وَصَابَ الهِيفُ فَابْتُدِرَ الغِمارُ

ففي البيت الأول قلب ؛ لأن الأصل أنه يحب أن يبشر ثم يتقبل البشرى ،وذلك كناية عن حال للهفان ، وقد قلب الشاعر بلاغة ليوائم حالة السرعة والتلهف ، كما يصف رحيل الظعائن فراراً من لظى الصيف الحارق ، وهجير الصحراء ، حيث أسرعن بابتدار الماء الكثير " وصاب الهِيفُ فابْتُدِرَ الغِمارُ " ، ولعلّ توجههن إلى نجد لما يجدنه من طقس بارد .

وفي "دَعَتْهُنَّ الهَواجِرُ " تصوير استعاري ، شبه الهواجر بأناس ، ذكر المشبه ، وحذف المشبه به ، ورمز له بلازم من لوازمه وصفاته وهو "الدعوة" على سبيل الاستعارة المكنية ، فالهواجر أناس تدعو من تحب وترغب.

---

(١) ديوان القطامي ٤٠

(٢) ديوان المعاني ، لأبي هلال العسكري ١١٩/٢ .

(٣) ديوان القطامي ٨٢ ، ٨٣ .

الليل :

يقف القطامي من الليل وقفة التذكر والحنين ، في قوله[١] :

لَكِنْ لَيالي عانات تُحَدِّثُهُ   سرَّ الْفُؤاد وتُعْطِيه الَّذي احْتَكَما
إذ الشَّبابُ عَلَيْنا لَوْنُ مُذْهَبِهِ   وَنَحْنُ في زَمَنٍ يأتي بِنا الأَمَما

يسترجع الشاعر في أسف ولوعة ليالي جميلة مضت " تُحَدِّثُهُ سرَّ الْفُؤاد وتُعْطِيه الَّذي احْتَكَما " ، ولفظة " احتكما " لها موقع بلاغي مؤثر ، نقلت معنى الإلحاح ، وفرض الرأي بقوة ، وهذا ما لم يتحقق فيما لو قيل " طلب " ؛ لأن المعنى حينئذ يتوقف عند مجرد الطلب .

وفي البيت الثاني يظهر تحسر الشاعر على الشباب ، وكون الشباب هو الذي يبلغه أمانيه من الوصل " وَنَحْنُ في زَمَنٍ يأتي بِنا الأَمَما " ، والمراد بالأمم : القُرب[٢] ، وفي نسبة الفعل إلى الزمن مجاز عقلي .

والصورة تصف أحاديث انثالت في جو مفعم بالشجن ؛ لأنها أسرارُ فؤاد مُوجع تنساب معها النفس انسياباً في تدفقٍ حانٍ رقيق .

---

(١) ديوان القطامي ٦٨ ، ٦٩ .
(٢) اللسان ١٢/٢٨ .

البرق والمطر والماء :

يرقب الشاعر البرق ، فيشبهه بشعلة نار تستعر بعد أن أصابه الأرق ، وتنازعته الهموم ، في قوله(١) :

أرِقْتُ ومُعْرِضاتُ اللَّيْلِ دُوني ... لِبَرْقٍ باتَ يَسْتَعِرُ اسْتِعارا
تَواضَعَ بالسَّخاسِخِ مِن مُنِيمٍ ... وجَادَ السِّرَّ وافْتَرَشَ الْغِمارا(٢)
وباتَ يَحُطُّ من جَبَلَيْ نِزارٍ ... غَوارِبُ سَيْلِه حُزَماً كِبارا(٣)
بِسَحٍّ تَغْرَقُ النَّجَواتُ مِنْهُ ... ويَبْعَثُ عن مَرابِضِها الصُّوارا(٤)
ويَصْطادُ الرِّئالَ إذا عَلاها ... وإنْ أَمْعَنَّ مِن فَزَعٍ فِرارا(٥)

فالشاعر يستهل قصيدته بوصف ليلة ماطرة انتابه فيها الأرق ؛ لما عرض له من الهموم " ومعرضات الليل دوني " ، وهي ليلة ظل المطر فيها شديداً " لبرق بات يستعر استعارا " فالبرق يُشبه بالنار في لمعانه وسطوعه ، واللجوء إلى الفعل المضارع " يستعر " مما يجعل الصورة متجددة ، وهي استعارة مكنية ، شبه البرق بالنار ، ذكر المشبه ، وحذف المشبه به ، ورمز له بلازم من لوازمه وهو " الاستعار " .

وقد شمل البرق الأراضي من " السخاسخ " ، و " منيم " ، و " السِّرّ " ، وأخذ المطر يحط من أماكن مرتفعة بعد أن تراكمت قطعٌ كبيرة من السحب ، وانهمرت المياه بغزارة حتى غطت المرتفعات .

وفي قوله " تَغْرَقُ النَّجواتُ منه " كناية عن كثرة تصببه مما حرك قطعان البقر ، وبعثها من أماكنها .

---

(١) ديوان القطامي ٦١ .

(٢) بالسَّخاسِخِ : موضع من ما وراء النهر . انظر : معجم البلدان ، لياقوت الحموي ٥/٠٤٧ .
مُنِيم : اسم موضع . ينظر : معجم البلدان ، لياقوت الحموي ٨/١٨٧ .
السِّر : بلد في ديار بني تميم . يُنظر : معجم ما استعجم ، للبكري ٢/٧٣٢.

(٣) غَوارِبُ : غواربُ الماء : أعاليه ، اللسان ١/٦٤٤ .

(٤) سَحٌّ : سال من فوق واشتد انصبابه ، اللسان ٢/٤٧٦ .
النَّجَوان : النَّجْوَةُ : ما ارتفع من الأرض فلم يَعْلُه السَّيلُ فظننته نجاءك اللسان ١٥/٣٠٥.

(٥) الرِّئالُ : الرَّأْلُ : ولد النعام ، اللسان ١١/٢٦١ .

والصورة تعبّر عن قوة السيل المندفع ، الذي بلغ الأراضي المرتفعة فغطاها فأصبحت الرئال لا تجد مفراً منه أينما ذهبت ، فقد بلغ إلى الأماكن التي لا يظن أن سيلاً يصل إليها فأصبح فرارها منه في أيّ وجهة مفضياً بها إليه ، وقوله " يصطاد الرئال إذا علاها " استعارة تصريحية تبعية ، استعار " الاصطياد " للإهلاك ، فهو سيل يميت أولاد النعام، وقد خص الشاعر " الرئال " لأنها أسرع جرياً وجبناً وفراراً . ويمكن أن تكون استعارة مكنية ، شبه السيل بالإنسان أو الوحش المفترس ، ذكر المشبه ، وحذف المشبه به ، ورمز له بلازم من لوازمه وهو " الاصطياد " .

كما يرتبط ذكر البرق بالثور الوحشي ، يقول القطامي(١) :

أَرِقاً تُضاحِكُهُ البُروقُ براجِفٍ كَسَنا الحَرِيقِ ولامعٍ لَمَعَانَا

المضاحكة في اللغة تعني المشاركة في الأنس والسرور ، إلا أن الشاعر استعملها في غير معناها لوظيفة بلاغية ؛ شبه البرق بإنسان يضحك أو يضاحك ، ذكر المشبه ، وحذف المشبه به ، ورمز له بـ " الضحك " ، وهو من لوازم وصفات المشبه به المحذوف على سبيل الاستعارة المكنية .

فقوله " تضاحكه البُروقُ براجف " صورة عجيبة لكأننا نسمع معها أصوات تلك الرعود أو القهقهات ، ونحس بقوة البرق ، وسرعة اختطافه ، ولفظة "تُضاحِكُهُ " في موقف وجل كهذا كلُّهُ ترقب وتوجس مما يُضاعفُ شعور الرهبة ، ويزيد منه ، ثم إنّ نور هذا البرق وضياءه يشبه سنا الحريق .

وقد جيء بإسلوب الاستعارة من أجل تعميق الصورة ، وتقوية المعنى.

ويقترن ذكرُ السيول وآثارها بالرسوم والديار ، في قوله(٢) :

صافَتْ تَعَمَّجُ أعْناقُ السُيولِ بِهِ مِنْ باكِرٍ سَبِطٍ ، أو رائحٍ يَبِلُ

يصف الشاعر أثر السيول على الطلل ، وما أحدثته أوائل مطر الصيف فيه؛ فمن سحاب باكر ارتفع وحلّق إلى سحاب بالعشي أمطر وابلاً وهو المطر الضخم في قوة اندفاعه وغزارته ، حيث تعاقبت سيوله ، فهي تتلوى خلال الديار البالية مخلفةً أثراً ظاهراً لا سيما وأنها أمطارٌ قضتْ الصيف تنزل على تلك الدمن ، وقد استعار الشاعر كلمة " الأعناق " لأوائل المطر ؛ لتقدمها جسم الإنسان ، شبه أوائل المطر بكائن حي ، ذكر المشبه ، وحذف المشبه به ، ورمز له بلازم من لوازمه وصفاته وهي " الأعناق " على سبيل الاستعارة المكنية .

---

(١) ديوان القطامي ١٦ .
(٢) المرجع السابق ص ٢ .

سادساً- الخمر:

شُغف القطامي بالخمر ، وأولع بها ، ومن ذلك قوله(١) :

وَقَدْ تُباكِرُني الصَهْباءُ يَرْفَعُها إلَـى لَيِّنَـةٌ أعْطافــهُ ثَمِـلُ(٢)

يربط الشاعر بينه وبين الصهباء علاقة حتى لكأنها تسعى إليه فيأنس بها ، "تباكرني الصهباءُ " .

ويذكر صفات النديم فهو فتىً صبيح " لَيِّنَـةٌ أعْطافهُ ثَمِل " وهي كناية عن رقة الساقي ، وتمايله من شدة السُكر .

وقد استعار القطامي "التمشي " لسورتها ، و " الشجة " لاختراق الماء لها .

وفي مقطوعة واحدة نجد صوراً تتلاحق في وصف الخمر فهي تتمشى في العظام، وهي سبيئة، وهي تكابرالماء، والماء يشجها صوّر ذلك في قوله(٣):

وَكَأْسٍ تَمَشّى في العِظامِ سَبِيئَةٍ مِنَ الراحِ تَعْلُو الماءَ حين تُكابرُه(٤)

كُمَيْتٍ إذا ما شَجَّهَا الماءُ صَرَّحَتْ ذَخِيـرةِ حانيٍّ عَلَيْهــا تَنَاذَرُه(٥)

---

(١) ديوان القطامي ٦ .

(٢) ثمل : هو الذي قد أخذ منه الشراب والسُّكْر ، اللسان ٩٢/١١ .

(٣) ديوان القطامي ٢١ .

(٤) الرّاح : الخمرُ ، اسم لها ، اللسان : روح ٤٦١/٢ .

(٥) كُمَيْت : من أسماء الخمر فيها حُمرة وسواد ، اللسان : كمت ٨١/٢.
شَجَّهَا : مزجها ، اللسان ٣٠٤/٢ .
صرّحت : صَرَّحَتِ الخمر : انجلى زبَدُها فَخَلَصَتْ ، اللسان ٥١٠/٢ .
حانِيٌّ : صاحب الحانة ، اللسان ٢٠٥/١٤ .

فَجاءَ بِها بَعْدَ الإباءِ وبَعْدَ ما بَذَلْنا لَهُ في السَّوْمِ ماسْتامَ تَاجِرُهْ
شَرِبْتُ وفِتْيانٌ كجِنَّةِ عَبْقَرٍ كِرامٌ إذا ما الأمْرُ أعْيَت مَرائِرُهْ
فَقُلْتُ اشْرَبُوا حَيَّاكُمُ اللّهُ واسْبِقُوا عَواذِلَنا مِنْها بريٍّ نُباكِرُهْ
فلَمَّا انْتَشَيْنا واسْتَدارَتْ بِها منا وقُلْنا اكْتَفَيْنا بَعْدَ غَفْقٍ نُظاهِرُهْ(١)
وَرُحْنَا أُصَيْلالاً نَجُرُّ بُرودَنا بأنْعَمِ عَيْشٍ لو تَطاوَلَ آخِرُهْ(٢)

يرسم القطامي صورة لمجلس لهو من خمر وكأس وندمان ، فيصف الكأس بأنها " سبيئة " ، وسبأ الخمر واستباها: شراها(٣) ، يقول حسّان بن ثابت في وصفها(٤) :

كَأَنَّ سَبِيئَةً مِنْ بَيْتِ رأسٍ يَكُونُ مِزاجَهَا عَسَلٌ وَماءُ

وفي قول القطامي " وكأس تمشي في العظامِ " صورة بيانية ؛ حيث استعار لفظة " تمشّى " لسورة الخمر في حين أنها من صفات الكائن الحي ، فقد تمشت في العظام ، وهي كناية عن شدة سكره وتغلغله في عظامه ، ويصف الكأس بأنها ملئت بالخمر حتى دافعت الماء إلى أن علته " تعلو الماء حين تُكابِرُه " ، ويصور الخمر بشيء حسي حتى إذا ما شجها الماء ، واخترقها فإنه يكسر حدتها مما يظهر قيمتها " كميت إذا ما شَجَّها الماء صَرَّحت " ، وهي استعارة تصريحية تبعية ، وعن أثر الماء على الصهباء يقول أبو نواس(٥):

ألا دارِها بالماءِ حتى تُلينَها فَلَنْ تُكْرِمَ الصَّهْباءَ حتى تهينَهَا

---

(١) نظاهره : نُداومه مرّة بعد مرّة ، الديوان ط.ليدن ص ٢١ .
(٢) أُصَيلالاً : الأصيلُ : الوقت بعد العصر إلى المغرب ، اللسان ١١/١٧.
(٣) يُنظر : اللسان ١/٩٢ .
(٤) ديوان حسّان بن ثابت ٥٩ .
(٥) ديوان أبي نواس ٥٩٢ .

وهي مقالة شارب خبير بشئونها ، قد عاقر الخمر ، وعبَّ من كأسها .

وفي المقطوعة السابقة للقطامي يتضح دور الصياغة في تأدية المعنى وتقريره؛ فهي شجة أظهرت حرص بائعها ، حيث نذر أن يغالي في القيمة ، إلى أن بذلوا له ما يريد من ثمن !

ويدعو الشاعر رفاقه بأن يرتووا بالخمر قبل أن تلومهم اللائمات " واسبقوا عواذلنا منها بريٍّ نباكره " .

ويصف فعلها بهم حين دبَّت في مفاصلهم فأدارتْ الرؤوس بعد أن شربوا المرَّة تلو المرّة " وقلنا اكتفينا بعد غفق نُظاهِرُه " ، والغفق : كثرة الرجوع إلى الماء[1] ، فقد شربوا حتى لعبت الخمر برؤوسهم ، كما أمضوا الوقت كلّه في اللهو والشراب مما جعلهم يتمنون طول الوقت ، ودوام اللذة المزعومة " بأنعم عيش لو تطاول آخره " .

---

(١) اللسان ٢٩٠/١٠ .

الفصل الثالث
الكناية في شعر القطامي

١ - الحرب .
٢ - المرأة .
٣ - الناقة .
٤ - الكرم .

تمهيد :

يُعرِّف الإمام عبد القاهر الكناية بقوله " أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني ، فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة ، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه ورِدْفُه في الوجود ، فيومىء به إليه ، ويجعله دليلاً عليه"(١).

وقد قسم البلاغيون الكناية إلى ثلاثة أقسام هي :

القسم الأول : كناية عن صفة من الصفات كالكرم ، والشجاعة ، والإقدام ، والترف . . .

يقول عمر بن أبي ربيعة(٢) :

بعيدة مهوى القُرط إما لنوفل ... أبوها وإما عبدُ شمس وهاشمُ

كناية عن طول العنق .

القسم الثاني : كناية عن موصوف ، ومثالها قول البحتري(٣) :

فأتبَعْتُها أُخرى فأضلَلْتُ نَصلَها ... بحَيثُ يكونُ اللُّبُّ وَالرُّعبُ وَالحِقْدُ

فقوله " بحيث يكون اللب والرعب والحقد " كناية عن القلب .

القسم الثالث : كناية عن نسبة صفة إلى موصوف كقول زياد الأعجم(٤) :

إن السماحة والمُروءَ ةَ والندى ... في قُبَّةٍ ضُرِبتْ على ابن الحَشْرج

حيث " أراد أن يُثْبِت هذه المعاني والأوصاف خلالاً للممدوح وضرائب فيه ، فترك أن يصرِّح فيقول " إن السماحةَ والمروء ة والندَى لمجمُوعة في ابن الحشرج أو مقصورة عليه ، أو مُخْتَصةٌ به " وما شاكل ذلك مما هو صريح في إثبات الأوصاف للمذكورين بها وعَدَل إلى ما ترى من الكناية والتلويح ، فجعل كونها في القُبَّة المضروبة عليه ، عبارة عن كونها فيه وإشارة إليه "(٥) .

---

(١) دلائل الأعجاز ٦٦ .

(٢) ديوان عمر بن أبي ربيعة ، دار صادر ٣٤٨ .

(٣) ديوان البحتري ، دار صادر ١/١٩٧ .

(٤) دلائل الأعجاز ٣٠٦ .

(٥) المرجع السابق ٣٠٧ .

ولقد لجأ القطامي إلى الأسلوب الكنائي كما استعان بغيره من أساليب البيان كالتشبيه ، والمجاز ، والاستعارة ، وتعددت مواضع الكناية في شعره ؛ فهناك الكناية عن صفة ، وهي أكثر وروداً ، ثم الكناية عن موصوف ، وهي مما قلَّ في شعره ، أما الكناية عن نسبة فإنّها نادرة ، ولم ترد إلا في موضع واحد فقط ، وذلك عندما كنّى عن نسبة صفة " البخل " إلى " موصوف " الصاحبة ، في قوله(١) :

وَما الْبَخِيلَةُ إلاَّ مِنْ صَواحِبِها ممَّنْ يَخُونُ ومِمَّنْ يَكْذِبُ القَسَما

كذلك الكناية عن موصوف لم ترد إلا في موضعين هما قوله(٢) :

قَطَعْتُ بِذاتِ ألــــواحٍ تَراها أمامَ الرَكْــبِ تَنْدَرِعُ انْدِراعــا

فقد كنى بقوله " ذات ألواح " عن الناقة .

وقوله(٣) :

ونَحُلّ كُلَّ حِمــــىً نُخَبَّرُ أنَّه مُنِحَ البُروقَ ولا يُحــــلُّ حِمانَا

والبيت فيه كنايتان إحداهما كناية عن موصوف " مُنِحَ البُروقَ " ، وهو السحاب الذي ينشأ عنه الغيث ، حيث تحيا الأرض ، ويخضرّ العشب ، وكناية أخرى عن صفة في قوله " ولا يُحَلُّ حمانا " إذ وصف قومه بالقوة ، وشدة المنعة .

أما الكناية عن صفة فقد حظيت بجانب كبير من شعره ، وكانت غالبة على أسلوبه الكنائي ، وسوف أعرض لها حسب الموضوعات التالية :

١ - الحرب . ٢ - المرأة .

٣ - الناقة . ٤ - الكرم .

---

(١) ديوان القطامي ٦٨ .

(٢) المرجع السابق ص ٤٢ .

(٣) المرجع السابق ص ١٨ .

أولاً- الحرب :

يكني القطامي في شعر الحرب عن شدة المعركة ، وعن قوة قومه ، وشجاعتهم ، وإقدامهم لخوض الحروب ، وعن اتصاف قبيلته بالمنعة والاقتدار، كما خص زُفَر الكلابي بمديحه بعد أن خلَّصه من الأسر ، وكنّى عن بعض رجالات قبيلته ، إلى جانب كناياته في الفخر بشعره وقصائده .

ومما كنّى به عن شدة المعركة قول(١) :

وَلَوْ ثَوَّبَ الدَّاعي بِشَيْبَانَ زُعْزِعَتْ   رِمَاحُ وجاشَتْ من جوانبها الْقِدْرُ(٢)
لُجَيْمِيَّةٌ خَرْســـــاءُ أو ثَعْلَبيَّةٌ   يَحُشْنَ حُمَيَّاها المَساعِرَةُ الزُّهْرُ(٣)
هُمُ يَوْمَ ذي قارٍ أناخُوا فَجَالَدُوا   كَتَائِبَ كِسْرَى بَعْدَما وَقَدَ الجَمْـرُ
فَظَلَّتْ بَناتُ الحِصْنِ بالمِسْكِ تَطَّلي   لَدَيْهِمْ وقد طَابَتْ بأَيْدِيهِمُ الْخَمْرُ

يصف الشاعر شجاعة قبائل ربيعة حين يدعون للنصرة ، فما إن تنشأ معركة إلاَّ وهم أكثر الناس بِداراً إليها ، وتأتي المبادرة بحجم تلك الدعوة المستغيثة المستصرخة التي تردد صداها في بني شيبان . وجملة " زُعزعت رِماحُ " كناية عن سرعة التلبية .

كما كنّى بقوله " جاشَتْ من جوانبها القِدْرُ " عن شدة الحرب ، وتلك الحالة من الغليان عبَّر عنها بجيشان القدر ، وقوله " من جوانبها " لطيفة في موقعها ؛ فقد صوَّرت قمة الاضطراب والاحتدام الذي أتى على ما في

---

(١) ديوان القطامي ٦٠ .

(٢) خَرْساءُ : كتيبة خَرْساء إذا صمتت من كثرة الدُّرُوع أي لم يكن لها قعاقع، اللسان ٦/٦٢ .

(٣) يَحُشْنَ : حَشَّ الحرب إذا أسعرها وهيجها ، اللسان ٦/٢٨٤ .
حُمَيَّاها : شدَّتها وحِدَّتها ، اللسان ١٤/٢٠١ .
المَساعِرةُ : مسعر الحرب : مُوقِدُها ، اللسان ٤/٣٦٥ .
الزُّهْرُ : الأزهرُ : الأبيض العتيق البياض النيِّرُ الحَسَنُ ، اللسان ٤/٣٣٢.

القدر فطفح على جوانبها !

ويكني القطامي عن كثرة الدُّروع في الحرب " لُجَيْمِيَّةٌ خَرْساء " فسلاحهم صامت لا يُسمع له جلبة لضخامة تلك الدروع وكثرتها ، وقوله "بعدما وقد الجَمْرُ" كناية عن الحرب . ويشير الشاعر إلى معركة ذي قار ، والتي تعد أوّل يوم انتصفت فيه العرب من العجم ، وكان ذلك بعد أن أخذت بكر بن وائل تُغير على السَّواد ، فوفد قيس بن مسعود على كسرى ، وسأله أن يجعل له أُكُلاً وطُعمة على أن يضمن له بكر بن وائل ألا يدخلو السَّواد ، ولا يفسدوا فيه فأقطعه الأُبُلّه ، وجعل قيس بن مسعود يعطي من يأتيه من بكر وعاءً من تمر وثوباً من قطن حتى قدم إليه الحارث ابن وعلة والمكسّر بن حنظلة ، فأعطاهما مثل ما يعطي غيرهما ، لكنهما غضبا ، ورفضا ولم يقبلا ذلك منه ، وخرجا واستغويا ناساً من بكر ، ثم أغارا على السَّواد ، فلما بلغ ذلك كسرى غضب ، وأمر بحبس قيس بن مسعود ، ثم أرسل إلى إياس بن قبيصة يستشيره في الغارة على بكر بن وائل ، إلا أنه لم يثق برأيه ، وكان عنده النعمان بن زرعة التغلبي - الذي يطمع في هلاك بكر - فأشار على كسرى أن ينتظر إلى وقت القيظ ، حيث تتجمع بكر على ماء يقال له ذو قار ، فوافقه كسرى ، ثم سارت جمُوعُه ، والتقى الجيشان ، وانتهت المعركة بانتصار بني شيبان من ربيعة على جنود كسرى[١] .

ثم إنَّها حربٌ لها سعار شديد ، يشعلها ويؤججها فرسان مساعير لهم وجوهٌ تبرق وتتلألأ تشبه النجوم اللامعة " يَحشْنَ حُميَّاها المساعِرةُ الزُّهْرُ " .

واطّلاء بنات الحصن لأزواجهن بالمسك تطيباً في قوله " فظلَّت بناتُ الحسن بالمسك تطلى لديهم " كناية عن فرحة الانتصار ، التي أدّت إلى الأخذ

---

(١) يُنظر : أيام العرب في الجاهلية ، لمحمد أبو الفضل إبراهيم ، وعلي محمد البجاوي ٦ - ٣٩ .

بمُتَع الحياة ، وكان الاستعداد للحرب ، والاشتغال بها مانعاً منه . وكان العربيّ إذا أُصيب برزء يقسم ألا يشرب خمراً ، ولا يمس طيباً ، ولا يقرب النساء حتى يدرك ثأره فإذا تم ذلك فَعَل ما حرّم على نفسه وفي نحو هذا يقول امرؤ القيس(١) :

حلَّتْ ليَ الخمرُ وكنــت امرأً عـن شرْبِها فـي شغُلٍ شـاغلِ
فاليومَ فاشربْ غيرَ مستحقبٍ إثْماً من اللّــــهِ ولا واغـلِ

ومن الكناية عن هول القتال قوله(٢) :

بِضَرْبٍ تَبْصِرُ العُمْيـانُ مِنْهُ وتَعْشَى دُونَهُ الْحَدَقُ البِصَـارُ

يصورِّ القطامي هول المعركة والطعن ؛ فالخطبُ شديدُ أصاب الأعداء بالخوف والوجل ، وأفقدهم القدرة على الإبصار " تَعْشَ دُونَهُ الحَدَقِ البِصَارُ " فمن كان بصيراً أصابه العشى في حدقتيه ، والعشا : هو سُوء البَصر من غير عمىً (٣)، أما العميان فإنه أعاد إليهم أبصارهم ليروا ما يُروّع ويُذهل "بِضَرْبٍ تَبْصِرُ العـمـيـانُ منه " ، وفي هذا دلالة على شدة البأس ، وقوة الضراب . وهذه الحالة تقابلها حالة أخرى كنى بها أيضاً عن شدة الحرب حين اشتعل ضرامها في قوله(٤) :

بِضَرْبٍ تَنْعَسُ الأَبْطالُ مِنْـهُ وتَمْتَكِرُ اللِّحَى مِنْـهُ امْتِكـارا(٥)

وصلابة الموقف هنا تجلت في رؤية هؤلاء الأعداء ، وقد تَسرَّب النعاس إلى أجفان أبطالهم فأطبقها بعد أن توالت الضربات على رؤوسهم ، واهتزت أجسامهم ، وتطايرت أشلاؤهم في كل اتجاه ، أما لحُى القوم فقد اصطبغت

---

(١) ديوان امرئ القيس ٢٥٨ .
(٢) ديوان القطامي ٨٨ .
(٣) اللسان ١٥/٥٦ .
(٤) ديوان القطامي ٦٣ .
(٥) تَمْتَكِرُ : تختصب ، اللسان ٥/١٨٣ .

بالدماء " وتمتكرُ اللُّحَى منه امتكارا " .

والصور فيها من الظلال والألوان ما يشهد بالإجادة ، وقدرة الشاعر على إبراز أفانين قومه الحربية .

ومع امتداد الحروب وتزايدها تعظم الكارثة في نظر القطامي؛ لاستمرار الدماء النازفة من جروح دفينة ومستديمة عبَّر عن شناعتها بقوله(١) :

فَأَصْبَحَ سَيْلُ ذَلِكَ قَد تَرَقَّى   إلى مَنْ كَانَ مَنْزِلُهُ يَفَاعا

وَكُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ لِذاكَ يَوْماً   يَبُزُّ عَنِ المُخَبَّأةِ القِناعا(٢)

يكني الشاعر عن اشتداد الحرب ، وبلوغها غايتها بقوله "فَأَصْبَحَ سَيْلُ ذَلِكَ قَد تَرَقَّى " ، والسيل يعني كثرة الدماء وتدفقها وارتفاعها لليفاع ، واليفاع : المُشْرف من الأرض والجبل(٣) ، فهو سيل يطغى ويرتفع في سرعة رهيبة واندفاع شديد حتى إنَّه ليصل إلى " من كان منزله يفاعا " ، وقد وفق الشاعر في اختيار لفظة " يفاعا " للتدليل على مدى استفحال الحروب وتصعدها .

والصورة سوف تأتي معنا في " مصادر التصوير البياني في شعر القطامي " .

ثم إنَّ التضعيف في " ترقّى " له تأثير قوي في تجسيد تلك المعارك الطاحنة ، التي تفوق قوة اندفاع السيل .

ويتعاظم إحساس القطامي ، وتزداد مخاوفه لما سينجم عن العداء

---

(١) ديوان القطامي ٣٨ .

(٢) يَبُزّ الشيء : انتزعه ، اللسان ٣١٢/٥ .
المُخَبَّأة : المستترة ، وقيل : هي المخدرة التي لا بروز لها ، اللسان ٦٢/١ .

(٣) يُنظر : اللسان ٤١٤/٨ .

التغلبي القيسي " وكنت أظن أن لذاك يوماً " ، فيلجأ إلى أسلوب الكناية في قوله " يبزُّ عن المخبأة القناعا " ، حيث يكني عن شدة هول المعركة ؛ لأن المخدرة لا يُنزع قناعها إلا في وقت الشدة ، وللشعراء في هذا الباب كنايات لا تحصى قيلت عن شدة الهول ، وما يحدثه من فزع يخرج المرأة عن طورها .

يقول المهلهل(١) :

على أنْ لَيْسَ عَدْلاً مــن كُلَيْبٍ ... إذَا بَرَزَتْ مُخبَّـــأةُ الْخُـــدورِ

والناظر إلى الكنايتين يجد أن المهلهل قد ركز في تصوير ذلك الفزع على بروز المخبأة من خدرها ، ومع أن المخبآت لا يخرجهن إلا الأمر الصعب المحيِّر الذي يسلبهن تفكيرهن ، ويُنسيهن حرصهن على الاحتشام ، وعدم التبذل ... إلا أن قول القطامي أكثر كشفاً لهول ذلك اليوم ،فقوله " يبزُّ عن المخبأة القناعا" فيه تصوير مُعبِّر ومؤثر لمبلغ الرعب الذي أذهل المخبأة عن قناعها حين نُزع عنها ، ولم تفطن له ، بل ربما انتزعته هي بنفسها عندما تملكتها حيرة قاتلة لما حلَّ بها من ذعر وهلع ، فهو يومٌ مخوفٌ لا يدع قناعاً لمخبأة .

هذا ، ويبقى للمهلهل فضل السبق .

كما تجسد ذهول القوم في حالة المرأة التي أصابها الارتباك ، وعلاها الاضطراب والخوف صوَّر ذلك بشر بن أبي خازم ، في قوله(٢) :

فكانوا كذاتِ القدرِ لم تَدرِ إذْ غَلَتْ ... أتُنْزِلُهـــا مَذمـــومةً أم تُذِيبُها ؟

---

(١) أمالي أبي علي القالي ١٣٢/٢ .

(٢) ديوان بشر بن أبي خازم ١٦ .

وهذه الحيرة التي تبدو واضحة في قوله"أتُنْزِلُها مَذمومةً أم تُذِيبُها؟" ، وما يتبعها من مدٍّ وجزر ، وتجاذب لا إمهال معه ، وما ذاك إلاّ لفجاءة الموقف وبشاعته ! .

ويكني القطامي عن قوة قومه ، في قوله(١) :

فَما جَبُنُــوا وَلكِنَّـــا أُناسٌ   نُديمُ لِمَنْ يُقارِعُنـــا القِراعا
فَأَمَّا طَيِّيءُ فـــإذا أتـــاها   نَذائِرُ جَيْشِنا وَلَجُـوا القِلاعا
وَأَمَّا الحَيُّ مِــنْ كَلْبٍ فإِنَّـــا   نُحِلُّهُمُ السَــواحِلَ وَالبِقـــاعا

يفاخر الشاعر بشجاعة قومه ، وقوله " نُديمُ لِمَنْ يُقارِعُنا القِراعا " عبَّر عن دوامهم على عداوة من عاداهم ، وقراع كل من قارعهم ، فقد أخافوا القبائل القوية ؛ فهذه " طَيِّيءُ " ما إن تسمع بأنباء جيش " تغلب "حتى تصاب بالهلع، وتهرع إلى القلاع فلا تغادرها " ولجوا القلاعا " حيث كنى بها عن اتصافهم بالجبن . أما قبائل "كلب" فتضطرهم قبيلة الشاعر إلى التلاع ، وفي هذا كناية عن قوة قومه واقتدارهم ، وأن قبائل العرب الكبيرة والشجاعة والقوية لا طاقة لهم بمقابلتهم .

وفي الأبيات نلحظ الاتكاء على لفظة " أمَّا " في مواطن الفخر ، وتعداد المفاخر والبطولات ، وقد قصد من ذلك التفصيل .

كما كَنَى عن شجاعتهم ، وجرأتهم في الحروب ، في قوله(٢) :

لَيسَتْ تُجَرَّحُ فُرَّاراً ظُهورُهُـــمُ   وفــي النُحُورِ كُلـومٌ ذاتُ أَبْـلادِ(٣)
لا يُغْمِدون لَهُمْ سَيْفاً وقد عَلِموا   أَنْ لـم تَـكُنْ لَهُـمُ أَيَّامُ إغْمـادِ
لا يُبْعِدِ اللّهُ قَوْماً مِنْ عَشيرَتِنـا   لم يَخْذُلونا على الجُلَّى ولا العادي(٤)

---

(١) ديوان القطامي ٤١ .

(٢) ديوان القطامي ١٢ - ١٣ .

(٣) أبْلاد : البَلَدُ : الأثر ، والجمع أبْلادٌ . اللسان ٣/٩٥ .

(٤) العادي : من عدَ يَعْدُو إذا ظلم وجار . اللسان ١٥/٣٣ .

يكني القطامي في الشطر الأول من البيت عن صفة الجبن ، التي نفاها عن قومه ؛ وذلك حين نفى الجراح الدامية عن ظهورهم فهم شجعان عُرفوا بالمواجهة ، لا يخشون لقاء الأعداء " ليست تُجرَّح فُرَّاراً ظهورهم " ؛ فنحورهم تدمى من كثرة الجراح النازفة ، وتظل عليها آثارٌ من تلك الكلوم " وفي النحور كُلومٌ ذاتُ أبْلاد" ، وهي دلالة على صدق المواجهة والإقدام ، والتصدي للعدو في ثبات وثقة .

وللشاعر الحصين بن الحُمام المري صورة كنائية رائعة تشبه ما قال القطامي ، وذلك حيث يقول(١) :

فلسنا على الأعقاب تَدْمَى كلُومَنا ولكن على أقدامنا تَقْطُرُ الدِّما

وإن أبرز الشاعر الحصين المري صفة الثبات على أرض المعركة بصورة أدق . فهي حروب سلمت فيها ظهورهم ، فلم تصبهم جراح من الخلف ؛ لأنهم في مواجهة متصلة ومستمرة مع العدو ، ولهذا جاء بالنفي " فلسنا على الأعقاب تدمى كلُومَنا" ، أما القطامي فقد أتى بالنفي كذلك إلاَّ أن لفظة " فُرَّار " قللت من تلك البطولة ؛ لكونها حصرت معنى المواجهة في انتفاء الفرار عنهم فحسب ، ذلك أن عدم فرارهم ترتب عليه عدم إصابة ظهورهم ، في حين أن إظهار الاستماتة والتفاني فتبدو أكثر في قول الحصين ، وبضمير الجمع " فلسنا على الأعقاب . . . " .

كما أن القطامي أشار إلى وجود نحور تنزُّ منها الدماء لما أصابها من جراحات عميقة ، بينما صوَّرها الحصين دماءً تقطر على أقدامهم دون توقف ، الأمر الذي يُشعر بعظم رسوخهم في ساحة الوغى دون خوف أو تزعزع . كذلك يكني القطامي عن استعداد قومه للقتال مفاخراً بشجاعتهم الحربية " لا يغمدون لهم سيفاً " كناية عن صفة الشجاعة ، والمهارة القتالية ، واستعدادهم

---

(١) ديوان الحماسة ١/١١٤ .

أبداً للقتال ؛ فسيوفهم مشرعة لا توضع إلا على رقاب الأعداء .

ويكني عن تحفزهم المستمر ، وحالة الاستنفار الدائمة بقوله " لم تكن لهم أيَّامُ إغمادِ " ، وقد اجتمعت كنايتان تدور حول معنى واحد إلاَّ أنَّ الكناية الأولى جاءت تصف الشجاعة بعامة ، أما الثانية ففيها تخصيص وتأكيد للمعنى .

وتكرر ذلك كثيراً في شعر القطامي ، وقد حلل هذه الظاهرة ، وأوضحها الشيخ عبد القاهر بقوله : " وقد يجتمع في البيت الواحد كنايتان ، المغزى منها شيء واحد ، ثم لا تكون إحداهما في حُكم النظير للأخرى . مثال ذلك أنه لا يكون قوله " جبان الكلب " نظيراً لقوله : " مهزول الفصيل"(١)، بل كل واحدة من هاتين الكنايتين أصلٌ بنفسه ، وجنس على حدة ، وكذلك قَوْلُ ابن هَرْمَةَ :

لا أُمْتِعُ العُــوذَ بالفِصَال ولا   أبْتَـاعُ إلا قريـبةَ الأجَـلِ

ليس إحدى كنايتيه في حكم النظير للأخرى ، وإن كان المكنّى بهما عنه واحداً"(٢) .

ويدعو القطامي لبعض أقربائه " لا يبعد اللّه قوماً من عشيرتنا" ، فقد عرفوا بالتضحية والفداء في جميع الأحوال في الشدة والرخاء .

ومن كنايات الحرب ما قيل في مجال الفخر، والمباهاة بقوة القبيلة، في قوله(٣):

فَنَحْنُ الزِمامُ القائدُ المُهْتَدى بِـهِ   وَمَنْ غَيْرُنا المَوْلَى التبيعُ المُحالفُ
إذَا اصْطَكَّ رَأْسانا احْتَلَلْنا بِباذِخٍ   بِرُكْنَيْهِ تَعْتاذُ المَوالي الزَعانِفُ(٤)

---

(١) يشير إلى قول الشاعر :
وما يَكُ فيَّ مِنْ عَيْبٍ فإنّي   جَبانُ الكلبِ مَهْزُولُ الفَصِيلِ

(٢) دلائل الأعجاز ، ٣١٢ .

(٣) ديوان القطامي ٢٧ .

(٤) احْتَلَلْنا : احْتَلَّه : نزل به ، اللسان ١٦٣/١١ .
بباذخٍ : جبل طويل ، اللسان ٧/٣ .
تَعتاذ : عاذ به : لاذ به ولجأ إليه واعتصم ، اللسان ٤٩٨/٣ .
الزَعانفُ : القِطَعُ من القبائل تَشِذُّ وتَنْفَردُ ، اللسان ١٣٥/٩ .

وَنَحْنُ تَرودُ الخَيْلُ وَسْطَ بيُوتِنا   ويُغْبَقْنَ مَحْضاً وَهيَ مَحْلُ مَسانِفُ(١)

يشبه القطامي قومه بالزمام في السيادة والقيادة بقوله " فنحن الزمام " ، وقوله " وَمَنْ غَيْرُنا المَوْلَى التَبيعُ المُحالف" كناية عن أن الناس كلهم دونهم ، فليس منهم سادة ولكن موالي وأتباع وحلفاء ، وفيها فخر بقومه ، وتحقير لغيرهم !

وجملة " إذا اصطك رأسانا " اصطكوا بالسيوف أي تضاربوا بها(٢) . والاصطكاك للأسنان في شدة البرد ، وقد استعاره الشاعر هنا كناية عن تزاحم الأبطال في الحرب العنيفة ، والتلاحم القوي .

و " تعتاذُ المَوالي الزَعانِفُ " دلّت على أن عزّهم وصل إلى الجميع حتى شمل الموالي والأتباع .

وفي البيت الأخير يكني القطامي في الشطر الأول منه عن كثرة خيولهم ، فهي تروح وتجيء " ونحن ترود الخيل وسط بيوتنا " ، ووجود الخيل بهذه الكثرة يستدل منه على أنهم أصحاب سيادة وغنى ، يملكون بها الخيل ، ولأن الكناية تعني إطلاق لفظ وإرادة لازم معناه ، فقد ذكر حال خيلهم ، وأراد من ذلك إثبات الجاه والمكانة لقومه ، وفي الشطر الثاني زاد المعنى تثبيتاً بقوله: " يغبقن مَحْضاً وهي مَحْلُ مسانِفُ " ، فكل غبوق محض مبذول لها لاعتزازهم بها ولو كانت البيوت جدبا ، حيث كنى بها عن كرمها لديهم ، وقدرها في نفوسهم .

والملاحظ أنها أساليب مختلفة كل أسلوب منها يحمل دلالة تتوجه في ضوء السياق الذي وردت فيه ؛ فهم قومٌ لهم ما ليس لغيرهم من مظاهر الجاه والسلطة ، فكل حمىً هو حماهم ، وكل مكان شامخ أشرف وارتفع كالجبل

---

(١) يغبقن : الغَبُوق : الشرب بالعشي ، اللسان ٢٨١/١٠ .
المَحْلُ : الشدّة ، وهو نقيض الخِصبُ ، اللسان ٦١٦/١١ .
المَسانِفُ : السِّنُونُ المجدبة كأنهم شَنَعوها فجمعوها ، اللسان ١٦٣/٩ .

(٢) يُنظر : اللسان ٤٥٦/١٠ .

يصبح لهم ؛ لتكون بقية القبائل في حمايتهم ، كما أن لهم الكثرة الكاثرة من الإبل والنعم التي تنهل من المورد العذب الصافي في زمن القحط والمسغبة «ويُغْبَقْنَ مَحْضاً وَهيَ مَحْلُ مَسانِفُ » .

وقد كان للكناية دورٌ في إيراد ما يدل على تلك المعاني ، ويشهد على تحققها ، فهو أسلوب يسوق الحقيقة مصحوبة بدليلها ، وعن فضلها يقول الإمام عبد القاهر : " . . . وكما أن الصفة إذا لم تأتك مصرَّحاً بذكرها ، مكشوفاً عن وجهها ، ولكن مدلولاً عليها بغيرها ، كان ذلك أفخم لشأنها ، وألطف لمكانها ، كذلك إثباتك الصِّفة للشيء تُثْبِتها له ، إذا لم تُلْقِه إلى السامع صريحاً ، وجئت إليه من جانب التعريض والكناية والرَّمْز والإشارة ، كان له من الفضل والمزيَّة ، ومن الحسن والرَّوْنق ، ما لا يقلُّ قليلُه ، ولا يُجْهَل موضعُ الفضيلةِ فيه "(١) .

يقول القطامي(٢) :

أَتاني مِنَ الأَزْدِ النَذيرةُ بَعْـــدَما ... تَناشَدَ قوْلي بالعِراقِ المجَالِـــسُ
فَقالوا عَلَيْكَ ابْنَ الزُبَيْرِ فَعُـــذْ بِهِ ... أَبى اللهُ أَنْ أَخْزَى وَعِزٌّ خُنابِسُ
وإنِّي امرؤٌ فـي العُودِ مِنِّي صَلابةٌ ... وَفِـــي جَبلَى بَكْـرٍ وَتَغْلِبَ حابِسُ
وما جَعَلَ اللّهُ المُهَلَّبَ فارِســـاً ... وَلَكِنَّ أَمْثـالَ الهُذَيْلِ الفَــوارِسُ
أَخُو الْحَرْبِ أَمَّا صادِراً فَوَسيقَـهُ ... جميلٌ وَأَمَّا وارِداً فَمُغامِـــسُ(٣)
يَقُودُ الْخَنانيذَ الجِيادَ عَلَى الوَجَى ... تُواعِسُ في ظَلْمائِها ما تُواعِسُ(٤)

---

(١) دلائل الأعجاز ، ٣٠٦ .

(٢) ديوان القطامي ٢٨ .

(٣) صادراً : الصَّدَرَ : رجوع الشاربة من الوِرْد ، اللسان ٤/٤٤٨ .
فَوَسيقَهُ : الوَسِيقةُ القطيعِ من الإبل ، وسميت وسيقة لأن طاردها يجمعها ، ولا يَدَعُها تنتشر عليه ، اللسان ١٠/٣٨١ .
مُغامِسُ : المُغَامَسة : المُداخَلَة في القتال ، اللسان ٦/١٥٧ .

(٤) الْخَنَاذيذَ : الشماريخ الطوال المشرفة ، اللسان ٣/٤٩٠ .
الوَجَـى : الحفا ، اللسان ٥/٣٧٨ .
الإيعاسُ : ضَرْبٌ من سير الإبل في مدّ أعناق وسَعة خطى في سرعة . اللسان ٦/٢٥٦ .

تَعادَى المَراخِي ضُمَّراً في جُنوبِهـا وَهُنَّ مـن الشَطِيّ عارٍ وَلابِسُ

يستهل الشاعر قصيدته بطرح قضية الإنذار ، والفخر بشعره ، فقد جاء في أنساب الأشراف : " قال عوانة بن الحكم وغيره : لما ولّى مصعب المهلَّب بن أبي صُفْرة الموصل والجزيرة بعث إلى بني تغلب وكانوا مَرْوانيّة إن تُبايعوا أمير المؤمنين عبدالله بن الزبير وإلاّ أتاكم جيش يُنسيكم قيساً ويُلحقكم بمن قتلتم منهم وقتلوا منكم ، فعُزل قبل أن يُحدث فيهم حَدَثاً فلذلك قال القُطامي .. "(١) ثم ذكر الأبيات المشار إليها .

وقوله " تَناشَدَ قَوْلي بالعِراقِ المَجالِسُ " عبَّر عن ذيوع إنشاد قوله بالبلاد والمجالس .

كما كنّى القطامي عن قوته وشدته بقوله " في العود مني صلابة" . ويشبه القبائل المذكورة بالجبل في شدتها ومنعتها ، وقوله : " وما جعل الله المهلَّب فارساً " تنديد وتحقير ، في حين يخص بالمدح الهذيل من بني تغلب " أخو الحرب " ، فهو صنوها والعليم بها " أمَّا صادِراً فَوَسيقُـهُ جمِيلٌ وَأَمَّا وارِداً فَمُغامِـس " ، وصادر ، ووارد بينهما طباق ، واستعمال " الصدور والورد " للحرب استعارة مكنية ، وجملة " فَوَسيقُهُ جميلٌ " كناية عن أنه حين يصدر عن الحرب لا يسوق إبلاً ، وإنما يسوق الأبطال أسرى عنده ، وكذلك عن أنه لا يسرع بهم خوفاً من أن يلحق به العدو ويدركه ؛ لأنه شجاع ثابت واثق مطمئن " يقُودُ الخناذيذ على الوَجَى " ، و " الخناذيذ" الخيل الطوال المشرفة(٢) ، ، وقوله " تُواعِسُ في ظَلْمائِها ما تُواعِس " كناية عن كون هذا

---

(١) أنساب الأشراف ، للبلاذري ٣٢٨/٥ .

(٢) اللسان ٤٩٠/٣ .

القائد يقود مرتفعات خيله في الظلمة ، ولتطأ ما تطأ بلا مبالاة ! وفيها إظهار للجسارة وحسن المراس .

ويصف سرعة تباريها في الجري "تَعادَى المَراخِي ضُمَّراً في جُنوبِها" وهي كناية عن سهولة الجري في الميدان ، و في " جنوبها " أضاف قوة للمعنى ؛ لأن الضمور جاء في هذه الأماكن مضيفاً عليها أصالة فوق أصالتها، ثم إن الغبار كساها ففي المكان السهل تكون لابسةً ، وفي الحَزن تتعرى ؛ لعدم وجود الغبار . " والشَطِيّ : الشَّطَوِيَّة ضرب من ثياب الكتان تُصْنَعُ في شَطى(١) . وقد كنّى بها عن تراب الحرب .

وصورة القطامي تشبه قول عَديًّ بن الرِّقا ع يصف حِمارَيْن وحشيين ، في قوله(٢) :

يتعاوَران من الغُبـــارِ مُلاءةً بيضاءَ مُحْدَثَةً هما نَسجَاهـا(٣)

تُطْوَى إذا عَلَوَا مَكاناً جاسِياً وإذا السَّنابكُ أسْهَلَتْ نَشرَاها(٤)

والمعنى المشترك بين الصورتين هو هذه الهيئة من البسط والطي في تعاور وتداول بديع لملاءة من غبار " بيضاء مُحْدَثَةً هما نَسجَاها " !

كما شغل مديح القطامي لـ " زُفَرَ الكلابي " جانباً مهماً من شعره ، وذلك نتيجة أسره ، فقد أُسر القطامي في حروب قومه مع قيس ، إلا أن زُفَر ابن الحارث أطلق إساره ، ورد عليه ما نُهب من ماله ، ومنحه مائة ناقة . وهناك

---

(١) اللسان ١٤/ ٤٣٣.

(٢) ديوان عَديٍّ بن الرِّقَاع ١٠٥ .

(٣) يَتعاوَران : التَّعاورُ : شبه المُداوَلة ، والتَّداولُ في الشيء يكون بين اثنين ، اللسان ٤/٦١٨ .

(٤) السّنابكُ : سَنابك الأرض : أطرافها ، اللسان ١٠/٤٤٤ .
أسْهَلَتْ : أسْهَل : إذا صار إلى السَّهْل من الأرض ، وهو ضد الحَزْن ، اللسان ١١/٣٤٩ .

بعض المصادر التي أوردت قصة أسره ، ومن ذلك ما جاء في جمهرة النسب ، لابن الكلبي حيث ذكر بأن " عمير بن الحباب سار إلى بني تغلب فلقيهم قريباً من ماكسين على شاطيء الخابور بينه وبين قرقيسيا مسيرة يوم ، فأعظم فيها القتل .

وذكر زياد بن يزيد بن عمير بن الحباب :

أن القتل استحر ببني عتاب بن سعد ، والنمر ، وفيهم أخلاط تغلب ، ولكن هؤلاء معظم الناس ، فقتلوهم بها قتلاً شديداً ، وكان زفر بن يزيد أخو الحارث بن جشم له عشرون ذكراً لصلبه ، وأصيب يومئذ أكثرهم ، وأُسر القَطامي الشاعر ، وأخذت إبله ، فأصاب عمير وأصحابه كثيراً من النعم ، ورئيس تغلب يومئذ عبدالله بن شريح بن مرة فقتل ، وقتل أخوه . . . وجعل عمير يصيح بهم " ويلكم لا تستبقوا أحداً " ، ونادى رجل من قشير يقال له النَّدَّاد : " أنا جار لكل حامل أتتني فهي آمنة " فأتته الحبالى ، فبلغني أن المرأة كانت تشدُّ على بطنها الجفنة من تحت ثوبها تشبيهاً بالحبلى ، بما جعل لهن ، فلما اجتمعن له بقر بطونهن ، فأفظَع ذلك زُفر وأصحابه ، ولام زفر عميراً فيمن بقر من النساء ، فقال ما فعلته ولا أمرت به . ولما أسر القطامي أتى زفر بقرقيسيا فخلَّى سبيله ، ورد عليه مائة ناقة ، فقال القطامي يمدحه :

قِفي قَبْلَ التـــفرُّقِ يا ضُبــاعا   ولا يكُ موقفُ منـكِ الوداعا "(١)

ومما قاله فـــي زُفَر الكلابـــي وذلك بعد إطـــلاق سراحه :(٢)

مَنْ مُبْلِغُ زُفَرَ القَيْسيَّ مِدْحَتَـــهُ   من القُطـــامِيِّ قَوْلاً غَيْرَ إفْنادِ(٣)

إنّي وإنْ كان قَوْمي لَيْسَ بَيْنَهُمُ   وبَيْنَ قومِكِ إلاَّ ضَرْبَةُ الهادِي(٤)

---

(١) يُنظر : جمهرة النسب ، لابن الكلبي ٣٠٨/٢ ، ٣٠٩ .

(٢) ديوان القطامي ١٠ .

(٣) إفْنَاد : الفَنَدُ : الكذب ، اللسان ٣٣٩/٣ .

(٤) الهادي : العُنقُ لتقدّمه ، اللسان ٣٥٦/١٥ .

مُتْنٍ عَلَيْكَ بما استَبْقَيْتَ مَعْرِفَتي   وقَـد تَعَرَّضَ مِنِّي مَقْتَـلُ بادِي

فلَنْ أُثيبَـك بالنَعْمـاءِ مَشْتَمـةً   ولَنْ أُبدِّلَ إحْسـاناً بإفْسـاد

يتوجه الشاعر بالثناء لمدوحه الذي فك إساره حين أصبح موته محققاً " وقد تعرَّض مني مقتلُ بادِ " ، وقد كنّى بها عن مواتاة الفرصة لقتله ، وهي مدحة تحتاج إلى مبلغ ينقلها إلى من قيلت من أجله ، حتى وإن كان بين الشاعر وقوم ممدوحه عداوة متأصلة كنّى عنها بقوله " ضربة الهادي " إلاّ أنه لن يقابل الحسنة بالسيئة ، ولا المثوبةَ بالمشتمة " فلن أُثيبك بالنعماء مشتمة " .

وهذا الإقرار بالفضل ، والاعتراف بالجميل صرَّح به في قصيدته العينية حيث يقول مخاطباً زُفَر الكلابي(١) :

أَكُفْراً بَعْـدَ رَدِّ المَوْتِ عَنِّي   وَبَعْـدَ عَطائِـكَ المِـائَةَ الرِتـاعا

فَلَوْ بِيَديْ سِواكَ غَداةَ زَلَّتْ   بِي القَـدَمانِ لَـمْ أَرْجُ اطِّـلاعا

يبرأ القطامي من نكران تلك المنن ، وذلك في دفع القتل عنه " أكفراً بَعْدَ رَدِّ المَوْتِ عَنِّي " وهو استفهام تعجبي إنكاري أي لا يكون ذلك مني ، وقد كنّى بقوله "زلّت بي القدمان" عن صفة السقوط والضياع ، والشاعر يصفها بزلة قدم لكنه في الوقت ذاته يستشعر عظم تلك النصرة ، التي لولاها ما أمّل نجاةً ولا خلاصاً " لم أرْجُ اطّلاعا " .

كذلك لجأ القطامي إلى الشعر يبثه حزنه وأساه حين تخلى عنه قومه بعد أن وقع في ذل الأسر ، ومن ذلك قوله(٢) :

إِذِ الْفَوارِسُ مِن قَيْسٍ بِشِكَّتِهِمْ   حَوْلي شُهودٌ وما قَوْمي بِشُهَّادِي(٣)

---

(١) ديوان القطامي ٤١ .

(٢) ديوان القطامي ١١.

(٣) بِشِكَّتِهِمْ : الشِّكَّةُ : ما يلبس من السلاح ، اللسان ٤٥٢/١٠ .

إِذْ يَعْتَرِيكَ رِجــالٌ يَسْأَلُونَ دَمِي ... وَلَوْ أَطَعْتَهُمُ أَبْكَيْــتَ عُوَّادِي
فقد عَصَيْتَهُـمُ والحَرْبُ مُقْبِلَةٌ ... لا بل قَدَحْتَ زِناداً غيرَ صَلاَّدِ(١)

يزداد إكبار الشاعر لممدوحه ، وفضائله التي لا تنسى " إِذْ يَعْتَرِيكَ رِجــالٌ يَسْأَلُونَ دَمِي "، والتعبير بـ " يعتريك " صوَّر شدة إلحاح أعدائه للإيقاع به ، إلا أن عصيان زُفَر لهم دلَّ على حسن المحاماة ؛ فعلى الرُّغم من إلحاحهم للنيل من أسير زُفَر تحدى تكالبهم ، وجعله في منعة من أن يناله أذىً ، ولو حدث لوقع ما لا تحمد عقباه في حق الشاعر ومصيره " وَلَوْ أَطَعْتَهُمُ أَبْكَيْــتَ عُوَّادِي"، فالمكنَّى عنه هو صفة القتل ، وهي كناية أفادت أن له أحبة يخشى عليهم حرقة الفراق ، وألم الفقد .

ويواصل القطامي إطراءه لممدوحه ، وفي قوله " لا بل قَدَحْتَ زِناداً غيرَ صَلاَّدِ " تشبيه تمثيلي ، فقد قصد كريماً سريع الإجابة لدواعي العطاء والتفضل كالزناد الواري في سرعة إشعاله .

ومن الكنايات في شعر الحرب ما قيل عن بعض رجالات قبيلته ، في قوله(٢) :

تَذَكَّرتُ هَمَّاماً وَذَكَّرَنِــي بِـه ... زَمـانٌ كَأَحْنَـاءِ الرِحَــالَةِ آزِمُ(٣)
بِأَبْيَضَ ما يَنْفَكُّ عاقِدَ رايَــةٍ ... لِمُرْدٍ عَـلى جُرْدٍ لَهُنَّ هَماهِــمُ
وخُيِّرَ فَاخْتَارَ الْجِهادَ وَقَدْ تُرَى ... لَدَيْــهِ نِســاءٌ مُرْشِقَــاتٌ نَواعِمُ
لأَفْراسِهِ يَوْماً عَلَى الدَّرْبِ وَقْعَةٌ ... تَصَلْصَلَ فِي أَشْداقِهِنَّ الشَكائِمُ(٤)

---

(١) غيرَ صَلاَّدِ : صَلَد الزَّنْدُ ، وأصْلَدَ : صَوَّتَ ولم يُورِ ، اللسان ٢٥٧/٣.

(٢) ديوان القطامي ٤٨ .

(٣) همّام بن مطرّف سيد تغلب في الإسلام . الديوان ص ٦٠ .
إحنــاء : حِنْو الرَحل : كُلّ عود مُعْوَجٍّ من عيدانه ، اللسان ٢٠٤/١٤ .
الرحالة : أكبر من السَّرْج وتُغَشَّى بالجلود ، اللسان ٢٧٥/١١ .
أزم : أَزَمَ عليهم العامُ والدهرُ : اشتد قَحطُه ، وقيل : اشتدَّ وقَلَّ خَيرُه ، اللسان ١٦/١٢ .

(٤) تُصَلصِلُ : صَلْصَلَةُ اللِّجام : صوته إذا ضُعِف ، اللسان ٣٨١/١١ .

نَما بِكَ يا هَمَّامُ شَيْـخُ وَرِثْتَهُ   بَـنَى لَـكَ والآبـاءُ بانٍ وَهـــادِمُ
فَقُلْ لِبَني مَروْانَ لا تَجْعَـلُنَّهُ   كَآخَــرَ تَمْتَدُّ الضُحَى وَهْـوَ نائِـمُ

يستعرض القطامي مواقف ممدوحه " هَمَّام " ، ويذكره كلما التوت الأمور ، وضاق الزمان ، فقوله " زَمانٌ كَأَحْنـاءِ الرِحالةِ آزِمٍ " كناية عن شدة الزمان على الناس ،وقسوته وانحنائه عليهم كأحناء " خشب " الرِحالة .

والصورة سوف يأتي الحديث عنها في مبحث "مصادرالتصوير البياني في شعر القطامي ".

وهي مقطوعة عذبة ، تعتلي فيها نبرة الانفعال زهواً وافتخاراً ؛ فـ "همَّام " هذا خُيِّر بين أن يعيش في متع وملذات ، وبين اقتحام غمار الحرب ، فاختار ساحة الوغى ، فلا يُرى إلا وهو رافع للراية ، ممسك بها ، وقوله " ما ينفك عاقد راية " كناية عن إشعال نار الحرب ، والاستعداد الدائم للقتال بخيول جرد قصار الشعر يمتطيها شبان مرد " لمرد على جرد"، وفيها جناس ناقص له وقع موسيقي أخّاذ ، وقصر شعر الخيل يدل على كرمها وشدتها .

وجملة " لهن همام " صوَّرت كثرة الأصوات واختلاطها فهي تسمع ولا تفهم ، وقوله " وخُيِّرَ فَاخْتارَ الْجِهادَ وَقَدْ تُرَى لدَيْهِ نِسـاءٌ مُرْشِقاتٌ نَواعِمُ" ، كناية عن علو همته ، وانصرافه عن نواعم النساء إلى الجهاد .

وكَنَى بقوله " تصلصل في أشداقهن الشكائم " عن شدة صولة الأفراس ، وجودتها وغيظها في الحرب من الأعداء حتى صلصلت من كثرة صولتها شكائمها . ويوصي الشاعر بني أميَّة ، ويخص منهم بني مروان بأن يجعلوا همَّاماً في

المنزلة التي يستحقها ، ويحذر من نسيانه وتجاهله بقوله " لا تجعلنه كآخر تمتدُّ الضُّحى وهو نائم " وهي كناية عن خمول الذكر .

ومن باعث النزاع القيسي التغلبي ، فخر الشاعر بشعره ، ومن ذلك قوله(١) :

مِنَ الفِتْيانِ أَقْـذِفُ كُلَّ عَبْدٍ بِجُرْبٍ لَيْسَ فيـهِنَّ اعْتِـذارُ
وَعِنْدَ الحَقِّ تَعْتَزِلُ المَوالـي إِذا ما أُوقِـدَتْ لِلْحَرْبِ نـارُ

فشعره سلاحُ ذو قوة نافذة " مِنَ الفِتْيانِ أَقْذِفُ كُلَّ عَبْدٍ بِجُرْبٍ " ، و "أَقْذِف " عبَّرت عن الغلظة والشدة والقسوة في الزجر والردع ، وعنى بذلك كل من شق عصا الطاعة ، وكنّى بقوله " بِجُرْبٍ " عن القوافي والقصائد اللاذعة ، و "ليس فِيهِنَّ اعْتِذارُ " تشير إلى كونها صريحةً في الردع لا اعتذار فيها ، ولا مواراة .

وذلك إذا جد الجد " وَعِنْدَ الحَقِّ تَعْتَزِلُ المَوالـي " ، والمراد أن الأصيل يثبت ، وغير الأصيل يفر ويعتزل .

وهذا الفخر والاعتزاز عبَّر عنه بقوله(٢) :

وَاسْأَلْ نزاراً وقَدْ كانتْ تُنازِلُنـي بالنِّصْفِ مِن بَيْنِ إسْخانٍ وإبْرادِ
وَاسْأَلْ إياداً وكانوا طالَ ماحَضَرُوا مِنِّـي مَواطِـنَ إدْناءٍ وإبْعـادِ
عَنِّي وعَنْ قُرَّحٍ كانَتْ تُضَمُّ مَعِـي حتّى تَقَطَّعْنَ مِنْ مَثْـنَى وفُرَّادِ
فلا يُطِيقونَ حَمْلي إنْ هَجَوْتُهُـمُ وإِن مَدَحْتُهُمُ لـم يَبْلُـغُوا آدي

يصف الشاعر قوة شاعريته عندما كان ينازل شعراء القبائل التي تتعرض لقبيلته ، ومعلوم أن النزال لا يكون إلا في الحرب ، إلا أنه استعير لبيان المساجلة والمبارزة في الشعر ؛ لأنه يحمل معنى الدفاع عن القبيلة .

---

(١) ديوان القطامي ٨٥ .

وقوله " من بين إسخان وإبراد " كناية عن استمرار نزار في التعرض لقوم الشاعر صيفاً وشتاء ، وطول عداوتها ، مما جعله يطيل تنقيح قصائده ، وتهذيبها كي تقع موقعاً شديد الإيذاء على خصومه وأعدائه ، محدثات للقروح جارحات .

وفي السلم وصفاء البال يكني القطامي عن شاعريته بقوله[١] :

لَئِنِ الهُمُومُ عَنِ الفُؤادِ تَفَرَّجَــتْ وَخَــلاَ التَكَلُّمُ لِلِّســانِ المُطْلَقِ
لأُعَلِقَنَّ عَلَى المَطِـــيِّ قصائـــداً أَذَرُ الرُواةَ بها طَويلي المَنْطِـقِ

فالمكنّى عنه في قوله " لأُعَلِقَنَّ عَلَى المَطِيِّ قصائداً " هو سيرورة شعره ، وتناقل الرواة له . والشاعر يتطلع إلى الوقت الذي يعري القلب فيه من الهموم ، ليقول شعراً يعبر فيه عن المتع والمسرات .

ويكني بقوله " أَذَرُ الرُواةَ بها طَويلي المَنْطِقِ " عن جودة قصائده ، وحسن موقعها في القلوب ، وخفتها على الألسن ، فيطرب الرواة لإنشادها ، وتشيع بين الناس .

---

(١) ديوان القطامي ٣٤ ، ٣٥ .

ثانياً - المـرأة :

كنّى القطامي عن بخل الصاحبة ، كما عبَّر عن طريق الكناية عن التنعم والحظوة اللتين تتقلب فيهما المرأة . يقول القطامي(١) :

وما الْبَخِيلَةُ إلاّ مِنْ صَواحِبِها ... مِمَّنْ يَخُونُ وَمِمَّنْ يَكْذِبُ القَسَمَا
وما تَقاضي غَرِيمٍ لا تَنَجَّزُهُ ... إلاَّ التَّوى لِمَحلِّ الدَّيْنِ أوْ ظَلَما

يشكو الشاعر من بخل الصاحبة وذلك في عبارة تحوي احترازاً " وما البخيلة إلاَّ من صواحبها " ؛ فالبخيلات صواحبها ، وهُنَّ علمنها البخل ، وخيانة العهد ، والكذب في القسم ، وأسلوب القصر لجأ إليه حتى لا يجابهها بتلك الأوصاف "مِمَّنْ يَخُونُ وَمِمَّنْ يَكْذِبُ القَسَما "،لذا نسبها إلى من تصادقهن حين عزَّ عليه أن يصرح ، وإذا كُنَّ يتصفن بذلك فإن القرين بالمقارن يقتدي ، وكثيراً ما نرى المرء يصادق أناساً ثم لا يلبث أن يتطبع بخصالهم ، وينتقل إليه من أخلاقهم وسلوكياتهم ما يشهد بعمق الأثر . فهي كناية عن نسبة صفة إلى موصوف .

وفي البيت الأول نلمح تعريضاً بالصاحبة التي بخلت ، وأخلفت عهودها وذلك من خلال السياق الذي جاءت فيه ، ثم إنَّ هذا العدول في الخطاب ، واللجوء إلى الأسلوب الكنائي شيءٌ قصده الشاعر ؛ لأن المباشرة في القول تحمل فظاظة لا تحسن في حق الموصوفة ، ومع ذلك لا بد من إقرار حقيقة لا مناص منها حين لا تُقضى الديون التي في الأعناق مما يُلْجِيءُ الخصم إلى ما لا يليق "وما تَقاضِي غَرِيمٍ لا تَنَجَّزُهُ " ؛ فهو غريمٌ ينتظر أن يقضى له دينه ، وإن لم ينجز له فقد يقترف ظلماً ، أو يركب الأمر الصعب " التوى لمحلّ الدين أو ظلما " ، ولفظة " التوى " تطوى معها معانٍ كثيرة تكشف مخبوء ذلك الغريم ، وما يعتزم القيام به كي يقتص لنفسه ! وكأن الشاعر يلوم نفسه حتى

---

(١) ديوان القطامي ٦٨ .

في عتابها إذ لا جدوى من تقاضيها مشبهاً إياها بالمدين المماطل .

وقد حرص القطامي في تصويره للصاحبة - كما سبق أن ذكرنا - على إظهارها مترفة منعَّمة ، وقد اعتمد على الأسلوب الكنائي في هذا المعنى أكثر من غيره من ألوان التصوير البياني ، فمرّة يدلل على ترفها ببيان المكان الظليل الممنَّع الذي تتفيأه الصاحبة ، في قوله(١) :

وَأَرَّقني ما لا يَزالُ يَرُوقُني　　غَزالُ أُناس قاصِرُ الطَرْفِ فاتِرُهْ
له مُستَظَلٌّ بارِدُ في مُخَدَّرٍ　　كَنينٍ اذا شَعْبانُ أَحْمَتْ هَواجِرُهْ

فقوله "أَرَّقني ما لا يَزالُ يَرُوقُني " جناس حسن ، كما وصف مستظل هذا الغزال "له مُستَظَلٌّ بارِدُ في مُخَدَّرٍ كَنين .. " وهي كناية عن النعمة والحظوة التي تعيش فيها الصاحبة ، وذلك إذا اشتد الحال بالناس ، فقد جعلها في مأمن من الحر اللافح ، وفي خدر مصون . ويشبه الصاحبة بالغزال في الحسن والرشاقة ، والإضافة في قوله " غزال أناس " تشير إلى الحيطة والمنعة ، وقد كشفت الإضافة عن سر آخر من أسرار جمال المحبوبة ، و " قاصر الطرف فاتره " كناية عن العفاف ، فهي حابسة نظرها على زوجها فلا تنظر إلى غيره تعففاً وتصوّناً . ومرَّة يصف الشاعر ما ترفل فيه الصاحبة من الدعَة وخفض العيش وذلك حيث يقول(٢) :

خَوْدٌ مُنَعَّمَةٌ نضْخُ الْعَبِيرِ بِها　　إذَا تَمِيلُ عَلَى خَلْخالِها انْفَصَما

وهذا ضرب آخر من ضروب التنعم يستلزم معه وصف ما تمتلكه من أدوات الزينة ، فالترف والنعيم باديان في رشاش العبير الذي تناثر عليها ، وفي عبق المسك الذي يتضوع منها ، فقوله " خَوْدٌ مُنَعَّمَةٌ نضْخ العبير بها " كناية عن صفة وهي أنها مرفهة ، ثم إنَّها ما إن تميل على خلخالها حتى ينفصم ، وفي

---

(١) ديوان القطامي ٢٠ .
(٢) ديوان القطامي ٦٩ .

هذا كناية عن كونها ريّانة الجسم ممتلئة الساقين . وفي موضع آخر يكني الشاعر عن صفة الامتلاء بقوله " تأوّدُ عند مشيتها انفتار " ، فهي تمشي في تمايل وتثنٍ وتكسر .

والصورة سبق ذكرها في مبحث " الاستعارة في شعر الطلل " .

والعرب تستحسن في المرأة صفة كهذه ، وترى فيها فتنة وجمالاً ، ورد في بُلُوغ الأرب في معرفة أحوال العرب " أما محاسن خلقها فأن تكون شابة حسنة الخلق جميلة الوجه حسنة المعرى والقد ، لينة القصب لم يركب بعض لحمها بعضاً لطيفة البطن ، لطيفة الكشحين ، لطيفة الخصر . مع امتداد القامة طويلة العنق في اعتدال وحسن . عظيمة الوركين والعجيزة ممتلئة الذراعين والساقين ..."(١) .

وفحوى بيت القطامي يتفق مع قول امريء القيس(٢) :

وتُضْحِي فَتيتُ المِسْكِ فوقَ فِراشِها
نَؤُومُ الضُّحا لم تَنْتَطِقْ عن تَفَضُّلِ

وقد جاء بيت امريء القيس أشمل ؛ لاحتوائه على أكثر من جانب لحياة الرفاهية التي تتقلب فيها الموصوفة ، حيث جمع كنايات ثلاثاً : " فتيت المسك فوق فراشها " ، ففراشها يعبق بالمسك ، وبقاياه التي تظل فوقه حتى بعد أن تنهض منه ، وهي " نؤوم الضُّحا " ، أي أنها تطيل النوم حتى الضحى ؛ لأن هناك من يكفيها شئون بيتها ، ثم إنّها لم تعتد على الخدمة لذا فلا حاجة لها لارتداء الملابس الخاصة بذلك " لم تنتطق عن تفضل " .

ومن مظاهر الترف التي أبرزتها الكناية قول القطامي(٣) :

بَوارِقُ تَرْقُدُ الصَّبَحاتِ خُرْدُ
بِهِنَّ مِنَ السِّناتِ ضُحَى انْبِهارُ

---

(١) يُنظر : بُلُوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ، للألوسي ١٤/٢.
(٢) ديوان امرئ القيس ١٧ .
(٣) ديوان القطامي ٨١ .

فهؤلاء يستيقظن وعليهن آثار من بقايا النوم مما أضفى عليهن حسناً وملاحة "بِهِنَّ مِنَ السِّنَاتِ ضُحَى انْبِهَارُ "، ثم إنهن يرقدن بالغدوات تنعماً ؛ لأن الصَّبْحة : هي نوم الغداة ، وفلان ينام الصَّبْحة ، أي ينام حين يُصبْحِ(١) ، وذلك يعني أن لهن من يخدمهن ، ويتولى عنهن شئون البيت ، فكما أن منهن " نؤوم الضحى " عند امرئ القيس كذلك يرقدن بالغدوات ، إلا أن " نَؤُوم " وهي صيغة مبالغة تعني أن هذا ديدنها ، فهي لا توازي " تَرْقُد " ؛ لأن دلالة الاسم تفيد استمرار الحدث ، أما صيغة الفعل المضارع فهي تعني تجدد الحدث حيناً بعد حين ، كما أن " الضحى " ليست كـ " الصبحات " ؛ فضحى صاحبة امرئ القيس مشغول في نومها ، أما عند القطامي ففيه انبهار ، وهذا يعني أن كناية امرئ القيس أبلغ وأشمل ، وربما يعود ذلك إلى كونه عاش ظروفاً تختلف عن القطامي ، فحياته مترفة حيث وجد في بيئة غنية ذات ثراء فكان من الطبعي أن يألف منظر " نؤوم الضحا " ، أما القطامي فإنه يتوق إلى مظاهر الرفاهية والراحة ، وينشدها في المرأة .

ومن كنايات المرأة ما يذكره القطامي من أحوال الصاحبة ، في قوله(٢) :

وَتَرَى النَعِيمَ على مَفارِقِ فاحِمٍ رَجِلٍ تَعُلُّ مُتونَه الأدْهانا

يكني الشاعر عن ترف الصاحبة بقوله " رَجِلٍ تَعُلُّ مُتونَه الأدْهانا " ،فهي منعمة ترى نعيمها في مفارق شعرها الذي تعلُّهُ الأدهان ، شعر أسود متموج مسترسل تتخلل أصوله أنواعٌ من الدهن ، وفي هذا دلالة على أنها تعيش في خفض ودَعة .

ومن كناياته في المرأة قوله(٣) :

---

(١) اللسان ٢/٥٠٣ .

(٢) ديوان القطامي ١٤ .

(٣) ديوان القطامي ٧١ .

ظَعائِنُ لا يَرَيْنَ الدَّهْـرَ مُغْتَرِبـاً   مـن الأراقِـمِ إلا القَيْلَ أو فَحَمـا(١)

فالشاعر يكني عن تنعم الظعائن ، فهن لسن بأصحاب سفر ، وإنما يقلن في الظهيرة ، ويشربن الصبوح ، ويُسْقِينَ الغبوق في المساء .

فـهـذه الألوان من التـرف برزت من خـلال أسلوب الكناية ، الذي به تقوى المعاني .

ومما كنّى به القطامي عن محاسن الصاحبة قوله(٢) :

فمـا غَـرَّاءُ فـي دَمَـثٍ هَيـامٍ   تَرُودُ بهِ السُّهُولَـةَ والْقَـرارا(٣)
بِأحْسَـنَ مِنْ جُمانَةَ حَيْـثُ رَدُّوا   جِمـالَ الْحَـيِّ فاحْتَمَـلُوا نَهارا
وَقِيـدَ إلـى الظَّعِينَـةِ أرْحَبِـيٌّ   جُـلالٌ هَيْكَـلٌ يَصِفُ القطارا(٤)
فَقُلْـنَ لها ارْكَبِي لا تَحْبِسِينا   أَبَـتْ خَـفَراً وخالَطـتِ انْبِهارا

---

(١) مُغْتَرِباً : هكذا الضبط في الديوان ، وهو خطأ ، والصواب " مُغْتَرَباً " أي مكان اغتراب .
الأراقِم : قال ابن حزم : " وهـؤلاء ولدوا بكر بن حُبيب بن عمر بن غنم ابن تغلب ولد بكر بن حبيب : جُشم ، وفيه البيت والعدد ، ومالك ، والحارث ، وعمرو ، وثعلبة ، ومعاوية ، وهؤلاء الستة يسمون الأراقم " .
يُنظر : جمهرة أنساب العرب ، لابن حزم ٣٠٤ .
فَحَما : فَحْمة الليل ما بين غروب الشمس إلى نوم الناس ، وهو الشراب في هذه الأوقات ، اللسان ٤٤٨/١٢ .

(٢) ديوان القطامي ٦١ ، ٦٢ .

(٣) دَمَثٍ : مكانٌ دَمِثٌ : لَيِّنُ المَوْطِيء ، اللسان ١٤٩/٢ .
هَيام : الهَيام ، بالفتح : التراب أو الرمل الذي لا يتمالك أن يسيل من اليد للينه ، اللسان ٦٢٨/١٢ .
تَرودُ : تجيء وتذهب ، اللسان ١٨٨/٣ .

(٤) أرْحَبِيٌّ : منسوب إلى أرحب ، حي من همدان ، اللسان ١/ ٤١٦ .
جُلالٌ : فحل عظيم ، اللسان ١١٨/١١ .
هَيْكَلٌ : الهَيْكلُ : الضخم من كل حيوان ، اللسان ٧٠٠/١١ .

تَهُدُّ مَحَالَ آدَمَ دَوْسَرِيٍّ يَخُونُ بِهَا مَلاطَاهُ الْفَقَارا
تُدافَعُ بِالْمَناكِبِ مِنْ بَعِيدٍ وَتُسْتَرُ بِالْمَطارِفِ أَنْ تُضارا
تَرَى السُّمُكَ الطِّوَالَ يَحِدْنَ عَنْها وَتَبْهَرُ فِي الْمُقَاوَمَةِ الْقِصارا(١)
فَلَمَّا قَامَ كَبَّرَ مَنْ يَلِيهَا وَقَالُوا خَالَطَ الْجَمَلُ انْكِسارا(٢)
فَمَا ذِكْرِي جُمانَةَ غَيْرَ أَنِّي كَصاحِبِ خِلْعَةٍ ذَكَرَ الْقِمارا

ابتدأت الصورة بوصف الصاحبة ، وحال الأرض التي ربت فوقها ؛ فهي غرَّاء بيضاء تجيء وتذهب في لين من الأرض " تَرودُ بِهِ السُّهُولَةَ والقرارا " ، كما يرسم الشاعر عن طريق الكناية صورة لها ، ويصف حال الجمل الذي يحملها " وقيد إلى الظَّعينَةِ أرحبيٌّ هَيْكلُ " . ويكني بقوله " تَهُدُّ مَحالَ آدمَ دَوْسَرِيٍّ يخُونُ بها ملاطاه القفارا " عن ضخامة هذه المرأة التي ينوء بها فقار هذا الجمل الشديد ، و " ملاطاه " عبَّر بها عن شدة عضدي الجمل ، جمل آدم أبيض شديد البياض(٣) غليظ " دوسري " .

وقوله " تُدافَعُ بالمناكب من بعيد " كناية عن مشي الجواري يمينها وشمالها يحمينها ، و " من بعيد " أبرزت هيئة الجواري يدافعن عن المرأة من بعيد . ويكني بقوله " وتستر بالمطارف أن تضارا " عن الخوف من أن يصيبها ضرر من عين أو حسد أو نحوه !

ويذكر الشاعر حسنها بين النساء السماك ، وهي جمع سامكة أي طويلة(٤) " ترى السُّمك الطّوالَ يَحِدْنَ عنها ، وتَبْهَرُ في المُقاومة القصارا " وقد كنّى بها عن شدة طول هذه المرأة ، وارتفاع قامتها ، فلا السمك من النساء يستطعن مواجهتها ، ولا قصيرات النساء يطقن مقاومتها ، وهي مبالغة قد

---

(١) تَبْهَرُ : البَهْرُ : تكلف الجُهْدِ إذا كُلِّفَ فوق ذَرْعِهِ ، اللسان ٨٢/٤ .
(٢) انْكِسارا : كل من عَجَزَ عن شيء ، فقد انكسر عنه ، اللسان ١٣٩/٥.
(٣) اللسان ١٢/١ .
(٤) اللسان ٤٤٤/١٠ .

تخرجها عن الصفة المرغوب فيها !

كما يصف الشاعر نهوض الجمل وقد خالطه انكسارٌ بعد أن أتعبته الصاحبة لضخامتها ، وعبارة " فلما قام كبَّر من يليها " كناية عن شدة الدهشة والتعجب اتقاء العين ، ثم إنَّ طول المرأة مع طول الجمل إذا قام أوهمهم بانكسار الجمل " للطولين " !

والصورة مركبة ، تلاحقت في ثناياها الكنايات ، وكثرت في تفصيل وتحليل عجيب ، وإطالة ، وقد انتهت بصورة تشبيهية وهي(١) :

فَما ذِكْرِي جُمانَــةَ غَيْـرِ أنّي كَصاحِبِ خِلْعَـةٍ ذَكَـرَ الْقِمارا

فالشاعر تعاوده ذِكْرَى جُمانَةَ ، ويرى في استبعاد الوصل ، واستحالة تحققه ، وحاله في تذكره ما يُشبه حال من خلع من ماله بالقمار ، وتذكره هذا ، والاغتمام له " كصاحِبِ خِلْعَةٍ ذَكَرَ القِمارا " ، فهو يصف حنينه إلا أنَّه حنين مشوب باليأس .

---

(١) ديوان القطامي ٦٢ .

ثالثا - النـاقــة :

كنّى القطامي عن انقياد الناقة ، وعن سرعتها ، وعن مواصلاتها الأسفار ، وعن عظم ألواحها .

يقول القطامي واصفاً انقياد الناقة(١) :

فَما انْفَلَتَتْ مِنَ الرُوّاضِ حَتَّى   أَعارَتْهُ الأَخادِعَ والنِخاعا(٢)
وَسَارَتْ سِيرَةً تُرْضِيكَ مِنْها   يَكادُ وَسِيجُها يَشْفِي الصُداعا

فقوله " أَعارَتْهُ الأَخادِعَ والنِخاعا " كناية عن استسلامها للرواض بعد جهد ، وعن تسليمها عنقها وعرقي عنقها " الأخدعين " (٣) ، وظهرها ، وما امتد في ظهرها من النخاع . ويصف سيرها " يكاد وسيجها يَشْفِي الصُداعا " ، والوسيج ضرب من سير الإبل(٤) المحمود ، الذي يَشْفِي ، وفي هذا دلالة على إفلاحهم في حسن ترويضها ، واستعمال الفعل " يكاد " أبرز أثر سيرها على النفس ، وانتشاءها به .

وكنى عن سرعة الناقة بقوله(٥) :

وَإِذَا تَخَلَّفَ بَعْدَهُنَّ لِحاجَةٍ   حادٍ يُشسِّعُ نَعْلَهُ لَمْ يَلْحَقِ(٦)

فالحادي إذا تخلَّف لحاجة عجز عن اللحاق بهن ، واستعصى عليه ذلك ، فمع

---

(١) ديوان القطامي ٤٤ .

(٢) النخاع : هكذا ضُبطت في ط . ليدن ، وفي ط . بيروت ص٤١ . "النُخاع" ، وفي اللسان ٣٤٨/٨ ما يدل على جواز ذلك ؛ فيصح أن يقال : النِّخاعُ والنُّخاع والنَّخاعُ وهو : عِرْقٌ أبيض في داخل العنق .

(٣) اللسان ٦٦/٨ .

(٤) اللسان ٣٩٨/٢ .

(٥) ديوان القطامي ٣٤ .

(٦) يُشسِّعُ : الشِّسْعُ : أحد سُيُور النعل ، وهو الذي يُدْخَلُ بين الإصبعين ، اللسان ١٨٠/٨ .

أن إصلاح الحادي لنعله لا يستغرق وقتاً لكنه زمن يحول بينه وبينها لقوة عدوها ، وقد يحفى دون أن يستطيع اللحاق بها من شدة سرعتها .

ويكني القطامي عن ناقته بعد أن صوَّر سيرها في مفازة مقفرة وذلك حيث يقول(١) :

وَظَهْرِ تَنُوفَةٍ حَـدْباءَ تُمْسِي ... بِها الرُكْبانُ خائِفَةً جِياعـا(٢)
قذافٍ لا يُضاعُ المـاءُ فِيها ... وَلا يَرْجُو بِها القَوْمُ اضْطِجاعا
قَطَعْتُ بِذاتِ أَلْواحٍ تَراهـا ... أَمامَ الرَكْبِ تَنْدَرِعُ انْدِراعـا(٣)

فالشاعر يصف مفازة مقفرة ، و " حَدْباءُ " عبَّرت عن الوعورة ، والنشوز والجبال والإخافة ، فهي صعبة شديدة ، على ظهرها تُمْسِي الركبان في حالة ذعر ، ولفظة "جياعا " تكشف عن هول تلك التنوفة ، ثم إنها " قِذاف " بعيدة مهجورة حتى إنَّ السائرين بها يشفقون على نفاد الماء ، فلا يشربون منه إلا قليلاً ، وقوله " لا يُضاعُ الماءُ فيها " كناية عن حرصهم على مجرد شربة واحدة لقلة مائها ، كما تعذر على الرُّكبان البقاء في تلك الأرض القفر فضلاً عن النجعة والاضطجاع ، فقد كنّى بقوله " ولا يرجوا بها القوم اضطجاعا " عن عدم إمكان النوم فيها لوحشتها وهولها وخوفها .

وفي قوله " ذات ألواح " كناية عن الناقة التي اجتازت المسافات الوعرة لما لها من قوة ، وفرط نشاط ، فهي سريعة في تقدمها " تَنْدَرِعُ انْدِراعا " .

---

(١) ديوان القطامي ٤٢ .

(٢) تَنُوفَةٍ : قفر من الأرض ، اللسان ١٨/٩ .
حَدْباءَ : الحَدَبَةُ : ما أشرف من الأرض ، وغَلُظَ وارتفع ، اللسان ٣٠١/١.

(٣) ذات ألواحٍ : الألواحُ من الجسد : كلُّ عظم فيه عِرَضٌ ، اللسان ٥٨٤/٢ .
تَنْدَرِعُ : تتقدم في السير ، اللسان ٨٣/٨ .

يقول القطامي(١) :

وإذا تُعانيني الهُمـــومُ قرَيْتُها سُرُحَ اليَدَيْنِ تُخالسُ الخَطَرانا
حَرجـاً كَأنَّ من الكُحَيْلِ صُبابَةً نُضِحَتْ مَغابِنُها بهـا نَضَحانا(٢)
تَصِـلُ المَخِيـلَةَ بالذَراعـةِ بَعْدَما جَعَلَ الجَنَادِبُ تَرْكَبُ العِيدانَا(٣)

فالشـاعر يشـبه مـا ينزف من العرق الذي ينضح على جوانب الناقة بالقطران ، و "حَرَجاً " تدل على الضـمور والقوة ، وعبـارة " كَأنَّ من الكُحَيْلِ صُبابَةً نُضِحَتْ مَغابِنُها بهـا نَضَحانَا" كنّى بها عن طول الأسفار وكثرتها، فهي تنتقل من حال إلى حال ، ومن ذلك أنها تصحب السحابة الماطرة بغزارة " تَصِـلُ المَخِيـلَةَ بالذَراعـةِ " .

وقـوله " جَعَلَ الجَنَادِبُ تَرْكَبُ العِيـدانَا " كناية عن شـدة حـرارة الشمس إذ تَفِرُّ الجنادب إلى العيدان هرباً من الأرض الحارة .

---

(١) ديوان القطامي ١٥، ١٦ .

(٢) الكُحَيْل : القطران ، اللسان ٥٨٦/١١ .
صُبابَة : البَقيّة اليسيرة تبقى في الإناء ، اللسان ٥١٦/١ .
مَغابِنُها : المَغْبِنُ : الإبطُ ، اللسان ٣١٠/١٣ .

(٣) المَخِيلَـة : السحابة ، اللسان ٢٢٧/١١ .
الذَراعَـة : سعة الخطو ، اللسان ٩٥/٨ .

رابعاً - الكرم :

جاءت الكناية عن صفة الكرم في موضعين هما : الكناية عن كرم قومه ، وعن كرمه .

يقول القطامي(١) :

إذا الرِّيحُ الشَامِيَةُ اسْتَحَنَّتْ وَلَعِبَ بِها مَعَ اللَّيلِ العصارُ(٢)
فَأُدْبَتُنا الجَوافِلُ كُلَّ يَوْمٍ وَبَعْضُ النَّاسِ أُدْبَتُهُ انْتِقارُ(٣)

ارتبط زمن الشتاء بهبوب الريح الباردة مؤذنة بالقحط ، والمحل وشدة الحال "إذا الرِّيحُ الشَامِيَةُ اسْتَحَنَّتْ " ، والشامية نسبة إلى الشام ، وقد هبَّت مع الليل تنشر الغبار في الهواء ، ففي هذا الوقت الضنك يظهر كرمهم الذي فاق الوصف ، وهي كناية عن عموم الكرم وكثرته فهم يدعون إلى الأُدْبَة الناس عامة ، تفيد دوام دعوتهم دون ملل ، فموائدهم يُدعى لها الجميع ؛ لأن دعوتهم عامة لا تقتصر على أناس يختارونهم "فَأُدْبَتُنا الجَوافِلُ كُلَّ يَوْمٍ " ، وهي كناية و " كل يوم " تفيد دوام الكرم واستمراره وعدم انقطاعه ، فموائدهم يُدعى لها الجميع وهي كناية عن كثرة الكرم .

وهذا التوسع في القرى جعل جودهم دائم لا يعرف التوقف . وإمعاناً في وصف قومه بالكرم يذكر الشاعر ما يقابل هذا عند أقوام يحملهم المحل والشتاء على الاقتصار على أناس دون آخرين فليس في طبعهم الإكثار ، ولا في مقدورهم الوفاء بمآدب تكفي الجميع " وَبَعْضُ النَّاسِ أُدْبَتُهُ انْتِقار " ، والانتقار انتقاء وتخيُّر لبعض الناس ، وتلك الخصلة نفاها الشاعر طرفة عن نفسه ، وعن قومه ، في قوله(٤) :

---

(١) ديوان القطامي ٨٨ .

(٢) العِصَارُ : ما عَصَرتْ به الرِّيح من التراب في الهواء ، اللسان ٤/٥٨٠ ، ٥٨١ .

(٣) الجوافلُ : أن تدعو الناس إلى طعامك عامَّة ، اللسان ١١/١١٤.
فأدْبَتُنا : الأُدْبَةُ : كل طعام صُنِع لدَعْوةٍ ، اللسان ١/٢٠٦ .
انتقارُ : انْتَقَر القومَ : اختارهم ، اللسان ٥/٢٣٠ .

(٤) ديوان طرفة ٢٣ .

نحنُ فـي المَشتاةِ ندعـو الجَفَلى   لا تـرى الآدبَ فيـنا يَنْتَقِـر

ويكني القطامي عن كرمه ، في قوله(١) :

أَرى الحقَّ لا يَعْيا عَلَيَّ سَبِيلُهُ   إذا ضَافَنِي لَيْلاً مَـعَ القُرِّ ضائِفُ(٢)

إذا كَبَّدَ النَجْمُ السماءَ بِشَتْوةٍ   على حِينِ هَرَّ الكَلْبُ والثَلْجُ خَاشِفُ(٣)

يتخذ الشاعر دروب الخير والفضيلة مسلكاً له ، ومنها مساعدة طارق الليل الذي أنهكه البرد فهو يتضور جوعاً ، ويلتفت حوله فلا يجد غير الجدب ، الذي عمَّ المكان ؛ فالشتاء قارص ، وقد توسط النجم كبد السماء ، وتراكم الجليد ويَبِس حتى أصبح يُسمع له خشفة ، وجملة " هَرَّ الكلب " كناية عن صفة وهي شدة البرد ، حين لا يقوى الكلب على النباح وإنما يَهِرُّ من كثرة الإعياء ، ولما أحدثه البرد الشديد من قحط ، كما أن جملة " الثلج خاشف " رسمت بعداً آخر للصورة ، وقد كنّى بها عن الجدب ، فهي كناية متولدة من كناية .

والقطامي يرسم صورة لوقت من أوقات الكرم ، فهو المنقذ بعطاياه في ظروف حالكة كهذه .

وقد تغنى الشعراء بعادة الكرم لا سيما عند حلول الشتاء حين يضن أكثر الناس بالزاد ، ومن ذلك قول المُسَيَّب بن عَلَس(٤) :

وإذا تَهِيجُ الرِّيحُ مِنْ صُرَّادِها   ثَلْجاً يُنِيـخُ النِّيْـبَ بالجَعْجَاعِ(٥)

---

(١) ديوان القطامي ٢٦ .

(٢) القُرّ : البَرْدُ عامة ، اللسان ٥/٨٢ .

(٣) كَبَّدَ النجمُ السماء : توسَّطها ، اللسان ٣/٣٧٥ .
خاشف : خشف الثَلْجُ وذلك في شدة البَرْدِ تَسْمَعُ له خَشْفَه عند المشي، اللسان ٩/٧٠ .

(٤) المفضليات ٦٢ ، ٦٣ .

(٥) صُرَّادها : الصُرَّاد : ريح باردة مع ندى ، اللسان ٣/٢٤٨ .
النِّيْب : النَّابُ : المُسِنَّة من النوق ، اللسان ١/٧٧٧ .
الجَعْجَاع : الأرض ، وقيل : هو ما غَلُظَ منها ، اللسان ٨/٥٠ .

أَحْلَلْتَ بَيْتَكَ بالجَميعِ وبَعْضُهم مُتَــفَرِّقٌ لِيُحَــلَّ بالأَوْزاعِ(١)

فهذه شدة أناخت النيب بمباركها ، وتلك شدة أهرَّتْ الكلب ، هذا أحلَّ الجميع بيته ، والإبل في مباركها ، وكان القرى واجباً ، والقرى إنما يكون بنحرها ، والقطامي لم يذكر شيئاً من ذلك ، وإنما قال إنه لا يتلجلج في واجب ، وأنه لا يعيا عليه سبيله إذا اشتد الحال ، فليس عنده جمع حلول ، وليس في حاجة إلى نحر إبله .

كما كنّى القطامي عن كرمه ، في قوله(٢) :

وَيَكْفِيكَ أَنْ لا يَرْحَلَ الضَّيْـفُ لائماً

كَرادِيسُ مِنْ نابٍ تَقَمَّسُ في الْقِدْرِ(٣)

فقد عقر خير ابله ، وأسمنها إكراماً لضيفه ، فقوله " كَرادِيسُ مِنْ نابٍ تَقَمَّسُ في الْقِدْرِ " كناية عن عظم الكرم ، فها هي القدر تمتليء بالطبائخ لتدل على رائع الكرم ، ثم إنه فعلُ جنَّبه المنقصة والملامة " ويكفيك أن لا يرحل الضيف لائماً " ، وحسبه ذلك مفخرة وفضلاً .

ويتضح مما سبق أن الكناية عن الكرم جاء ت بطرق مختلفة ؛ فنجدهم يكنون عن الكرم أحياناً ببيان بذلهم في الوقت الصعب ، وهذا هوالأشهر في كلامهم :

هريرالكلب، وتوسط النجم كبد السماء ، وخشوف الثلج ، وإناخة النيب بمباركها، وهبوب الرِّيح الشآمية ، كما يكنون عن الكرم بوفرة ما يقدمون للضيف مثل الكراديس التي تُغطُ في القدر؛ لأن القدر ملآن فهي تغيب وترتفع.

---

(١) الأَوْزاع : المتفرِّقون ، اللسان ٣٩١/٨ .

(٢) ديوان القطامي ٦٦ .

(٣) كراديسُ : جمع كردوس : كلُّ عظْم كثير اللحم عظُمَت لَخْصَتُه ، اللسان ١٩٥/٦ .

تَقَمَّسُ : كُلُّ شيء يَنْغَطّ في الماء ثم يرتفع فقد قَمَسَ ، اللسان ١٨٢/٦.

الفصل الرابع

مراجع التصوير البياني في شعر القطامي

درسنا فيما سبق تشبيهات القطامي في : الطلل ، المرأة ، الناقة ، الحيوان ، الحرب ، الطبيعة ، الخمر ، وكذا استعاراته ، وكناياته ، وفي هذا الفصل سأحاول النظر إلى صوره البيانية من زاوية خاصة ، يتحقق من خلالها التعرف على مصادر هذه الصور ، وكيف استخلصها من الطبيعة ، أو كيف استخلصها من البيئة بمعناها العام ، وتشمل البيئة المنظورة المعاشة ، مستعيناً أحياناً بالموروث الشعري .

ولا ضرورة هنا للبحث عن السبق وعدمه ، فالاهتمام سوف ينحصر في تحليل نماذج من صور القطامي ، والنظر إلى مصادرها من الطبيعة ، دون حاجة إلى عرض هذه الصور على غيره من الشعراء ؛ لأن المهم هو تأصيل علاقة صوره بالطبيعة ، التى تضم الآتي :

١ - الظواهر الكونية .

٢ - النبات .

أولاً الظواهر الطبيعية :

١ - استخلص الماء لحديث النساء :

يقول القطامي[(١)] :

يَقْتُلْنَنا بِحَدِيثٍ ليس يَعْلَمُه   من يَتَّقِينَ ولا مَكْتُومُه بادِي
فهُنَّ يَنْبِذْنَ مِن قَوْلٍ يُصِبْنَ به   مَواقِعَ الماءِ من ذي الغُلَّة الصادِي

يُرتِّبُ الشاعر " القتل " على أثر حديث النساء ، كما يشبه وقع حديثهن بوقع الماء على الراغب فيه ، المستمتع به ، فله لذة ، وهو قولٌ يُشتهى ، ويستزاد منه حين يتكلمن به يشبه ما يُحدثه الماء للذي اشتد عطشه .

ومفردات الماء ملأت شعر القطامي ، فهو يرتبط بالطلل ، والغزل ، والناقة ، والصيد ، والفخر ، والخمر .. ولا غرو فحياة العربي بعامة اقترنت بالسفر والترحال طلباً للماء والكلأ، والماء أساس الحياة لدى العربي وغيره ، وإن عبَّر الإنسان القديم عن هذا الاحتياج الدائم له ؛ ففي الصحراء حين يلفحه هجيرها ، ويتفصد جبينه عرقاً تهفو نفسه إلى جرعات من الماء علّها تخفف ما يجد ، كما يفتقده وهو تائه على ناقته فيطلبه .

وفي تصوير القطامي تكثيف للمعاني في ألفاظ بارعة كقوله " يصبن به مواقع الماء من ذي الغُلَّة الصادي " حيث أظهر أثر هذا الماء ، وشدة الاحتياج إليه لطفيء حرقة الظمأ ، فالغُلَّة شدة العطش وحرارته قلَّ أو كثر ، وهو ماء أصاب مواطن الحاجة " الغُلَّة " ، وفي هذا ضمان البقاء !

---

(١) ديوان القطامي ٨ .

٢ - استلهم صوت الحمام لوحشة المكان :

يقول القطامي في إحدى مطالعه الغزلية(١) :

زُورا أُمَيْمَةَ طالَ ذا هِجْرانَا   وحَقِيقَـةٌ هِـيَ أن تُـزارَ أَوانَا

كَيْفَ المَزَارُ وَدُونَهَـا مُتَمَنِّعٌ   صَعْـبٌ يُـرِنُّ حَمَـامَةٌ إِرْنَانَا

يستعذب الشاعر ما يلقاه من عنت ومشقة للوصول إلى المحبوبة ، وتملكه عاطفة قوية نحوها ؛ فالأمر في قوله " زُورا " والبدء به أظهر مدى الوله والحنين ، فهي جديرة بالزيارة " وحقيقة هي أن تُزار أوانا " .

وأسلوب الاستفهام " كيف المزَارُ ؟ " جسد معنى الشعور بالحسرة ، والألم والحيرة ؛ فقد رحلت الصاحبة هي وأهلها ، وأصبح المكان مهجوراً يصوّت فيه الحمام وكأنَّه ينوح على أهله ، وصيغة المضارع " يُرِنُّ " تعني التجدد والاستمرار ، والرنين صوت الأسى والحزن ، وهو صوت يحوي صدىً ممتداً عميقاً يطوي رهبة عظيمة ، أحاطت وحاصرت المكان من كُلِّ جهاته .

وعبارة " دونها مُتَمَنِّعٌ صَعْبٌ ... " تحمل في طياتها شجناً مُمضاً موجعاً ؛ حيث صوّرت في إيجاز بليغ تلك الصعوبة ، والشعراء يذكرون العراقيل التي تحول دون الوصول إلى المحبوبة ، ويجعلونها حافزاً قوياً يشعل فيهم الشوق والوجد " وهكذا كان البعد المكاني أيضاً عنصراً من عناصر التشوق للمحبوبة ، وعنصراً من عناصر القدرة النفسية على التغلب على الصعاب البيئية ورد الفعل في واقع القصيدة الشعرية الجاهلية-إذن فالمكان-المسافة في هذه الحالة عدو واضح ظاهر ، وعائق شديد دون الوصول إليها ، ومن ثم أصبح مصدراً لتصورات خيالية ، وزيادة حدة الترقب والشوق ، وإلهاب

---

(١) ديوان القطامي ١٤ .

نار العشق ، مما يتجه بالشاعر في طريق الحب العذري "(١) .

٣ - انتزاع أحناء الرِحالة للزمن :

وصف القطامي شدة الزمان وقسوته في صورة تشبيهية غاية في البلاغة ، وذلك في قوله(١) :

تَذَكَّرْتُ هَمَّاماً وَذَكَّرَني بِهِ زَمانٌ كَأَحْناءِ الرِحالَةِ آزِمُ

أكثر الشاعر من التأمل والتدقيق حتى وقع على شبه لذلك الزمن الذي أدبر بعد إقبال ، فقرنه بإحناء الرِحالة ، كما أن وصفه بأنَّه " آزم " جسد معنى الصعوبة والشدة ، وهو تشبيه بارع ومصيب ، فالمشبه الزمن لكنه زمنٌ عظُمتْ حوادثه ، واشتد وقعه على نفس الشاعر ، والمشبه به منحنيات الرِحالة . والانحناء يوحي بالتواء الأمور ، وتعقدها ، وامتداد الأيام وطولها ، مما يظهر حزن الشاعر وأساه لفراق من كان عوناً له على تخطي المصاعب ، فهو يذكره مفتقداً إياه كلما حلَّ به خطب ، أو عصفت به كوارث الدهر " وَذَكّرَني به زَمانٌ كَأَحْناءِ الرِحالَةِ آزِمُ " ! .

---

(١) يُنظر : الزمان والمكان وأثرهما في حياة الشاعر الجاهلي وشعره ، للدكتور / صلاح عبد الحافظ ٢٨٥/١ .

(٢) ديوان القطامي ٤٨ .

٤ - التعبير بالسيل عن عظم البلوى :

صوَّر القطامي جروح قومه في حروبهم الدامية ومن ذلك قوله(١) :

أَلَمْ يَحْــزُنْكَ أَنَّ ابْنَيْ نـــزارٍ   أَســالا منْ دمائهما التـــلاعا
وصـــارَا ما تُغِبُّهُما أُمـــورٌ   تُزيدُ سَـنَا حَريقهِـما ارْتفاعا
كَما العَظْمُ الكَسيرُ يُهاضُ حَتَّى   يَبِتَّ وإنَّمـــا بَدَأَ انْصداعــــا
فَأَصْبَحَ سَيْلُ ذلـك قَـــدْ تَرقَّى   إلـى مَـنْ كـان مَنْـزِلُهُ يَفـاعا

الصورة استعارة تمثيليَّة ، والشاعر يشير إلى اشتداد الحرب ، وبلوغها غايتها بقوله "فـأصبح سيلُ ذلك قد ترقَّى " ، وهي عداوة مهلكة مدمرة أحس الشاعر بفظاعتها ، فقرن صورتها بالسيل الشديد الذي زادت قوته ، فتجاوز حَدَّهُ ، وأغـرق مـــن فـي طريقـه ، وأصبح مصدر خطر يهدد بالدمار ، وسوء المصير "قـد ترقَّى إلى من كـان منزله يفـاعـا " فـسيل العداوة عمَّ واتسع ، حـتى بلغ اليفا ع ، واكتسح من كان في تلك الأمـاكن العالية ، فلم ينجُ منه أحدٌ ، بعد أن أتى على الحكمـاء ، وأهل الرأي ، ومن عـاشـوا بعـيداً مـترفـعين عن مـزالق الشرور إلى أن انقادوا لمن يأمر بالغيِّ ، ويبغي الفرقة والنزا ع .

ويرى القطامي العداء المستحكم ، والبلوى التي أصابت ابني نزار وهما : ربيعة ومضر ، ويتمزق حسرة على حالهما ، فيتوجه بالخطاب إلى ضباعة ابنة " زُفَر بن الحارث " زعيم قيس قائلاً لها(٢) :

ألـــم يَحْـزُنْكِ أَنَّ ابْنَيْ نِـزارٍ   أَســالا منْ دمائهـما التــلاعا

فقد وصل ضرر تلك القطيعة والشحناء إلى حد الإهلاك ، فاقتتلت القبيلتان ، وسالت الدماء بكثرة مروِّعة .

وعن مـوقف القطامي من حـرب قيس وتغلب يقـول الدكتـور / مـحـمـد مـصطفى هدّارة : " بهذه الروح الجـانحـة إلى السلم المزورة عن الحـرب كـان جمـاعـة من تغلب ، وكـان القطامي اللسـان المعبِّر عنهـا ، وكـانت هناك جمـاعـة

---

(١) ديوان القطامي ٣٨ .
(٢) ديوان القطامي ٣٧ .

أخرى منهم دائمة الثورة ، تصيح بالحرب وكان الأخطل لسانها ، وهذا لا ينفي أن الجماعة المسالمة قد اشتركت في الحرب بالرغم عنها ، لأن هذا هو قانون القبيلة المقدس ، ولأن تغلب في موقف الدفاع عن نفسها لقلة عددها وكثرة عدوها"(١) .

٥ - التعبير عن زوال المصائب بانقشاع السحابة :

يقول القطامي(٢) :

وَأَمَّا يَوْمَ قُلْتُ لِعَبْدِ قَيْسٍ ... كلاماً ما أَرَدْتُ بِهِ خِداعا
تَعَلَّمْ أَنَّ بَعْدَ الغَيِّ رُشْداً ... وأَنَّ لِهَذِهِ الغُمَرِ انْقِشاعا

يخاطب الشاعر أخاه عبد قيس في أسلوب يحمل على العزاء والتصبر ، وقد عبَّر عن زوال المصائب بانقشاع السحاب ، ولفظة " الغمر " تشير إلى الأمور العظام والحروب . حيث شبه المصائب التي لا تلبث أن تزول بالسحاب الذي يتراكم ثم ينكشف، وذلك نزولاً على سنة الحياة التي لا تبقى على وتيرة واحدة ، فهي في تقلب دائم ، وفي هذا المعنى يقول (٣) :

فَأَرَى المَعِيشَةَ إِنَّما هِيَ ساعَةٌ ... فَرَحٌ وساعَةَ كُرْبَةٍ وَتَحَنُّقِ

فالقطامي شاعر الحكمة ، يسوقها في حينها ، ولا تخلو منها قصائده "فأدبه الحِكمي لم يك نظريات فلسفية مفصلة مطولة ، إنها نظرات فلسفية أصيلة

---

(١) يُنظر : دراسات في الشعر العربي : تحليل لظواهر أدبية وشعراء ، للدكتور : محمد مصطفى هدّارة ١/١٠٣ ، ١٠٤ .

(٢) ديوان القطامي ٤٠ .

(٣) المرجع السابق ٣٦ .

مؤلفة من جمل موجزة تعكس عصارة الفكر الانساني ومصوغة في أبيات سائرة . وقد كان للصور البيانية التي واكبت أمثاله وكلماتها العفوية ونغمها الايقاعي وتعابيرها المقتضبة ولعمقها ونفاذها أكبر الأثر في شهرتها وسهولة حفظها"(١) .

---

(١) " البعد الفلسفي في شعر القطامي " للدكتور : نزيه كسيبي ١٤٢ .

ثانيا - النبـات :

أ - استلهم الأقحوان للأسنان :

درج الشعراء على وصف ثغر المرأة بالأقحوان في البياض ، فهو : نبت طيب الريح حواليه ورق أبيض(١) .

يقول القطامي واصفاً أسنان الصاحبة(٢) :

تُعْطي الضَجيعَ إذَا تَنَبَّهَ مُوْهِناً   منْهَا وَقَـــدْ أَمنَتْ لَهُ مَنْ تَتَّقِي
عَذْبَ المذَاقِ مُفَلَّجـاً أطْرَافُــهُ   كالأُقْحُوانِ منَ الرَّشَاشِ المُسْتَقي
نَفَضَتْ أعاليَهُ الشَمـــالُ تَهُزُّه   وَغَــدَتْ عَلَيْــهِ غَداةَ يَـوْمٍ مُشْرِقِ

يستوحي القطامي من الطبيعة المحيطة به صورة لنبات أقحوان ، له مظهر حسن يشف عن انسجام وتآلف ، فيرى فيه أسنان الصاحبة في شدة البياض ، ويوحي شكل عيدان نبات الأقحوان له بذلك " مُفَلَّجاً أطرافُهُ " ، ويصفه بأنه نبت سقي بقطرات خفيفة من الماء " من الرَّشاش المُسْتقي " ، و "رشاش" تعني أنه ليس منهمراً يقتلع جذوره ، أو يلوي أغصانه ، وإنما ماء هاديء ، وذلك أعمق في ريِّه ، وأدعى لفوح رائحته، فهو يتضوع شذىً وعطراً، لا سيما والشاعر يتخير لتلك السُقيا أوقاتٍ لعلَّها من أبهى ما تكون عليه الطبيعة وأشهى .

وجملة " نفضت أعاليه الشمالُ تهزُّه " كشفت عن حنو الطبيعة على هذا النوع من الزهور ، ريح لينة رخية كي لا تضرَّ به ، فهي نسمات وديعة رقيقة غدت عليه وقت طلوع الشمس " غدت عليه غداة يوم مشرق " ؛ لترسم على أعاليه وهجاً من الألق والإشراق ، ولتجعله يقطر عذوبة ونضارة .

وقد أبدع القطامي في تصوير الوسط المحيط بالأقحوان ، والذي

---

(١) اللسان ١٥/١٧١ .

(٢) ديوان القطامي ٣٦ .

استخلص صورته لأسنان الصاحبة .

كما وصف أسنانها في موضع آخر من شعره ، وذلك في قوله[١] :

كَأَنَّ ثَنـاياها ذُرَى أُقْحُـوانَةٍ   عَلاها نَدَى الشُؤْبُوبِ ساعَةَ صابا

فشبهها بالأقحوان الندي ، ومع أن الشاعر في الصورة السابقة أثرى المعنى ، وفصّل القول فيه ، إلا أنَّه هنا يبدو عجلاً ، منجذباً نحو المنظر الخارجي لذلك النوع من الزهر ، فيقرن صورة أعاليه بثنايا المحبوبة النديَّة الرطبة بعد أن تخللها " ندى الشؤبوبِ ساعة صابا " .

ووصف الأسنان ، وتشبيهها بالأقحوان في البياض مما شاع بين الشعراء ، ومن ذلك على سبيل المثال لا الحصر قول عبيد بن الأبرص[٢]:

وتَبْسِمُ عَنْ عَذْبِ اللِّثَاتِ كأنَّهُ   أقاحي الرُّبا أضحى وظاهِرُهُ نَدي

فالقطامي صوَّره على أنَّه نبت تعلوه قطرات ندى مطر يتنزل توّاً من السماء ، فهو رائق عذب ، في حين أن ما يصفه عبيد أقحوان استمد نداوته من كونه نبت في ربوة عالية مما زاده نداوة وطراوة ، وقد شبه به ثغر المحبوبة ، والتي تبسم شفتاها عن لثة تتصف بالعذوبة والصفاء .

٢ - استخلص صورة رائحة الروض لرائحة المرأة :

يقول القطامي[٣] :

وَمَا رِيحُ رَوْضٍ ذِي أقاحٍ وَحَنْوَةٍ   وَذي نَفَلٍ مِـنْ قُلَّةِ الحَـزْنِ عازِبِ
سَقَتْهُ سَـماءُ ذاتُ طَـلٍّ فَنَقَّعَتْ   نِطاقـاً وَلَمَّا يأْتِ سَـيْلُ المَذانِبِ

---

(١) ديوان القطامي ٦٧ .
(٢) ديوان عبيد بن الأبرص ٦٦ .
(٣) ديوان القطامي ٥٠ .

بِأَطْيَبَ مِنْ لَيْلَى إذَا ما تَمايَلَتْ مِنَ اللَّيْلِ وَسْنَى جانِباً بَعْدَ جانِبِ

الصورة مأخوذة من الطبيعة يخالطها ريح روض معطر بالأقاحي ، وبريح النَّفل ، وما عُرف به من شذىً فوّاح ، ثم إنَّه روض "سَقَتْهُ سَماءُ ذاتُ طَلٍّ فَنَقَّعَتْ نِطافاً " ، فهو ماء صافٍ كقطر الندى ، ترتوي فيه على مهل ، يتنزل من سماء مغطاة بسحب كثيفة بعيدة عن حرارة الشمس ، لهذا فقد كست النبات نضارة وخضرة .

والقطامي يستوحي لرائحة محبوبته صورة روضة نضرة فوّاحة ، تنعم بسقيا ماء نقي عذب مما نشر طيب أزاهيرها ، كما أن في تشبيهها بالروض آفاقاً من الجمال والحسن ؛ لأن " الروض فيه الحياة والتكاثر ، والطراوة ، والري ، ورخاوة العيش ، والبراعم المتفتحة المشرقة بتجدد الحياة ، والجمال والخصوبة والوفرة ، الرياض تشبع النفس بكل هذا ، وأكثر منه ، وكذلك المرأة تبعث في الروح روحاً وإقبالاً "(١) .

٣ - استوحى فوح الخزامى للريح القادمة من صوب المحبوبة :

يقول القطامي(٢):

تُهْدي لنا كُلَّما كانت عُلاوتُنا ريح الخُزامَى جرى فيها الندى الخضِلُ

فالجمال يكمن في هذا التَّهادي الذي تُسرُّ له النفس وتهدأ ، حيث سرى الندى الرَّقراق، واخضلت به عروق الخزامي، وارتوت وتضوعت نفحاته

---

(١) يُنظر : دراسة في البلاغة والشعر ، للدكتور / محمد محمد أبو موسى ٣٣٣ .

(٢) ديوان القطامي ٥ .

الزكية " ريح الخُزامى جرى فيها الندى الخضلُ " . فكلما اعتلى الركب، واقترب من ديار الحبيبة جاء ته ريح طيبة باردة يفوح شذاها ، والشاعر يستشرف تلك النسمات العطرة ، التي ملأت الأرجاء بشراً وارتياحاً ، لتزيده حنيناً وشوقاً إليها .

والقطامي يستوحي صورة الخزامى ممن سبقه من الشعراء ، فقد عرف نبت الخزامى بطيب رائحته ، وكان مدعاة للتشبيه به لدى الشعراء ، فذكروه أثناء التغزل ، وعند حديثهم عن ديار الصاحبة .

الخاتمة

لشعر القطامي قيمته وأهميته ، وقد استشهد بشعره علماء النحو واللغة منذ القرن الثاني الهجري ، حيث سار القطامي على منهج سابقيه ومعاصريه ، وجرى مجراهم ، واستعمل أدواتهم ، وجاء ت مقدمات قصائده متنوّعة ، فلم يستهلها جميعها بالوقوف على الأطلال .

وقد توصلت الدراسة إلى نتائج أهمها مايلي :

١ - أن القطاميَّ كان منجذباً إلى كل ما في البادية من مشاهد وآثار ، ومتعلقاً بها ، فهي عالمه الخاص به ، وذكر الشاعر لرموز عدة جاء من قبيل تأثره بالمظاهر الطبيعية التي يشهدها كالغمام ، الماء ، النبات ، الإبل ... وما إلى ذلك ، فهو يستخدم من طاقات وامكانات اللغة ما يعينه على أن يحلق في أجواء شعرية تظهره أكثر التصاقاً بجو البادية .

٢ - على الرغم من تعدد إيراد الصور حول بعض العناصر التي صوَّرها القطامي إلا أن الإكثار من ذلك برز في موضوعين هما : المرأة ، والناقة ، فقد رصد جوانب متعددة ومختلفة تتعلق بهما .

٣ - استعان القطامي في موضوع الناقة بالتشبيه أكثر من غيره من ألوان البيان ، فقد استقصى كثيراً من أحوالها ، وأحياناً يسوق تشبيهاته في الناقة مصحوبة بالأحوال النفسية كالذي نجده في تصوير سرعتها ، وجنونها ، وفي انعكاس صوت الحداء عليها عند سماعها له ، وقد سبق بيان ذلك .

٤ – برع القطامي وتفوق في استغلال اللغة والاستفادة من طاقاتها في تكوينات وتركيبات صوره البلاغية البيانية ، ففي شعره تتجلى جودة التعبير ، وبراعة التصوير .

٥ – وفق القطامي في استعراض بعض الأحداث التي وقعت في عصره ، وذلك بعد تأملٍ جادٍ متأنٍ .

٦ – كثرتْ التشبيهات في شعر القطامي ، وشغلت جانباً كبيراً منه ؛ لأن التشبيه باب واسع " وركن أصيل في بلاغة اللغة العربية وآدابها منذ استعمله العرب القدماء في تصوير مشاعرهم وأفكارهم ، وعاداتهم وطبائعهم ، وتأملاتهم في مظاهر الوجود ، ثم استعمله القرآن الكريم وسيلة كاشفة عن المعاني التي تعرض لها ، فبلغ به الغاية ، ووصل به إلى النهاية "(١) .

٧ – للقطامي تشبيهات جيدة ، وله صور نادرة منها وصفه للجمل ، كما ظهرت براعة الشاعر في مجال القصة ، ومن ذلك قصة عجوز من محارب نزل عليها ضيفاً .

بالإضافة إلى استخدام الشاعر لأسلوب التشبيه المقيد مما أضفى على صوره نماءً وتجدداً ، كذلك لجأ إلى التفصيل ، ومن الدقائق في شعره توخي التقديم والتأخير في النسق أحياناً ، والتجريد .

٨ – من الملاحظ بأن القطامي كان مكثراً – دون شك – من الاستعارات تصريحية كانت أم مكنية ، كما أجده يراعي التآخي فيما أُبيح له

---

(١) بيان التشبيه ، للدكتور : عبد الحميد القيسوي ١٦ .

من صور بيانية ، وعدم تعارضها ، بل إنه يحرص على علاقات الصور والعناصر مما يشهد له بالبراعة ، وتأتي المرأة في مبحث الاستعارة في المرتبة الأولى .

٩ - أما بالنسبة للكناية فقد حظيت باهتمام الشاعر ، وبرزت في شعره بشكل واضح ، حتى أضحت مسلكاً تعبيرياً من مسالك الأسلوب والتعبير عنده ، لا سيما الكناية عن صفة وفي موضوع الحرب بصفة خاصة .

وختاماً أسأل المولى القدير أن يمدنا بعونه وتوفيقه إنه نعم المولى ، ونعم النصير .

المراجع والمصادر

المراجع والمصادر

القرآن الكريم

١ - المراجع العربية ، والدوريات :

- أدب الكاتب ،

أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة ،

تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ،

دار المطبوعات العربية ، بيروت – لبنان .

- أسرار البلاغة ،

عبد القاهر الجرجاني ، تحقيق : هـ . ريتر ،

مكتبة المتنبي – القاهرة ، ط ٢ ، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

- الأسر والسّجنُ في شعر العرب ،

د . أحمد مختار البرزة ،

مؤسسة علوم القرآن – دمشق – بيروت ، ط١ ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

- الأشباه والنظائر في أشعار المتقدمين والجاهلين والمخضرمين ،

الخالديان : أبو بكر محمد وأبو عثمان سعيد ابني هاشم ،

تحقيق : د. السيد محمد يوسف ،

لجنة التأليف والترجمة والنشر – القاهرة ، ١٩٦٥ م .

- الأغاني ،

أبو الفرج الأصفهاني ،

تحقيق : عبد الكريم العرباوي و د . عبد العزيز مطر ،

إشراف : محمد أبو الفضل ابراهيم ،

مؤسّسة جَمال للطباعة والنشر – بيروت لبنان .

- أمالي المرتضى " غرر الفرائد ودرر القلائد" ،

الشريف المرتضى علي بن الحسين الموسوي العلوي ،

تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ،

دار الكتاب العربي - بيروت لبنان ، ط٢ ، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م .

- أنساب الأشراف ،

أحمد بن يحيى بن جابرالبلاذري ،

مكتبة المثنى ببغداد .

- الأنوار ومحاسن الأشعار ،

أبو الحسن علي بن محمد العدوي الشّمشاطيّ ،

تحقيق : د. السّيد محمد يوسف ،

مراجعة : عبد الستار أحمد فرّاج ،

دار الجيل - بيروت ، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م .

- أيام العرب في الجاهلية ،

محمد أحمد جادالمولى ومحمد أبو الفضل ابراهيم وعلي محمدالبجاوي

دار الجيل - بيروت ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م .

- الأيضاح في علوم البلاغة ،

الخطيب القزويني ،

شرح وتعليق وتنقيح : د . محمد عبد المنعم خفاجي ،

دار الكتاب اللبناني ، ط ٥ ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م .

- البديع ،

عبدالله بن المعتز ،

تعليق : أغناطيوس كراتشتوفسكي .

- بغية الأيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة ،

عبد المتعال الصّعيدي ،

مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز .

- بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ،
السيد محمود شكري الألوسي البغدادي ،
شرح : محمد بهجة الأثري ،
دار الكتب العلمية – بيروت لبنان .
- بناء الصورة الفنية في البيان العربي (موازنة وتطبيق) ،
د . كامل حسن البصير ،
مطبعة المجمع العلمي العراقي ، ١٤٠٧هـ /١٩٨٧م .
- بيان التشبيه : دراسة تاريخية فنيّة ،
د٠ عبد الحميد العيسوي ،
مطبعة القاهرة الجديدة ، ط١ ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٧م
- تأويل مشكل القرآن ،
أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة ،
شرحه ونشره : السيد أحمد صقر ،
دار التراث – القاهرة ، ط٢ ، ١٣٩٣هـ /١٩٧٣م .
- تاريخ الأدب العربي ،
عمر فروخ ،
دار العلم للملايين – بيروت ، ط٢ ، ١٣٨٨هـ/١٩٦٩م .
- تاريخ الأدب العربي – العصر الاسلامي ،
د . شوقي ضيف ،
دار المعارف بمصر ، ط ٧ .
- تاريخ الأدب العربي ،
د . رجيس بلاشير ، ترجمة :د. ابراهيم الكيلاني ،
الدار التونسية للنشر ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م.

- تاريخ الأدب العربي ،
كارل بروكلمان ،
نقله إلى العربية : د. عبد الحليم النجار ،
دار المعارف ، ط٤ .
- تاريخ آداب اللغة العربية ،
جرجي زيدان ،
دار مكتبة الحياة ، بيروت لبنان ، ط٢ ، ١٩٨٧م.
- تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن ،
لابن أبي الإصبع المصري ،
تحقيق : د. حفني محمد شرف ،
مكتبة ابن تيمية ، الجمهورية العربية المتحدة .
- التصوير البياني ،
دراسة تحليلية لمسائل البيان ،
الدكتور : محمد محمد أبو موسى ،
مكتبة وهبة ، ط٢ ، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠ م .
- تفسير غريب القرآن ،
أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة ،
تحقيق :السيد أحمد صقر ،
دار الكتب العلمية بيروت – لبنان ، ١٣٩٨هـ / ١٩٨٧ م.
- ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ،
أبو منصور عبدالملك بن محمد بن اسماعيل الثعالبي النيسابوري ،
تحقيق : محمد أبو الفضل ابراهيم ، دار المعارف ، ١٩٨٥م .
- جمهرة أنساب العرب ،
لابن حزم الأندلسي ،
تحقيق : عبد السلام محمد هارون ،

دار المعارف بمصر ، ١٣٨٢هـ /١٩٦٢ م.

- جمهرة النسب ،

هشام أبو المنذر بن محمد الكلبيّ

رواية : محمد بن حبيب

تحقيق : محمد فردوس العظم ، تصحيح وتنقيح : محمود خوري .

- الحماسة ،

أبو تمام حبيب بن أوس الطائي ،

تحقيق : د. عبدالله بن عبد الرحيم عسيلان ،

مطبوعات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، ١٤٠١هـ/١٩٨١م

- حياة الحيوان الكبرى ،

كمال الدين الدَّمِيريّ ،

مكتبة مصطفى البابي الحلبي بمصر ، ط ٥ ، ١٣٩٨هـ /١٩٧٨م .

- الحيوان ،

أبو عثمان عمرو الجاحظ ، تحقيق : عبد السلام هارون ،

دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط٢، ١٣٨٨هـ /١٩٦٩م .

- خزانة الأدب ،

عبدالقادر بن عمر البغدادي ،

تحقيق وشرح : عبدالسلام محمد هارون ،

الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط٢، ١٩٧٩م .

- دراسات في الشعر العربي :

تحليل لظواهر أدبية وشعراء ،

د. محمد مصطفى هدّارة ،

دار المعرفة الجامعية ، ١٩٨٢م ، اسكندرية .

- دراسة في البلاغة والشعر ،
د. محمد محمد أبو موسى ،
مكتبة وهبة ، القاهرة ، ط١ .
- دلائل الإعجاز ،
عبد القاهر الجرجاني ،
علق عليه : محمودمحمد شاكر ،
مكتبة الخانجي بالقاهرة ، ١٩٨٤م .
- ديوان أبي نواس ،
شرح : محمود افندي واصف ،
المطبعة العمومية بمصر ، ط١ ، ١٨٩٨ م.
- ديوان امريء القيس ،
تحقيق : محمد أبو الفضل ابراهيم ،
دار المعارف ، القاهرة ، ط٤ ، ١٣٧٧هـ / ١٩٥٨م .
- ديوان بشر بن أبي خازم ،
تحقيق : د . عزة حسن ،
ط٢ ، ١٣٩٢هـ /١٩٧٢ م .
- ديوان جميل ،
جمع وتحقيق : د. حسين نصار ،
دار مصر للطباعة .
- ديوان طرفة بن العبد ،
تحقيق : درية الخطيب ولطفي الصقال ،
مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م .
- ديوان عدي بن الرِّقاع العامليّ ،

تحقيق : د . نوري حمود القيسي ، د. حاتم صالح الضَّامن ،
مطبعة المجمع العلمي العراقي ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م .
- ديوان عمر بن أبي ربيعة ،
دار صادر - بيروت .
- ديوان الأعشى الكبير ،
ميمون بن قيس ،
شرح وتعليق : د . محمد حسين ،
مكتبة الآداب بالجماميز ١٩٥٠ .
- ديوان الفرزدق ،
دار بيروت للطباعة والنشر ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م .
- ديوان القطامي ،
عمير بن شُيَيْم ابن تغلب ،
تحقيق : د. ابراهيم السامرائي وأحمد مطلوب ،
بيروت ١٩٦٠ .
- ديوان القطامي ،
تعليق : بارت - ليدن ١٩٠٢ م.
- ديوان قيس بن الخطيم ،
تحقيق : د . ناصر الدين الأسد ،
مكتبة دار العروبة ، ط١ ، ١٣٨١هـ /١٩٦٢م .
- ديوان كثير عزة ،
جمعه وشرحه : د . احسان عباس ،
دار الثقافة بيروت . لبنان ١٣٩١هـ /١٩٧١م .
- ديوان الأخطل ،
شرحه وقدم له : مهدي ناصر الدين ،

دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط١ ، ١٤٠٦هـ .

- ديوان المعاني ،

للإمام أبي هلال العسكري ،

عالم الكتب .

- ديوان النابغة الذُّبياني ،

تحقيق : محمد أبو الفضل ابراهيم ، ط٢ ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٥م .

- ذو الرُّمة شاعر الحب والصحراء ،

د. يوسف خليف ،

مكتبة غريب ، القاهرة .

- الزمان والمكان وأثرهما في حياة الشاعر الجاهلي وشعره ،

د.صلاح عبد الحافظ ،

دار المعارف ، القاهرة .

- زهر الآداب وثمر الألباب ،

أبو إسحاق ابراهيم الحصري القيرواني ،

ضبط وشرح : د . زكي مبارك ،

تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ،

دار الجيل للنشر والتوزيع ، بيروت لبنان ، ط٤ .

- سر الفصاحة ،

أبو محمد عبدالله بن سنان ،

دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط١ ، ١٤٠٢هـ /١٩٨٢م .

- شرح ديوان حسَّان بن ثابت الأنصاري ،

وضعه وصححه : عبد الرحمن البرقوقي ،

دار الكتاب العربي ، بيروت لبنان ، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م .

- شرح ديوان سقط الزند ،
لأبي العلاء المعَرِّي ،
دار بيروت للطباعة والنشر ، ١٣٧٦هـ/١٩٥٧م .
- شرح ديوان علقمة ، طرفة ، عنترة ،
تحقيق وشرح : نخبة من الأدباء ،
دار الفكر ، بيروت ، ١٩٦٨م .
- شرح ديوان عنترة بن شدَّاد ،
تحقيق : عبد المنعم شلبي ،
دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ، ط١ ، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م .
- شرح المعلقات السبع ،
أبو عبدالله الحسين الزوزني ،
دار صادر ، بيروت .
- الشعر والشعراء ،
أبو محمد عبداللّه بن مسلم بن قُتيبة ،
تحقيق وشرح : أحمد محمد شاكر ،
دار المعارف بمصر ١٩٦٦ م.
- شعر الحرب في أدب العرب ،
د . زكي المحاسني ،
دار المعارف بمصر ١٩٦١ م .
- شعراء النصرانية بعد الإسلام ،
جمع وتنسيق : لويس شيخو ،
دار المشرق ، بيروت لبنان ، ط ٣ .
- كتاب الصناعتين الكتابة والشعر ،
أبو هلال الحسن بن عبدالله العسكري ،
تحقيق : علي محمد البجاوي و محمد أبو الفضل ابراهيم ،
دار الفكر العربي ، ط٢ .
- طبقات فحول الشعراء ،

محمد بن سلام الجُمحي ،
قرأه وشرحه : محمود محمد شاكر ،
مطبعة المدني ، القاهرة .

- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ،
أبو علي الحسن بن رشيق الأزدي ،
تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ،
دار الجيل ، بيروت لبنان ، ط٥ ، ١٤٠١هـ/١٩٨١م .

- عيار الشعر ،
أبو الحسن محمد بن أحمد العلوي ،
تحقيق : د. عبد العزيز بن ناصر المانع ،
دار العلوم للطباعة والنشر ، ١٤٠٥ هـ /١٩٨٥م .

- غريب الحديث ،
أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة ،
تحقيق : د. عبدالله الجبوري ،
مطبعة العاني - بغداد ١٩٧٧ م .

- الغزل في العصر الجاهلي ،
د. أحمد محمد الحوفي ،
دار نهضة مصر للطبع . مصر للطبع والنشر الفجالة ، القاهرة ، ط٢ .

- فتح الباري ، شرح صحيح البخاري ،
أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ،
دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت لبنان .

- فقه اللغة وَسرُّ العَرَبية ،
للامام : أبو منصور عبدالملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي النيسابوري ،
توزيع دار الباز ، مكة المكرمة .

- في الشعر الإسلامي والأموي ،
د . عبد القادر القط ،
دار النهضة العربية للطباعة والنشر . بيروت ١٩٧٩م .
- القُطامي حياته وشعره ،
د . زكي عابدين غريب ،
دار المعارف ١٩٨٦م .
- الكامل في اللغة والأدب ،
أبو العباس المبرد ،
تعليق : محمد أبو الفضل ابراهيم ،
دار الفكر العربي ، القاهرة .
- كتابُ الخَيْلِ ،
أبو عبيدة مَعْمَر بن المثنى ،
تحقيق : د . محمد عبد القادر أحمد ،
مطبعة النهضة العربية ، ط ١ ، ١٤٠٦هـ /١٩٨٦م .
- الكشاف ،
أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري ،
توزيع : دار الباز ، مكة المكرمة ،
دار المعرفة – بيروت لبنان .
- لسان العرب ،
أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور ،
دار صادر – بيروت .
- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ،
لضياء الدين بن الأثير ،
تعليق : د . أحمد الحوفي و د . بدوي طبانة ،
دار نهضة مصر للطبع والنشر ، القاهرة .
- مجمع الأمثال ،
أبو الفضل أحمد بن محمد بن ابراهيم الميداني ،
تحقيق : محمد أبو الفضل ابراهيم ،
دار الجيل ، بيروت لبنان ، ط ٢، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م .

- مروج الذهب ومعادن الجوهر ،
أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي ،
تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ،
دار المعرفة - بيروت لبنان .
- المصون في الأدب ،
أبو أحمد الحسن بن عبدالله العسكري ،تحقيق : عبد السلام هارون ،
مكتبة الخانجي بالقاهرة ، دار الرفاعي بالرياض ، ط٢، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م .
- المطوّل على التلخيص ،
لسعد الدين التفتازاني ،
مطبعة أحمد كامل ، ط ١ ، ١٣٣٠ هـ .
- المعاني الكبير في أبيات المعاني ،
أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ،
مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ، ط١ ، ١٣٦٨هـ/١٩٤٩م .
- معاهد التنصيص على شواهد التلخيص ،
عبد الرحيم بن أحمد العباسي ،
تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد،
عالم الكتب ، بيروت ، ١٣٦٧هـ / ١٩٤٧م .
- معجم البلدان ،
الشيخ : شهاب الدين ياقوت الحموي البغدادي ،
عني بتصحيحه : د. محمد أمين الخانجي ، ط١، ١٣٢٤هـ/١٩٠٦م.
- معجم الشعراء ،
أبو عبدالله محمد بن مروان بن عمران المرزباني ،
تحقيق : عبد الستار أحمد فراج ،
منشورات مكتبة النوري - دمشق .
- معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع ،
عبدالله بن عبد العزيز البكري الأندلسي ،
تحقيق : مصطفى السقا ،
عالم الكتب - بيروت .

- المفضَّليَّات ،

المفضل بن محمد بن يَعْلَى الضَبيّ ،

تحقيق وشرح : أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون ،

بيروت ، لبنان ، ط٥ ، ١٣٨٣هـ /١٩٦٤م .

- الممتع في صنعة الشعر ،

عبد الكريم النهشلي القيرواني ،

تحقيق : عباس عبد الساتر ،

مراجعة : نعيم زرزور ،

دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١، ١٤٠٣ ه /١٩٨٣م .

- الموازنة بين الطائيين ،

أبو القاسم الحسن بن بشر بن يحيى الآمدي ،

تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ،

المكتبة العلمية - بيروت لبنان .

- الموشح ،

أبو عبيدالله محمد بن مروان بن عمران المرزباني ،

تحقيق : علي محمد البجاوي ،

دار النهضة ، مصر القاهرة ١٩٦٥ م .

- المواهب الفتحية في علوم اللغة العربية ،

العلامة الشيخ حمزة فتح الله ،

ط١ ، المطبعة الأميرية بمصر ١٣١٢ هـ .

- نسب قريش ،

أبو عبدالله المصعب الزبيري ،

نشره : إ .ليفي بروفنسال ، ط٣ .

- وصف الطبيعة في الشعر الأموي ،

إسماعيل أحمد شحادة العالم ،

مؤسسة الرسالة ، ط١ ، ١٤٠٧ هـ /١٩٨٧م .

الدوريـــــات :

- البعد الفلسفي في شعر القطامي ،
د . نزيه كسيبي ،
مجلة التراث العربي ،
العدد :٢١ ، صفر ١٤٠٦هـ / تشرين الأول ١٩٨٥م، السنة السادسة.
دمشق .
- حول مدلولات رموز المرأة في مقدمة القصيدة العربية قبل الاسلام،
د . محمود عبدالله الجادر ،
مجلة المجمع العلمي العراقي ،
ج :٣١ ، ع : ٤ .
- استعراض نولدكي ،
مجلة الدراسات الشرقية ، فيينا ، ١٩٠٢م ، ج : ١٦ .
- الشعر والحياة اللغوية في القرنين الأول والثاني للهجرة ،
د. يوسف خليف ،
مجلة المجلة ،
العدد : ٦ ذو القعدة ١٣٧٦هـ / يونيه ١٩٥٧م .
- قراءة موجزة في طبعتي ديوان القطامي ،
* طبعة ليدن ، تحقيق : بَارْت ،
* طبعة بيروت ، للأستاذين السامرائي ومطلوب ،
د. نزيه كسيبي .
مجلة معهد المخطوطات العربية ، المجلد الثلاثون ، الجزء الثاني .

٢ - المراجع الأجنبية :

1 - Barth , J. Diwan des Umeir ibn Schujeim al-Qutami, Leiden (Brill), 1902.

2 - Kussaibi, Nazih, Un Poete Arabe de le L'epoque Umayyade : al-Qutami et son oeuvre, these de doctorat du 3 eme cycle, Strasbourg, 1983, 300p. + 2 ills.

3 - Noldeke, Th, " Anzeigen "in Wiener Zeitschrift Die Kunde des Morgenlandes , vol./part 16, 1902, pp. 275 - 85 .

4 - Reckendorf, H. " Recensiones" in Zeitschrift Fur Assyriologie, vol./part XVII, Sept. 1902, pp. 70 - 124 .

فهـرس المـوضـوعـات

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	أ – ز
تمهيد	١ – ٢٢
الفصل الأول	
التشبيهات في شعر القطامي	٢٣–١٢٧
تشبيهات الطلل	٢٤
تشبيهات المرأة	٣٤
تشبيهات الناقة	٦٤
تشبيهات الحيوان	٩٧
تشبيهات الحرب	١٠٨
تشبيهات الطبيعة	١١٦
تشبيهات الخمر	١٢١
الفصل الثاني	
الاستعارات في شعر القطامي	١٢٨–١٧٤
الطلل	١٢٩
المرأة	١٣٥
الناقة	١٥٧
الحرب	١٦٢
الطبيعة	١٦٧
الخمر	١٧٢
الفصل الثالث	
الكناية في شعر القطامي	١٧٥–٢٠٨
تمهيد	١٧٦

الموضـــوع	الصفحة
كنايات الحرب في شعر القطامي	١٧٨
كنايات المرأة في شعر القطامي	١٩٦
كنايات الناقة في شعر القطامي	٢٠٣
كنايات الكرم في شعر القطامي	٢٠٦
الفصل الرابع	
مراجع التصوير البياني في شعر القطامي	٢٠٩-٢٢٠
أولاً : الظواهر الكونية	٢١١
ثانياً : النبات	٢١٧
خاتمة البحث	٢٢١-٢٢٤
المراجع والمصادر	٢٢٥-٢٤٠
١ - فهرس المراجع العربية ، والدوريات	٢٢٦
٢ - فهرس المراجع الأجنبية	٢٤٠
فهرس الموضوعات	٢٤١-٢٤٣